

رسائل ومقالات (3)



رسائل ومقالات (٣)

إشراقات فكرية

بقلم

السيد الشهيد محمد الصدر (قده)

تحقيق

مؤسسة المنتظر لإحياء تراث آل الصدر

سرشناسه: صدر، سيد محمد، ١٩٤٣ - ١٩٩٩م.
عنوان و نام پديدآور: رسائل ومقالات - إشراقات فكرية/ تأليف السيد محمد الصدرقدس سره.
مشخصات نشر: قم: مدين، ١٣٩٣.
مشخصات ظاهرى: ٣ج.
شابك: دوره: 8-082-227-964-978؛ ج١: 8-079-227-964-978؛
ج٢. 4- 080-227-964-978؛ ج٣, 1-081-227-964-978:
وضعيت فهرست نويسى: فيپا
يادداشت: عربى.
يادداشت: كتابنامه.
موضوع: شيعه -- عقائد
موضوع: اسلام -- مسائل متفرّقه
رده بندى كنگره: ١٣٩٣ ٥ر ٤ص/ ٥/ ٢١١ BP
رده بندى ديويى: ٢٩٧/٤١٧٢
شماره كتابشناسى ملى: ٣٤٦٢٣٧٥

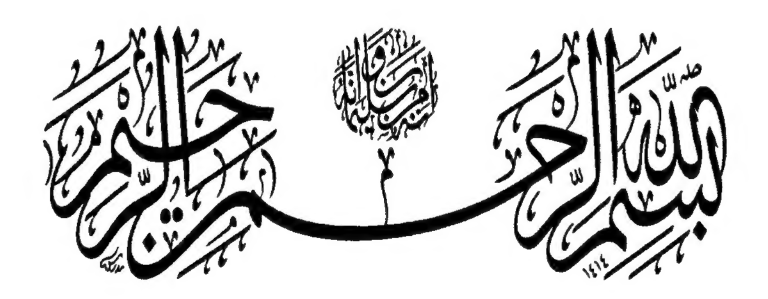
مؤسّسة مدين للطباعة والنشر - هاتف : ٧٧٢٢٦٠١-٠٢٥١

رسائل ومقالات - إشراقات أدبية

الجزء الثالث

✓ المؤلف: آية الله العظمى السيّد الشهيد محمد الصدرقدس سره
✓ تحقيق: مؤسّسة المنتظر لإحياء تراث آل الصدر
✓ المراجعة اللّغويّة: الحاجّ عبد الرضا عبد الحسين
✓ الناشر: مدين للطباعة والنشر
✓ العدد: ٢٠٠٠
✓ المطبعة: وفا
✓ الطبعة: الأولى -١٤٣٥ هـ-٢٠١٤م
✓ الزينگراف: مدين
✓ رقم الإيداع الدولي: 978 -964-227-081-1
✓ رقم الإيداع الدولي للدورة: 978 -964-227-082-8

لمؤسسة المنتظر لإحياء تراث آل الصدر
+٩٨ ٢٥١ -٧٨٣٣٣٣٧ +٩٨ -٩١٢٧٤٧٣٨٥٢
Email: Al_montazer16@yahoo.com


بسم الله الرحمن الرحيم



قصّة من القرآن الكريم
(قصّة التضحية الخالدة)



قصة من القرآن الكريم

(قصة التضحية الخالدة)

في القرآن حكم، وفي القرآن أمثال، وفي القرآن إرشادٌ وتوجيه، وفيه قصصٌ وتأريخ، وفيه نظمٌ وقوانين لمختلف جوانب الحياة. وهو حين يتناول البشريّة بالتنظيم والتوجيه، نراه يرقى بها - إن هي اتّبعت أوامره ونواهيه- إلى أوج الأخلاق الفاضلة، وأقصى درجات كمالها المنشود. وحين يتناول العقائد الإسلاميّة بالاستدلال والتوضيح، نراه يأتي بما يوافق الفطرة البشريّة، وما يجده الإنسان منطبعاً في أصل كيانه وجبلّة وجوده من الاعتقاد بوجود إلهٍ حكيمٍ مدبّرٍ لهذا الكون، وأنّه واحدٌ لا شريك له.

وهو حين يقصّ القصص ويذكر حوادث التأريخ، نراه يختار الحوادث التي تحتوي على العبرة والعظة، ويرويها بأروع شكلٍ يهزّ النفس ويحرّك الضمير ويدعوه إلى الاتّعاظ والاسترشاد. وحين يتناول القرآن الأمثال والحكم، نراه يأتي بالأُمور المألوفة بين الناس، وما يجده الإنسان بداهة في نفسه، نحو قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[1]، فهو يأخذ أُسلوب الطبيعة البشريّة في التفكير والمعاش والحياة الاجتماعيّة والعقائد، ويجعل منها قاعدةً لأمثاله وحكمه،

(١) سورة الحجّ، الآية: ٧٣.

لأجل أن يحسّ الفرد أنَّ هذا السلوك شرٌّ يجب اجتنابه، وأنَّ ذلك السلوك خيرٌ ينبغي فعله، نحو قوله عزّ من قائل: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[1].

وإنَّ هذه الطريقة الفذّة في العرض والتحليل لهي من دلائل إعجاز القرآن ورقيّه عن مستوى الأُسلوب البشريّ، ودليلٌ واضحٌ على حكمة الإسلام البالغة، ووجهة نظره الصائبة، وحسن تقديره للأُمور.

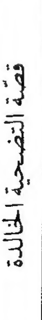
وما دام الإسلام هو الدين الحقّ، وما دام الله هو الحقيقة الكبرى في هذا الكون، وما دامت أوامره ونواهيه قد وُجّهت إلى البشر لأجل سعادتهم ورفاههم، فإنَّ هذه الأوامر يجب أن تطاع، وإنَّ هذه النظم ينبغي أن تطبّق؛ لأنّها نظمٌ واردةٌ من الحقيقة الكبرى والوجود السرمديّ الخالد الكامل من جميع جهات الكمال، من الله عزّ وجلّ؛ ولأنَّ هؤلاء البشر الذين وُجّهت إليهم هذه الأوامر والنواهي وُوضعت من أجلهم النظم، إنّما هم أُناسٌ مخلوقون من قِبَل واضع هذا التشريع، وهو الذي أسبغ عليهم نعمه ووهبهم من الملكات والمواهب ومن طرق العيش الكريمة ما يسّر لهم الحياة وجمّلها في عيونهم، أفليس الأجدر بهم أن يطيعوا هذه الأوامر، أداءً لواجب الشكر لهذا المنعم العظيم؟

ونرى القرآن يضرب الأمثال المتعدّدة المؤثّرة والعميقة الدلالة، في وجوب إطاعة الله تعالى مهما كلّف الأمر، وكيف أنَّ أوامره عزّ وجلّ تؤثّر في

(١) سورة هود، الآية: ٩-١١.

النفوس المؤمنة والضمائر الخيّرة، وتهيمن على مشاعرها بشكلٍ يهوِّن عليها في سبيل امتثالها وتطبيق الأوامر الإلهيّة، كلَّ زخارف الحياة الزائلة، بل كلّ عزيزٍ ونفيسٍ مهما غلا ومهما عزّ.

من تلك الأمثال قصّة إبراهيم خليل الرحمن على نبيّنا وآله وعليه السلام، حين أمره الله عزّ وعلا امتحاناً لإيمانه واختباراً لقوّة عقيدته ولأجل أن تظهر كرامته للناس ويبقى مغزاها العظيم خالداً مع الدهر، أمره أن يذبح ابنه. وقد أدرك إبراهيم حين توجّه الأمر إليه أنَّ هذا الأمر صادرٌ إليه من المولى العظيم الذي لا ينبغي لأحدٍ مخالفته، ولا يجمل الخروج عن أوامره، ولو اصطدم امتثالها بأثمن العواطف وأقربها إلى النفس، فلا ينبغي أن تقف عاطفة الأبوّة حائلاً دون امتثال أمر الله عزّ وجلّ؛ فإنَّ هذه العاطفة والولد المذبوح نفسه ليسا إلّا من نفحات فضله، ونعمةً من نعمائه.



وقد نجح إبراهيم في هذا الامتحان الإلهيّ نجاحاً باهراً، وحاز الإعجاب الخالد الذي لا يمكن أن تمحوه الدهور، وحاز أكثر من ذلك، رضاء الله عنه وقربه منه، وذلك غاية ما يصبو إليه إنسانٌ يدرك ذلك المقام العظيم.

ونستعرض قصّة الذبح فصلاً فصلاً، فنجد في بدايتها إبراهيم وقد أخذت الرهبة الإلهيّة بمجامع قلبه، وأشرق في نفسه نور الإيمان، وانصهر قلبه في العنصر الإلهيّ الطاهر، فهو يريد أن يتوجّه إلى الله، أن يذهب إليه، رغم كلّ العقبات وكلّ المكدّرات التي تقف في طريقه، رغم تكذيب قومه لأقواله، وسخريتهم منه، واعتدائهم عليه، فما ينبغي أن تكون هذه العقبات سدّاً مانعاً عن التوجّه إلى الكمال المطلق والحقيقة الخالدة، إلى الله عزّ وعلا، فهو يردّد

بخشوع: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[1]، إنّي ذاهب إلى ربّي لأجل أن يفيض على قلبي مزيداً من الإيمان ومزيداً من الجمال ومزيداً من النور، هذا النور وهذا الجمال الذي كان قد أحسّ إبراهيم بنشوته وبلذيذ طعمه منذ نعومة أظفاره، عندما نفى أن تكون الشمس والقمر والكواكب أرباباً، وإنّما لكلّ هذه الأُمور خالقٌ مدبّرٌ، خلقَها وعيّنَ لها وظيفتها في حياتها، فهي دائبةٌ على إطاعة أمره، والقيام بوظيفتها الموكلة إليها خير قيام، وكذلك ينبغي أن يكون إبراهيم أيضاً.

ثُمَّ يتوجّه إبراهيم إلى الله عزّ وجلّ بالدعاء، فقد شعر أنّه قد أصبح في القرب الإلهيّ في مرتبةٍ يستجاب فيه دعاؤه، وتقضى به سائر طلباته، وهو يتوجّه إليه عزّ وجل بأعزّ الأماني في نفس الإنسان، وأقربها إلى قلبه ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ﴾[2].

هكذا يتمتم إبراهيم بخشوع، فما ينبغي أن يبقى الإنسان بدون ذريّة، فهي تعينه على أُمور حياته وتجبر ضعفه عند هرمه، وتبقى له ذكراً وحياةً ثانيةً بعد موته. ولكن وفي نفس الوقت، لا ينبغي أن يكون الولد إلّا صالحاً، فليس في الولد الفاسد أيّة فائدة إن لم يكن مليئاً بالمضارّ والمفاسد، ولن يستطيع الوالد أن يجني في تربيته هذه الثمرات المرجوّة من الذريّة الصالحة المخلصة.

ومن ثَمَّ نرى إبراهيم يتوجّه إلى ربّه ضارعاً بأن يهبه ولداً من الصالحين؛ فإنَّ لله عزّ وجلّ اليد الطولى في صلاح الإنسان وفساده، فهو الذي يشرف على تكوين نفسه وخلق غرائزه، وهو الذي يوفّقه للخير والعمل الصالح أثناء

(١) سورة الصّافات، الآية: ٩٩.

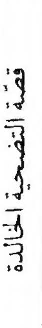
(٢) سورة الصّافات، الآية: ١٠٠.

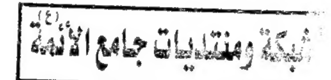
حياته، وويل للأب إذا كانت نفس الولد شرّيرةً توّاقةً إلى الظلم والاعتداء، أو عاش الولد في بيئةٍ فاسدة، فاكتسب من شرورها وأوضارها، وهل تنفع جهود الوالد بعد ذلك في إصلاح ابنه؟ إذن، فينبغي أن يتوجّه الإنسان إلى الله عزّ وجلّ ليجعل ولده صالحاً، وهكذا توجّه إبراهيم.

حينئذٍ يستجيب له الله عزّ وجلّ؛ لمدى قربه منه ومدى خشوعه في السؤال، ولأنّه يعلم أنَّ هذا الطلب صادرٌ عن قلب إبراهيم من دون تدليس ولا مراء، فيبشّره بغلامٍ حليم، متّصفٍ بالصفات الكاملة الفاضلة، على ما يطلب أبوه ويريد.

ويولد ذلك الولد المأمول، قرّة عين أبيه، ويبدأ إبراهيم بتربيته ورعايته، وبذل الجهد والمال في سبيل راحة ابنه وسعادته، وفي سبيل تنشئته نشأةً صالحةً ترضي الله عزّ وجلّ، وتنتج ولداً بارّاً يتّصف بالأخلاق الفاضلة وينفع المجتمع بعد أبيه، ويذكر الناس أباه بكلِّ خيرٍ على تنشئته لمثل هذا الولد الصالح، ويدعو له هذا الولد الصالح ويقرّب القربات لله عزّ وجلّ في سبيل مضاعفة رضاء الله تعالى على والده. كلّ تلك المكارم لا يمكن أن تُقال من الولد الفاسد السقيم الضمير. إذن، فلابدَّ لإبراهيم من مضاعفة الجهد في سبيل هدايته إلى طريق الصواب، وإنارة الطريق أمامه لكي يسير معه إلى الحقيقة الكبرى، إلى الله عزّ وجلّ.

ونشأ الولد تحت رعاية أبيه في ذلك الجوّ المشبع بالخشوع لله تعالى والضراعة إليه والتوكّل عليه، فامتزج هذا الجوّ بنفسه وصار جزءاً من لحمه ودمه، وجزءاً من ضميره، وصار الولد صورةً أُخرى لأبيه في التوجّه إلى الله تعالى والإيمان به والتوكّل عليه، وصار يقوم بما يقوم به أبوه من أعمالٍ عباديّةٍ





يتقرّب بها إلى الله جلّ وعلا.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾[1]. عندما يشبّ الولد ويترعرع وينضج مواهبه وتكمل عناصر نفسه، وتبلغ ثقافته الدينيّة الإلهيّة أوجها في الرسوخ والارتفاع، يريد الله بحكمته البالغة أن يمرّ الأب وأن يمرّ الابن بامتحانٍ عسير، عسير جدّاً، بلغ من عسره أنّه يصطدم بأنبل العواطف في نفس إبراهيم وأعمقها، بعاطفة الأبوّة، تلك العاطفة التي هاجت في نفسه عند توجّهه إلى الله تعالى، وكان الدعاء الأوّل الذي توجّه به عند ذهابه إلى ربّه ليهديه، وعسير أيضاً على إسماعيل؛ لأنّه ينافي حياته ويسلب منه نفسه.

يريد الله تعالى أن يوجّه إليهما هذا الامتحان لا لهوانهما عليه، ولا لقلّة إيمانهما، فما من شأن ذوي النفوس الضعيفة والإيمان المتزلزل أن يُوجّه إليهما مثل هذا الامتحان العسير، ولن يستطيعوا أن ينجحوا فيه، بل إنّما يوجّهه إليهما لعظم درجتهما عنده ولمدى قربهما منه عزّ وعلا، ولمدى كفاءتهما الدينيّة، وإخلاصهما له عزّ وجلّ، ولأنّ الله تعالى يعلم قابليّتهما على تلقّي مثل هذا البلاء المبين، ويعلم أنّهما سوف يخرجان منه منتصرَين ناجحَين.



وهو يُريد امتحانهما لا لأجل أن يعلم هو بإيمانهما؛ لأنّه غنيٌّ عن ذلك، وعالمٌ بحقائق النفوس ودخائل الضمائر، بل ليكشف أمام الملأ حقيقة إيمانهما، وليظهر أمام الناس مكرمةً من مكارم عقيدتهما.

وهو مجرّد امتحان؛ فإنّ الله - عزّ اسمه- لا يُريد في واقع الأمر أن يفجع إبراهيم بابنه وإسماعيل بنفسه، ومن ثَمَّ نراه قد تدارك الأمر قبل وقوعه، ولكنّه امتحان؛ لأجل سبر أغوار إيمانهما وجسّ نبض عقيدتهما، ومن شأن

(١) سورة الصّافّات، الآية: ١٠٢.

المتحن أن يكون عالماً بالجواب الصحيح سلفاً، ومن شأنه أيضاً أن لا ينتفع من الجواب، وإنّما المنتفع منه هو الممتحَن نفسه.

وغاية الفرق بين الامتحان الإلهيّ والامتحانات المعهودة بيننا: أنّ الممتحَن منّا عالمٌ بأنّ السؤال امتحانيٌّ لا يُراد منه الطلب الحقيقيّ، أمّا الامتحان الإلهيّ فلابدّ أن يبدو بمظهر الجدّ؛ لكي يثمر ثمرته المطلوبة[1]، ويبدو هذا واضحاً إذا تصوّرنا أنّ إبراهيم كان عالماً سلفاً بأنّ هذا الأمر امتحانيٌّ صرف، وأنّ الله تعالى لا يُريد له أن يذبح ابنه واقعاً، ماذا يكون موقفه حينئذٍ؟



ينام إبراهيم في يومٍ من الأيّام، فيرى في المنام أنّه يذبح ابنه، ذلك الولد الذي بلغ معه السعي، وبذل في سبيل تربيته من التضحيات الشيء الكثير، فيجلس مرتبكاً فزعاً، ثُمَّ يفكّر قليلاً فيجد نفسه أمام أمرٍ إلهيٍّ موجّهٍ إليه بذبح ابنه؛ وذلك لأنّه نبيٌّ معصوم، وليس من شأن المعصوم أن يحلم بحلمٍ كاذب؛ لأنّ روحه يقظةٌ دائماً ومتّصلةٌ بالله دائماً، وليست الرؤيا الكاذبة إلّا مِن قِبل الشيطان، ولا سبيل للشيطان إلى روحه القدسيّة، فلابدّ أن تكون هذه الرؤيا صادرةً من الله عزّ وجلّ، وما يصدر من الله تعالى حقيقةٌ لا مراء فيه.

إذن، فلابدّ أن يتحقّق حلمه، مهما كلّفه الأمر ومهما أدّى ذلك إلى بذل التضحيات؛ لأنّه أمرٌ من الله عزّ وعلا، وأمر الله واجب الامتثال.

---

(١) يمكن تلخيص الفرق بينهما بحسب الاصطلاح العلميّ للفقهاء، بأنّ الممتحَن منّا يعلم بأنّ المصلحة تتعلّق بنفس إصدار الأمر فقط دون متعلّقه، في حين لابدّ أن تبدو الامتحانات الإلهيّة بمظهر أنّ المصلحة متعلّقةٌ بالمتعلّق؛ لتثمر حكمتها المرجوّة (منه قدس سره).



إنَّه مأمورٌ بذبح ابنه، هذه هي الحقيقة التي اكتشفها إبراهيم. إنَّه ابنه الصالح الذي بذل في سبيله كلّ مجهوده؛ لأجل أن يسعد، ولأجل أن يكمل، ولأجل أن تتّسع مداركه وثقافته، ولأجل أن يقرب من الله ويملأ قلبه توحّده والخشوع إليه. وتكلّلت كلّ هذه المساعي بالنجاح بفضل الله ومنّه، وتحقّق أمل إبراهيم، فهل من الصالح أن يذبح ابنه؟ وهل من المحبّب إلى نفسه أن يقطف هذه الزهرة الغضّة الجميلة ويحرمها من الحياة، ويقطعها بيديه عن عمدٍ وتفكير؟ أيّ يدٍ مجرمة تقوم بهذا العمل!!

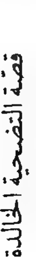
ولكنّه أمر الله عزّ وعلا، ولابدَّ من تنفيذ أمره؛ فإنَّ كلّ هذه إنَّما هي نعمٌ قد حصلت في يد إبراهيم مِن قِبل الله عزّ وجلّ، وهو صاحب الاختيار المطلق في إبقائها لديه وسلبها عنه، وقد اختار الله تعالى سلبها، فلتكن مشيئته، ولتتحقّق إرادته، فما ينبغي للعبد الصغير أن يخالف مولاه الكبير، ولن تكون مجرمةً تلك اليد التي تطيع أمر الله تعالى.

وهنا يذهب إبراهيم إلى ولده حاملاً معه الخبر الرهيب؛ لينظر ماذا يرى، فالأمر متعلّقٌ به أكثر من أيّ شخصٍ آخر، كما أنَّه لا ينبغي تنفيذ الأمر دون أخذ رأيه فيه، لا لأجل أن يكون رأيه هو الحكم الفصل في الموضوع، فما وراء أمر الله تعالى حكمٌ فصل، بل لأجل الاستيناس برأيه وأخذ المشورة منه، ولئلّا يفاجأ بذبحه على حين غرّة، وفي ذلك سيرٌ على أحسن طرق التربية الصحيحة.



ولم يتلعثم إبراهيم، ولم ترتجف الكلمات على شفتيه، فأمر الله فوق كلّ اعتبار، بشكلٍ قاطع لا يقبل الشكّ والتردّد، وابتدر ابنه قائلاً: ﴿يَـابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾[1].

(١) سورة الصّافّات، الآية: ١٠٢.



ويفاجأ الولد، ويجفل، وتأخذ على كيانه الرهبة، ويعتقل لسانه عن النطق لحظة، فهذا أبوه، أبوه الذي أولده وربّاه، وتعهّده بأحسن تربية، يجابهه بهذا القول الرهيب. إنّه يحاول بقوله هذا أن يمسك السكين ويقطع رقبته، يا للهول لم يبقَ من حياته إلّا دقائق معدودات! وانحبس نفسه في صدره، وتتابعت دقّات قلبه، وضاقت عليه آفاق ذهنه، فما الذي ينبغي أن يفعله تجاه هذا الأب القاسي! أينبغي قتله والحقد عليه أو إسماعه ما لا ينبغي من الكلام؟

كلا، فنفس إسماعيل المؤمنة لا تقبل بكلِّ ذلك، وفكّر لحظةٍ. إنّه يعلم أنَّ والده نبيٌّ معصوم، وأنَّ رؤياه لا يمكن أن تكون إلّا صادقةً وإلّا صادرةً من الله عزّ وجلّ، وأمراً ينبغي عليه امتثاله. إذن، فأبوه لم يقصد قتله ولم يتعمّد ذبحه، وإنّما جاء إليه كاتماً عواطفه، مسلّماً أمره إلى الله عزّ وعلا، ليبلغه الأمر الإلهيّ الرهيب، وقد تفضّل أبوه عليه بإخباره بالنبأ لأخذ المشورة منه، ما الذي ينبغي أن يكون الرأي، بعد أن أمر الله عزّ وجلّ بذبحه، وهو يعلم أنَّ هذه الاستشارة من والده ليست إلّا صورةً ظاهريّةً للاستيناس وتبادل الآراء، أليس هناك إلّا رأيٌ واحدٌ لا محيص عنه، ولو كلّفه ذلك حياته؟!

وفي غمرة الإحساس بدبيب الموت وتصوّر آلام الذبح الرهيبة من ناحية، والتسليم لأمر الله وتفويض الإرادة إليه تعالى من ناحيةٍ أُخرى، فما ينبغي أن يظنّ الإنسان بشيءٍ حتّى ولو كان نفسه حيال أمر الله عزّ وجلّ، فهو المتفضّل بها على الفرد وهو صاحب التصرّف بها كما يشاء، وقد أراد الآن أن يسلبها منه، فليكن ما أراد، ولتنفّذ مشيئة الله عزّ وجلّ، وخرج الصوت ضعيفاً ومتكسّراً، قائلاً: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ

الصَّابِرِينَ﴾[1]. فالصبر هو الذريعة في أمثال هذه المواقف الرهيبة، ولـن يكـون الصبر إلَّا بمشيئةٍ من الله العليّ العظيم.

ولم يتردّد إبراهيم ولم يتردّد ابنه لحظـة، في الاستـسلام لأمـر الله تعـالى، والخضوع إلى إرادته. بادر الأب بعـد أن سـمع موافقـة ابنـه عـلى هـذا الأمـر الرهيب، تلك الموافقة التي طالما تمنّاها من ابنه، وهي التي دعـا أن يرزقهـا الله ابنه قبل أن يأتي ولده إلى دار الدنيا، حين قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2]، وهي الموافقة التي سعى إبراهيم في غرسها في نفس ولده وتغذيتها في ضميره، الموافقة على أمر الله عزّ وجلّ مهـما صـعب الامتثـال ومهـما قامـت في طريقـه العقبات.

بادر الأب إلى السكّين فأخذها، واستصحب ابنه إلى الصحراء ليذبحه، وانقاد الولد معه، ومشيا وقد أسلما أمرهما إلى الله العليّ العظيم.

وأتت اللحظة الرهيبة ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾[3]. أضـجع الوالـد ولـده عـلى التراب على أحد جانبيه، ثُمَّ أمسك بمجامع قلبـه، وحـاول أن يجمـع شـتات أفكاره، وأن يُوقف من تيّار أنفاسه المتتابعة، ثُمَّ كانت لحظة مروّعة جمع فيهـا إبراهيم جميع ما رزقه الله عزّ وجلّ من الـصبر والجلـد، والإيـمان والثقـة بـالله تعالى والتسليم لأمره، وأدنى السكين من رقبة ولده الذبيح.

كانت روحهما في ذلك الحين أقرب مـا تكـون إلى الله عـزّ وجـلّ، فهـو الذي يُتوجَّهُ إليه ويُتَوكَّلُ عليه في مثل هذه الشدائد المرعدة، وهـو الـذي مـن

---

(١) سورة الصّافّات، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة الصّافّات، الآية: ١٠٠.

(٣) سورة الصّافّات، الآية: ١٠٣.

أجله استسلما لهذا العمل الرهيب، وهو الملجأ الوحيد في مثل هذه اللحظات الحاسمة في حياة الإنسان. وكانت عناية الله عزّ وجلّ ترقبهما عن كثب، وتستعرض أفعالهما وأقوالهما، وما يدور في قلبيهما من العواطف والأفكار.

إنّهما قد امتثلا الآن أمر الله، واستسلما إليه، وضحّيا بكلِّ شيءٍ في تنفيذ إرادته، وهذا هو الذي يريده الله أن يقع، وأن يتّضح للبشر، ليبقى لهما مكرمةً خالدة، لا تبليها الدهور، ولا تذهب بجدّتها الأيّام. وقد حصل كلّ ذلك، وقد أثمرت الحكمة الإلهيّة أحسن الثمر، وقد نجح هذان الشخصان بالامتحان خير نجاح.

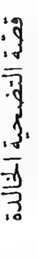
إذن، فينبغي تدارك الأمر قبل فوات الأوان، قبل أن تدخل السكّين في رقبة إسماعيل الذبيح.

وفي غمرة توجّه إبراهيم إلى الله تعالى واستسلامه الكامل إليه؛ في تلك اللحظة الرهيبة، سمع النداء، إنّه نداءٌ واردٌ من الله عزّ وعلا، إنّه يعرف هذا الصوت تماماً، فطالما ما سمع أمثاله، وخشع إبراهيم وأصغى مليّاً لتلقّي الوحي الإلهيّ ﴿...... يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا.....﴾[1]، جعلتَ الرؤيا حقيقةً واقعةً ونفّذتها كما ينبغي أن تنفَّذ؛ لأنّك تعلم أنّها ليست مجرّد رؤيا وإنّما هي أمرٌ الهيّ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[2]، إنّنا نجزي المحسنين بتوفيقهم إلى طاعة الله تعالى كما قد أطعته أنتَ الآن. وإنَّ جعل هذه الملكة القدسيّة الإلهيّة، التي تستهين بكلِّ شيءٍ في سبيل إطاعة أمر الله والتقرّب إليه عزَّ وجلَّ، جزاءً لهُ من أفضل الجزاء وأوفر الجزاء، وأولاه بأن ينال صاحبه السعادة والخلود.

---

(١) سورة الصّافّات، الآية: ١٠٤-١٠٥.

(٢) سورة الصّافّات، الآية: ١٠٥.



عرف إبراهيم في تلك اللحظة، أنَّ العناية الإلهيّة قد راقبت عمله، وشكرت له سعيَه وصلابته في عقيدته، وأنَّ ما يُريده الله عزَّ وجلَّ منه قد انتهى، وعليه الآن أن يكفَّ عن عمله الرهيب.

وإذا بالكون الضيّق قد اتّسعت آفاقه في عين إبراهيم، وإذا السعادة تغمر قلبه، والشكر لله تعالى يملأ كيانه. إنَّه لم يذبح ابنه، إنَّ ابنه الآن قد قام من رقدته التي حسبها أبديّة، ليستأنف شمَّ نسيم الحياة.

ولكن رغم كمال المقصود من الأمر الإلهيّ، وتماميّة الامتحان الرهيب الذي وجّه إلى هذين الشخصين، وخروجهما منه بنجاحٍ منقطع النظير .. رغم ذلك، فإنَّ الرؤيا الإلهيّة لا ينبغي أن تكذَّب، والأمر الإلهيّ لا ينبغي أن يُهدر، لابدَّ أن يذبح إبراهيم شيئاً إن لم يذبح ولده، ليتحقّق قسمٌ من الرؤيا على الأقلّ، وليكون الذبح فداءً لحياة إسماعيل الذي ضحّى به في سبيل إطاعة أمر الله عزّ وجلّ.

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[1]. حضر الروح الأمين جبرئيل عليه السلام، حاملاً معه كبشاً ضخماً مكتنزاً لحماً وشحماً، وحاملاً معه أيضاً تحيّات الله عزّ وجلّ وسلامه على إبراهيم وعلى إسماعيل، وأمره أن يذبح الكبش عوض ولده. ورفع إبراهيم السكّين من فوق عنق ولده، بعد أن أحرز رضاء الله عزّ وجلّ وقبوله لهذا الامتثال الرائع لأمره الرهيب، وبعد أن أحرز أنَّ الله تعالى لا يريد ذبح ابنه واقعاً، بل كان أمره امتحاناً وتجربة، وقد نجحت التجربة.

إذن، فلا ينبغي له أن يستمرّ في ذبح ولده العزيز. ولكن عليه أن يمتثل أمر الله تعالى، هذا الأمر الجديد؛ لكي تتمّ إرادة الله تعالى على أحسن وجه

(١) سورة الصّافّات، الآية: ١٠٧.



وأفضله، ومال إبراهيم على الكبش فذبحه.

هكذا تتّجه النفوس المؤمنة إلى الله، وهكذا تنصهر في بوتقته، وهكذا تطيع أوامره ونواهيه عزّ وعلا. وهكذا ضرب إبراهيم وإسماعيل مثلاً رائعاً خالداً في التضحية من أجل تنفيذ إرادة الله تعالى وإطاعة أمره. وقد أبقى الله عزّ وعلا لهما ذكراً خالداً في قرآنه الكريم، ليجعل منهما موعظةً للبشر، عسى أن تلين القلوب القاسية، وتتّعظ النفوس الجاهلة، وترجع النفوس النافرة إلى حضيرة القدس الإلهيّ، إلى هدى الله عزّ وجلّ، إلى الحقّ، إلى الإسلام.

﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ... كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ... إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[1][2].

الاثنين ٢٤/ ٨/ ١٣٨٢= ٢١/ ١/ ١٩٦٣

محمّد الصدر

النجف الأشرف – العراق.

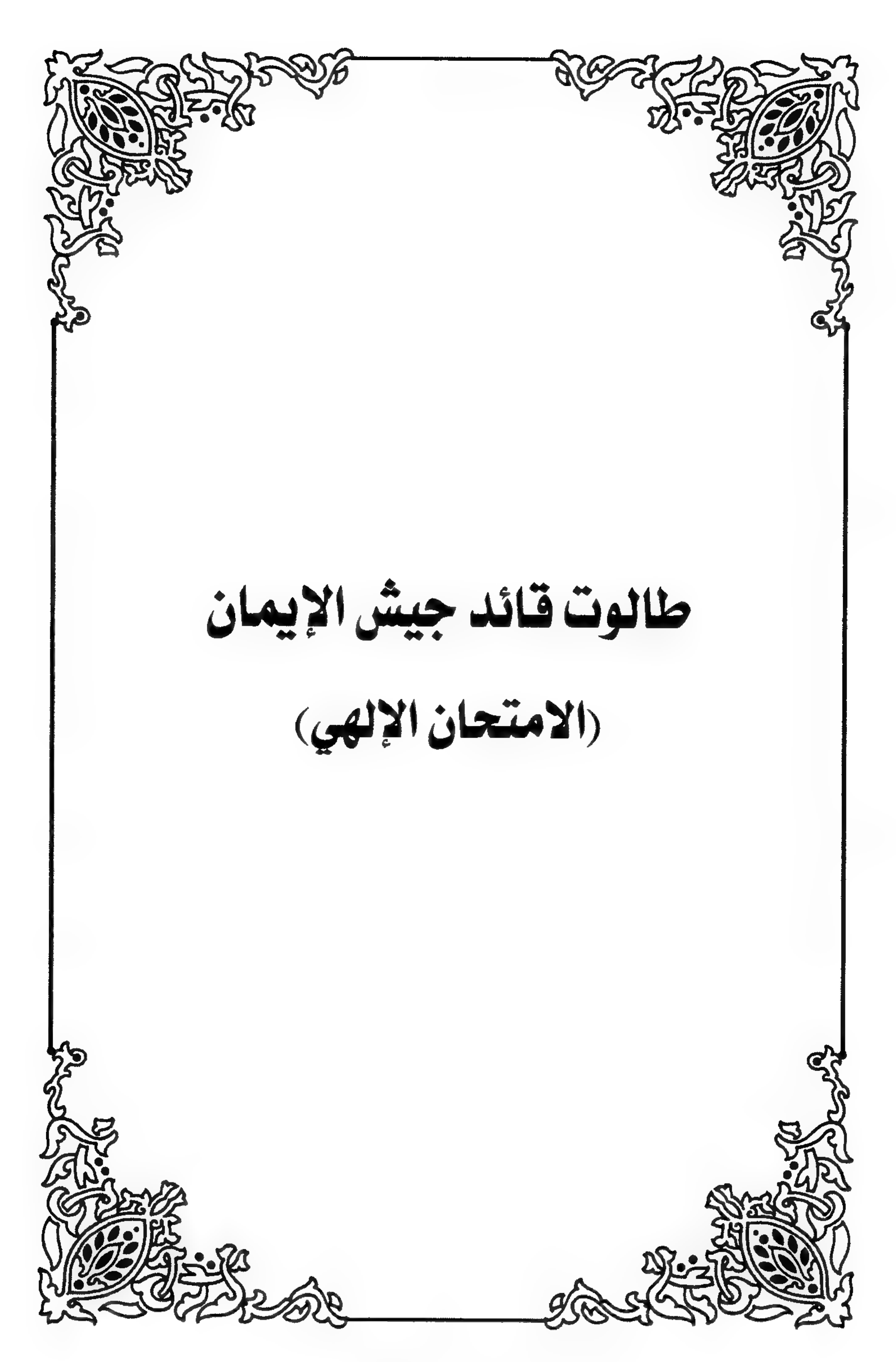




---

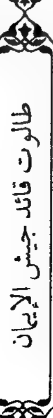
(١) سورة الصّافّات، الآيتان: ١٠٩-١١١.

(٢) نشرت في مجلّة الأضواء، العدد المزدوج الخاصّ بالقرآن الكريم: العددين السابع والثامن لشهري رمضان وشوال، السنة الثالثة: سنة ١٣٨٢. النجف الأشرف، الجمهوريّة العراقيّة (منهقُدِّسَ سِرُّهُ).



طالوت قائد جيش الإيمان

(الامتحان الإلهي)



طالوت قائد جيش الإيمان

(الامتحان الإلهي)

(أ)

(١)

إنَّ الحكمة الإلهيّة، بعد أن رأت قصور العقل البشريّ عن إدراك واقع المصالح البشريّة وحقيقة السعادة الإنسانية، ورأت قصور تفكيرهم عن الآفات الرحبة، والأجواء اللانهائيّة الواسعة التي تريدها لهم، ورأت ارتباط أفكارهم وأذهانهم ضمن محسوساتهم ومرئيّاتهم وفي حدود حياتهم، بحيث يصعب عليها إدراك الكون الروحي الرحيب حيث السعادة والخلود، إلَّا بتأييدٍ إلهيٍّ عظيم.

ومن ثَمَّ فقد رأت الحكمة الإلهيّة أنَّ عليها في سبيل الأخذ بيد هذا البشر القاصر إلى المستقبل الأفضل، وفي سبيل قيادته إلى شاطئ السعادة والسلام، عليها أن تتصدّى لتوجيهه وإرشاده لتدلّه على الطريق وتعلّمه ما هو صلاحٌ أو انحطاطٌ وفساد.

وعليه بادرت إلى إنزال الشرائع وبعث الرسل وإصدار التوجيهات والتعاليم.

ولكن الحكمة الإلهيّة إذ توجّه إلى البشر هذه التعاليم، وإذ تطلب منهم اتّباع أوامرها ونواهيها، لكي يصلوا إلى ذلك المقام العظيم الذي أعدّته لهم؛ لا يمكن أن تدع البشر هملاً إن شاء أطاع وإن شاء تمرّد، فإنّها بذلك لن تستطيع

إحراز وصوله ولا ضمان سعادته، تماماً كالطفل حين يجد في نفسه أنّه من الجميل إدخال يده في النار لما يرى فيها من الضوء الوهّاج، في حين إنّه في عين الوقت يجب ردعه عنه بشدّةٍ وعنف؛ لكي يرتدع ولكي لا يقع في النتيجة المؤلمة التي يجهلها. والبشر بما له من عقلٍ وتفكير، لأصغر من الطفل بالنسبة إلى أبويه، إذا قيس إلى حكمة وقدرة خالقه العظيم.

ومن ثَمَّ بادرت الحكمة الإلهيّة - ضماناً لإطاعته واتّباعه [أي: لإطاعة الإنسان واتّباعه] تعاليمها وإرشاداتها- إلى وضع الثواب والعقاب على اتّباع تعاليمها وعصيانها؛ لكي تزيد الحافز النفسي لدى الإنسان في اتّباع هذه التعاليم.

وجعلت في سبيل إيضاح استحقاق الفرد للثواب والعقاب - إتماماً لإقامة الحجّة عليه- قانوناً عامّاً في امتحانٍ عسيرٍ على الفرد أن يجتازه؛ لكي يحصل على الثواب أو العقاب بجدارةٍ واستحقاق، ولكي يعاقب بما أتى به من جريمةٍ وفساد.

(٢)

وذلك أنَّ كلّ مذهبٍ وكلّ فكرة - بما فيها التعاليم الإلهيّة- تمرّ بمراحل طويلة أثناء وجودها بين ظهراني هذه البشريّة، من حيث سعتها وضيقها، ومن حيث انتصارها واندحارها، فإنَّ تقبُّل الناس للفكرة ومدى تفهّمهم لمحتوياتها ومتطلّباتها، يختلف باختلاف الزمان واختلاف المكان واختلاف ما يحمل الناس من طبائع، وما يحملون من عقائد وأفكارٍ مسبقة.

فإنَّ للمذهب - مادام موجوداً- أشخاصاً مخلصين له، مؤمنين بعقيدته، متحمّسين لفكرته، متفانين في الدفاع عنه والذّب عن حياضه. كما أنَّ فيه أشخاصاً آمنوا به إيماناً سطحيّاً يخلو من اليقين الراسخ والإخلاص



والاندفاع. كما أنَّ في المذهب أُناساً آخرين، وردوا عليه وأظهروا له الولاء والتأييد، وهم في واقع أمرهم مناوئون له ساعون في سبيل هدمه وتقويض صرحه، كما أنَّ لكلِّ مذهبٍ أعداء ومناوئين بالصراحة وعلى المكشوف، على اختلافٍ في درجة الحماس والاندفاع.

وللحوادث التي تقع للمذهب أو لأعدائه عند بثّ الدعوة ونشرها، الأثر الكبير في تقرير مصير الكثير من البشر الذين يعيشون جوّها ويتقلّبون في حوادثها، وبخاصّة أولئك الحائرين المذبذبين الذين يركضون وراء مصالحهم، ويبحثون عن مشتهيات نفوسهم.

فقد أثبت علم الاجتماع أنَّ «المواقف» يمكن أن تتغيّر (١٠٠٪)، فترى شخصاً يقف موقف المؤيّد المتحمّس لمذهبٍ من المذاهب، وإذا به قد انقلب بعد برهةٍ إلى عدوٍّ من أعدائه متحمّسٍ لمذهبٍ آخر مضادّ.

وليس ذلك إلَّا في حدود ما تقرّره مصالحه من ناحية، ودرجة فهمه للمذاهب من ناحيةٍ أُخرى، كما أنَّ الحوادث ونقاط الضعف والقوّة في أعمال الدعاة، لها الأثر الكبير في هذا الانقلاب السريع.

وكلّما كانت المصلحة أهمّ في نظر الفرد، وكلّما كان مغزى الحادثة أعمق، كان الفرد أشدّ اندفاعاً إلى الجهة التي يقرّرها على ضوء فهمه للحياة.

وهذا أمرٌ بشريٌّ عامّ، نابعٌ من داخل النفس البشريّة، ومن أعزّ غريزة لديها، هي غريزة «حبّ الذات». فإنَّ كلّ فردٍ لا يحبّ ولا يعتقد ولا يفكّر ولا يؤيّد إلَّا ما تراه نفسه جميلاً، وما يأتي إلى ذهنه حاملاً معه بريقاً يخلب لبّه ويُعجب نفسه. وغاية ما للحوادث الجارية من عمل، أنّها تضفي بريقاً في عين بعض الأفراد على بعض الأُمور، وتسلب البريق من أعين آخرين تجاهها.

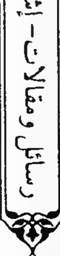
وتشخيص الفرد لموقفه من المذهب المعيّن أو الفكرة الخاصّة، ولما تقتضيه مصلحته تجاهها، وما إذا كانت نفسه تهشّ لها أو تنفر منها، كلّ ذلك يتحدّد في حدود ظروف الشخص الخاصّة والعامّة، وفي حدود عادات وتقاليد وعقائد مجتمعه، وفي حدود فهمه لوجهة نظر المذهب ولوجهات نظر الآخرين من ذوي المذاهب الأُخرى، ويتوزّع الناس بهذا الشكل على درجاتٍ كثيرةٍ بين المذاهب المختلفة في سلّمٍ طويل طويل.

(٣)

والتعاليم الإلهيّة لا تخرج عن هذا القانون البشريّ العامّ؛ فإنّها ليست إلّا مذهباً من المذاهب، تحمل وجهة نظرٍ خاصّة، وفلسفةٍ معيّنة للكون والحياة، فمن الطبيعي أن يختلف فهم الناس لها وفهمهم لمعتقدات أعدائها، وفهمهم لنتيجة الموازنة بينهما، وفهمهم لمصالحهم الخاصّة في اتّباع أيّ مذهبٍ وسلوك أيّ طريق.

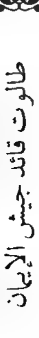
ومن الطبيعي أن يتوزّع الناس على هذا الأساس في درجات الإخلاص والتشكيك والعداء، على درجاتٍ مختلفة في سلّمٍ طويل، وأن تختلف مواقفهم بالنسبة إلى العقائد الإلهيّة، وأن يؤثّر مجرى الحوادث في تغييرها وتطويرها، بل وفي قلبها وتبديلها.

والحوادث إذ تقرّر موقف هؤلاء الناس نحو المذهب المعيّن، إنّما تقرّر بذلك طريقة تفكيرهم وطريقة فلسفتهم للحياة، وطريقة فهمهم لأنفسهم وللآخرين ولحوادث الزمان؛ فإنّ الإنسان كلّما ازداد إيمانه بالمذهب وازداد اقتراباً عقائديّاً منه، استطاع أكثر فأكثر أن يفكّر وأن يفهم الحياة على أُسلوبه وطريقته، وكلّما ازداد ابتعاداً عنه، ابتعدت وجهة نظره عن المشابهة.



وقد أدركت الحكمة الإلهيّة ببعد نظرها ودقّتها البالغة، وجود هذا المعنى في البشر، ووجدت أنّه خير طريقٍ لامتحان مدى إيمان الشخص بتعاليمها وإرشاداتها ومقدار اطمئنانه إلى عقائدها وأفكارها.

فإنّه وإن كان المؤمن المطيع مستحقّاً للثواب، والعاصي المتمرّد مستحقّاً للعقاب، إلّا أنّه ينبغي أن تبرهن الحوادث على عمق الإيمان أو قوّة العداء، لكي ينال كلّ منهما جزاءه باستحقاق. فكلّما كان المؤمن أصلب عقيدة تجاه مرجفات الزمان وتبدّل الأحوال، كان مستحقّاً للثواب أكثر فأكثر، وكلّما كان العداء كذلك، كان العدوّ مستحقّاً للعقاب والتنكيل أكثر فأكثر.



وعن هذا الطريق يتّضح للعيان، مقدار إيمان الشخص بتعاليم دينه واطمئنانه إليه وإطاعته لأوامره ونواهيه، ومدى ثبات موقفه هذا من هذه العقيدة، كما يتّضح مقدار عداء الأعداء، ومدى حقدهم عليه ونيلهم منه؛ قال الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

بل إنَّ فائدة هذا الامتحان والتمحيص لا تقتصر على إيضاح موقف الفرد للناس بل إنَّ الموقف ليتّضح للفرد نفسه؛ فإنَّ الحوادث وطرق التفكير قد تسوق الفرد إلى مواقف لم تكن بحسبانه، ولم يحلم في يومٍ من الأيام بارتيادها والوصول إليها.



إذن، فتغيّر درجة الإيمان بتغيّر موقف الفرد من العقيدة الإلهيّة أمرٌ واقعيّ، والله تعالى لا يجزي بالثواب والعقاب إلّا بعد علمه عزّ وجلّ باجتياز

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٤١-١٤٢.

الفرد لهذا الامتحان، وتمحيصه لإيمانه وعقيدته به.

ويكون الفرد بعد اجتياز الامتحان أهلاً لكلّ إكرامٍ وثواب، إذا أثبت إيمانه وإخلاصه، ولكلٍّ عقابٍ وعذاب إذا أثبت كفره وعناده.

(ب)

(١)

ونحن نستطيع أن نجد قصصاً كثيرة في القرآن الكريم، كأمثلةٍ حيّة على هذا الامتحان الإلهي الرهيب، مرّت به البشريّة في تاريخها الطويل، حيث تعرّضت لحوادث معيّنةٍ أثّرت في كميّة يقينها بعقيدتها وفي أُسلوب إيمانها، فظهر المؤمن واضح الإيمان، والكافر واضح الكفر. وبهذا تكون البشريّة قد تعرّضت إلى هذا القانون البشريّ العامّ من حيث تعلم أو لا تعلم.

والقصص القرآني أُورد للقيام بكثيرٍ من الأغراض الدينيّة الإسلاميّة، فيمكنك أن ترى أن القصّة الواحدة قد قامت بعدّة أغراض، وأوحت عدّة مفاهيم إلى قارئها والمتدبّر في مداليل آياتها، وما ذلك إلّا ليفكّر الإنسان ويعتبر فيتّعظ وينزجر، وتكون هذه القصص له عوناً في إيمانه وفي عقيدته، وفي عمله الدائب في سبيل دينه الحنيف.

(٢)

فمن هذه القصص قصّة طالوت وجالوت التي رواها الله تعالى في سورة البقرة (٢٤٦ـ ٢٥١)[١].

---

(١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

وذلك أنَّ بني إسرائيل ظلّوا من بعد وفاة نبيّهم الأكبر موسى بن عمران (على نبيّنا وآله وعليه السلام)، ظلّوا مؤمنين به، مطيعين لتعاليمه، مخلصين لعقيدته وهداه. ويبدو واضحاً لِمَن تدبّر هذه القصّة في القرآن، أنَّ حوادث القصّة قد وقعت من بعد موسى بقليل، فلا زال موسى ماثلاً في أذهانهم واعظاً محذّراً، ولا زال كلامه ذا رنين أخّاذ في آذانهم، لم يمكن للأيّام أن تمحوه أو أن تطمس آثاره.

ولم تكن العناية الإلهيّة قد أهملتهم أو ألقت حبل عقيدتهم على غاربهم، وإنّما أرسلت لهؤلاء الناس نبيّاً محليّاً يذكّرهم بعقيدتهم ويوجّههم نحو إيمانهم ويحلّ مشاكلهم، ويسير بهم على نفس النهج الذي سار عليه النبي موسى عليه السلام في غضون مدّة نبوّته.

فكانوا يرجعون إلى هذا النبيّ في حلّ مشاكلهم وتذليل صعابهم، وكلّما

بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلاَئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

عنّ لهم أمر وألمّ بهم خطب.

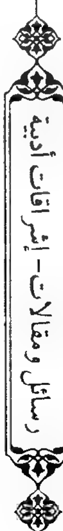
وكان أن ابتُلي هؤلاء القوم بملكٍ ظالمٍ مستبدٍّ، يُدعى (جالوت)، يكفر بعقيدتهم وبنبيّهم، ويضطهدهم ويهين كرامتهم ويسفك دماءهم، وكانت أوامره الظالمة وأحكامه الصارمة تأتي من وراء حدود بلدتهم، من بلدةٍ أُخرى مجاورةٍ، اعتبرها الملك عاصمةً لملكه، فكان أن ذاقت هذه البلدة منه الأمرّين، ونادوا بالويل والثبور بعد أن أقضّ مضاجعهم وأهدر كرامتهم ودماءهم.

وعلى مدى الزمان لم يمكن لهذا الألم أن يبقى متحمَّلاً، ولهذا الظلم أن يظلّ متجرَّعاً؛ فإنَّ لكلِّ ظلمٍ نهاية، ولكلِّ مظلومٍ ثورة، ولا يمكن أن تستكين هذه البلدة المؤمنة للذلّ والاستعباد.

وعليه فكان أن اجتمع وجهاء البلدة ومفكّروها، ليتشاوروا بينهم فيما ينبغي أن يفعلوه تجاه هذا الملك الظالم والمستبدّ الجائر؛ لإنقاذ بلادهم من براثن هذا الظلم والطغيان.

ولم يكن ثمّة بينهم من رأيٍ سوى أن يستعدّوا لقتاله، وأن يذهبوا إليه بجيشٍ كبير ليقضوا عليه في وكره، ويتخلّصوا من ظلمه وشرّه، فلم يكن هؤلاء ليقبلوا بالحلول الوسطى والمنازعات الكلاميّة التي قد تقصر وقد تطول، كما أنَّهم يعلمون أنَّ الملك لن يمكن أن يسمع لهم أو يخضع لأقوالهم، إنَّه لن يفهم إلَّا لغة السلاح، تلك اللغة العالميّة الرهيبة.

وقد أدركوا بفطرتهم الدينيّة أنَّ قتل هذا الملك المستبدّ والقضاء على سلطانه، إنَّما هو حربٌ مقدّسة، وجهادٌ في سبيل الله تعالى ولإعلاء كلمة الحقّ. فإنّه ملكٌ كافرٌ مستبدّ، يحاول من أجل إرضاء كفره وضلاله، ومن أجل إشباع شهوات نفسه، أن يقضي على المؤمنين، وأن يحارب دين الله الذي أرسله



لعباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم.

فكان هذا الفهم لوجهة هذه الحرب التي عزموا عليها، خير مساعدٍ على مزيدٍ من الإخلاص ومزيدٍ من الاندفاع والحماس في طريق الجهاد؛ فإنَّ كلّ مؤمنٍ يعلم ما أُعدّ للشهداء عند الله من كرامة، وما وعدهم به من زلفى وحسنِ مآب، وإنَّ كلّ مؤمنٍ ليتشوّق إلى هذا الثواب شوقاً شديداً، ويزداد إخلاصاً يوماً فيوماً، في بذل الغالي والرخيص، في سبيل الحصول عليه.

وحيث إنَّ الأمر الذي عزموا عليه، من الأُمور المهمّة والقضايا الكبرى، إذن فقد أدركوا أن ليس لهم أن يستقلّوا برأيٍ أو يجزموا بأمرٍ قبل أن يشاوروا نبيّهم في ذلك، ويستضيئوا بنور رأيه وحكمته.

وذهب القوم إلى نبيّهم، ذلك الملك الشعبي غير المتوّج، الذي كان يحكم أُمّته بالعدل والرحمة لا بالظلم والتعسّف، والذي يكنّ له كلّ فردٍ من أفراد شعبه المؤمن كلّ ولاءٍ وإخلاص، وكلّ محبّةٍ واحترام.

ذهبوا إليه فشكوا إليه حالهم، وبسطوا أمامه مشكلتهم، وأطلعوه على عزمهم، وأعلموه أنَّ عزمهم على قتاله ثابت، وهمّتهم في سبيل اقتلاع جوره وظلمه مخلصةٌ وعميقة، وليس لهم في ذلك من خيرٍ أو ضرر؛ فإنَّ القتال إنّما هو في سبيل الله ولإعلاء كلمة الحقّ، والمقاتل في سبيل الله لا ينتظر إلّا إحدى نتيجتين، كلتاهما عزيزةٌ عليه، محبّبةٌ إلى قلبه، إمّا النصر وإمّا الشهادة.

ولم يبق عليه إلّا أن يعيّن لجيشهم قائداً، ولجحفلهم المؤمن موجّهاً، و﴿قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1]، والمقصود بالملك هو القائد المحنّك العارف الذي يستطيع أن يدبّر أمرهم ويقودهم في هذا القتال

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦.

المقدّس، ويسير بهم نحو الانتصار على هذا الملك المستبدّ الظالم.

ويستمع نبيّهم إلى شكواهم، ويتفهّم مطلبهم، فقد كان قلبه من هذا الظلم والتعسّف أشدّ ألماً وأكثر حرقة، وإنَّه ليؤيّدهم في مطلبهم ويرى رأيهم، في ضرورة قتل الملك جالوت والإجهاز على استبداده عن طريق حملةٍ مقدّسة تقاد في سبيل الله عزّ وجلّ.

إلّا أنَّه فكّر قليلاً، إنَّه يعرف تماماً أنَّ في قومه هؤلاء مشكّكين ومنافقين لا تقوم عقيدتهم على إيمان، ولا حماسهم على أساس، وإنَّما هم مداجون قد أخذت عليهم كيانهم موجة الاندفاع، فحضروا إليه ضمن هذه الجماعة يرجون تعيين قائدهم للقتال في سبيل الله، وهم أبعد ما يكونون عن القتال وعن سبيل الله.

إذن، فلا ينبغي أن يبقى هؤلاء القوم في ضمن الجيش المحارب الذي سوف يفوز بإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، وسوف يحظى برضاء الله تعالى والخلود في ثوابه الأبدي.

إنَّ وجود مثل هؤلاء ضمن الجيش يبعّد طريق النصر ويزيد الجهد ويثبّط العزم؛ لأنَّهم بجهلهم سوف يخلقون له المتاعب وسوف يثبّطون عزمه عن القتال، وليس أضرّ على الجيش من تثبيط العزم وتقليل الحماس والاندفاع.

وقد قال الله تعالى في مثل هؤلاء: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[1].

وعليه، فلابدَّ من وضعهم تحت الامتحان، ولابدَّ من اختبارهم اختباراً بعد اختبار؛ ليظهر شكّ المشكّكين، ويثبت إيمان المؤمنين، ولئلّا يحظى بالفوز

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٧.

عند الله تعالى إلّا مَن هو أهلٌ له على وجه التحقيق.

لابدَّ لهؤلاء أن يمرّوا بالامتحان الإلهي، ذلك الامتحان الرهيب الذي جعله الله تعالى سنّته في خلقه، يوجّهه إلى البشر في كلِّ زمانٍ ومكان.

وحينئذٍ يبادرهم نبيّهم بهذا القول، جاسّاً لنبضهم، مستجلياً لدرجة حماسهم واندفاعهم في سبيل عقيدتهم وإيمانهم؛ قال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا﴾[1]، سألهم: أليس من المحتمل أيُّها القوم أن تنكلوا عن القتال وتفرّوا عن الزحف المقدّس، بعد أن يكتبه الله عليكم ويوجبه في ذمّتكم؟

ولقد كانت فراسة نبيّهم فيهم صادقة؛ فإنَّ هذا الجمع لم يكن خالياً في الواقع من نفوسٍ مريضة، وضمائر متحلّلةٍ سقيمة، وإيمانٍ ضعيف، بل إنَّ أكثرهم كان كذلك، على اختلافٍ في درجات الضعف، كما أثبتت التجارب ذلك في مستقبل الأمر.

إلّا أنَّ الحماس والتصميم على العزم، كان لا زال هو الجوهر السائد بينهم، لما لاقوا وما زالوا يلاقون من ملكهم المستبدّ من ويلاتٍ ودماء، كما أنَّ المشكّكين المرجفين لم يكونوا قد واجهوا الواقع بعد، ولم يذوقوا تعب السير ولا حرّ السيف.

لذا فقد جاء جوابهم حاسماً جازماً متسالماً عليه من قبل الجميع؛ إذ ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾[2]، ما لنا لا نقاتل والقتال إنّما هو في سبيل الله، وضدّ ملكٍ مستبدٍّ معتدٍ على دين الله، ولماذا

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦.



لا نقاتل وقد ذقنا منه الأمرّين، وأُخرجنا من ديارنا وأبنائنا ...؟

والإخراج من البلاد لمّا كان ملازماً للتفرقة بينهم وبين أوطانهم المألوفة، ومنعهم من التصرّف فيها والتمتّع بها ، كنّى به عن مطلق التصرّف والتمتّع؛ ولذا نسب الإخراج إلى الأبناء أيضاً، كما نسب إلى البلاد[1].

إلّا أنَّ هذا الجواب الحاسم الجازم لم يكن صادراً من الجميع عن إيمانٍ عميقٍ وإخلاصٍ حقيقيٍّ راسخ، وإنّما انجذبوا إلى هذا القول تحت طائل الحماس العامّ الشديد، في حين ليس الشخص الضعيف الإيمان المزعزع الضمير على استعدادٍ للقتال في سبيل الله، ولا يمكن أن يعني في جوابه هذا ما يقول.

لذا نرى أنَّ الكثير منهم في نهاية الأمر: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[2]، كما سوف نرى في نهاية المطاف.

(٣)

سمع نبيّهم جوابهم الحازم الجازم، وأخذه على ظاهره من قوّة الإيمان وشدّة الاندفاع؛ فإنَّ كلّ فردٍ مسؤولٌ عن كلامه، ويدان بمقتضى ظاهره، أمّا الواقع فالله أعلم به.

إذن لم يبق عليه، بعد تأكّده من استبسالهم في سبيل الله، إلّا أن يجعل لهم قائداً محنّكاً قديراً عارفاً بأساليب قيادة الجيش وتوجيهه وبثّ الإخلاص الديني وروح الاندفاع في سبيل الله في قلبه.

---

(١) تفسير الميزان (للسيّد الطباطبائي) ٢: ٢٩٩ (منهقُدِّسَ سِرُّه).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦.

إلَّا أنَّه يعلم تماماً أنَّ مثل هذه المهمّة العظيمة ينبغي أن لا يستقلّ فيها برأيٍ، ولا أن يجزم فيها بأمر، وإنَّما وجد الحكمة في ذلك وغاية الصواب، هو أن توكل المسألة إلى الله تعالى، إلى خالق البشر والمطّلع على سرائر قلوبهم وحقائق أفكارهم، إلى الحكمة الإلهيّة اللانهائيّة؛ فإنَّ الخالق عزّ وجلّ أعرف بالشخص المخلص المؤمن الصالح للاضطلاع بهذه المهمّة الكبرى وهذا العمل الجليل.

وعليه، فقد بادر نبيّهم إلى الله عزّ وجلّ ليعرف منه الرأي وليهديه إلى طريق الصواب وحسن الاختيار. وألهمه الله تعالى أثناء هذا الاتّصال الروحي المباشر اسم القائد العظيم الذي يصلح لذلك، إنَّه (طالوت)، ذلك الشخص المؤمن المخلص والخبير الحكيم، الذي يمكنه قيادة الجيش في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمة الحقّ والإجهاز على ذلك الملك الغاشم الظلوم.



عندئذٍ التفت نحوهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، وعيّنه قائداً لقيادة جيش الإيمان الذي تطلبون تكوينه، فهو الصالح لذلك وصاحب الأهليّة والقابليّة، وفي فحوى هذا الجواب توبيخٌ خفيّ؛ إذ فيه تنبيهٌ بما فات منهم، إذ قالوا لنبيّهم: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ﴾[1]، ولم يقولوا: اسأل الله أن يبعث لنا ملكاً ويكتب لنا القتال[2].

وهنا نرى بوادر امتحانٍ الهيٍّ آخر لمقدار إيمان هؤلاء القوم وإخلاص عقيدتهم؛ فإنَّ في كلِّ حركةٍ يتحرّكها الفرد أو قولٍ يقوله، دلالةً على سنخ تفكيره ومقدار اعتقاده برأيه. ويبدو أنَّهم هم الذين ورّطوا أنفسهم في هذا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦.

(٢) نفس المصدر [أي: الميزان في تفسير القرآن للسيّد الطباطبائي]: ٣٠٠ (منه قدس سره).

الامتحان، ولقد كانوا في غنى عنه لو كانوا قد سكتوا وسلّموا الأمر إلى الله ورضوا باختياره تعالى طالوت لهم ملكاً وقائداً.

إلّا أنَّ ضعف الإيمان والتشكيك وحبّ المناقشة في كلّ شيءٍ والنقار عليه، يجرّ إلى هذا وإلى أسوأ من هذا. إنّهم أشكلوا و﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾[1]. فهم يعرفون طالوت جيّداً؛ فإنَّ طالوت ليس بالشخص النكرة القابع في أحد زوايا المجتمع، وإنّما هو شخصٌ معروفٌ لديهم متميّز الصفات في أذهانهم.

هم يعرفونه جيّداً ويعرفون أنفسهم جيّداً أيضاً، ويعرفون مدى شرف أنفسهم وعراقة نسبهم، على شرف طالوت وعراقة نسبه. فهم يعلمون بوضوحٍ أنّهم من أبناء أحد بيتين: بيت النبوّة، وبيت الملك في بني إسرائيل، وهما بيتان مفتخران بموهبة النبوّة والملك. ولم يكن طالوت من بيت الملك، ولا من بيت النبوّة[2].

إذن، فكيف يكون ملكاً عليهم وقائداً لهم، وكيف يعطونه الولاء ويطيعون أوامره ويتبعون توجيهاته، في حين إنّهم - على ما يرون- أحقّ بالملك منه، وأجدر بتولّي زمام مقاليده.

وطالوت أيضاً - في نظر هؤلاء- لا يصلح للقيادة من جهةٍ أُخرى، هي ضيق ذات يده (وقد كان طالوت فقيراً)[3]، في حين إنَّ القائد أو الملك لابدَّ أن يكون - على ما يتصوّرون- في سعةٍ من المال يتصرّف فيه كيف يشاء.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.

(٢) تفسير الميزان (للسيّد الطباطبائي) ٢: ٣٠٠ (منه قُدِّسَ سِرُّه).

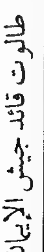
(٣) تفسير الميزان (للسيّد الطباطبائي) ٢: ٣٠٠ (منه قُدِّسَ سِرُّه).

وفي هذا الاعتراض نظرةٌ ماديّةٌ ضيّقة، كما أنَّ في الاعتراض الأوّل نظرةً طبقيّةً فاسدة؛ فإنّهم لم يفكّروا بأنَّ القائد إنّما يكون قائداً بعدله وحكمته وصواب تدبيره، وبإخلاص جيشه له وتفانيهم في إطاعة أوامره، وليس لأيٍّ من الاعتبارات التي ذكروا دخلاً في أهليّة القيادة، بالإضافة إلى أنّه معيّن من قبل الله تعالى، والله تعالى يعلم واقع المصالح ولا يحقّ لهم الاعتراض.

والذي نستطيع أن نتبيّنه من سياق القصّة، أنَّ الذين تصدّوا للطعن على الاختيار الإلهي ومناقشته، إنّما هم أُولئك الشكّاكون المرجفون الذين أثبتت التجارب بعد ذلك زيف إيمانهم وضعف عقيدتهم على ما ستتبيّن، ولم يكن الإشكال وارداً من الذين امتحن الله قلوبهم للإيمان وأيّدهم بروحٍ منه، كما أثبتت التجارب ذلك أيضاً.

والاعتراض على الحقّ الصريح فاسدٌ دائماً وغير منطقيّ على طول الخطّ، وناشئ من عدم تفهّم بعض جوانب المسألة على وجهها الصحيح، [و]ناشئ من النظر إلى الموضوع بعينٍ واحدةٍ وإغلاق الأُخرى عن حقائق ومقدّماتٍ لها التأثير الكبير في تغيير مجرى التفكير البرهاني، ممّا يجهله الشخص أو يحاول تجاهله.

ولكن مع ذلك، ورغم ركّة الاعتراض، شعر النبيّ أنّه يجب عليه الردّ، لأجل إفحامهم وإلزامهم وإثبات الحجّة عليهم؛ فإنَّ الحقّ يجب أن يعلو، وكلمة الله يجب أن تسود، وهذا الإشكال وإن كان واهياً إلّا أنّه قد سمعه من هؤلاء القوم مَن لا يدرك جوانب الضعف فيه، فلعلّه يرسخ في ذهنه ويؤثّر في إيمانه بعقيدته. إذن فينبغي الإسراع إلى اجتثاث أُصوله من أفكار هؤلاء بالحجّة والبرهان الحقّ الصريح.



[فقال عليه السلام]: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾[1]، وهذا ردٌّ على الاعتراض الأوّل، وهو أنّكم إنّما تشعرون بالعلوّ عليه؛ لأنَّ الله اصطفى بيوتكم للنبوّة والملك، والآن وقد اصطفاه عليكم واختاره لكم لكي يتولّى قيادتكم للنبوّة والملك، فلستم أحقّ بالملك منه إذن.

﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[2]، وهذا ردٌّ على الاعتراض الثاني منهم على فقره؛ فإنَّ المال ليس هو المدار في تفضيل الشخص والحكم عليه، ولا في حسن سياسته وتدبيره، وإنَّما المدار في التفضيل - وبخاصّة في القائد- إنّما هو فيما يتوفّر فيه من ملكاتٍ نفسيّة وقدرات جسميّة، وطالوت قد توفّر فيه كلّ ذلك، فقد آتاه الله بسطةً في العلم، [أي]: العلم بالعقيدة والإيمان، والعلم بأساليب القيادة وطرق الحقّ والسير إلى النصر، وآتاه الله أيضاً بسطةً في الجسم، بمعنى: القدرة الجسميّة على قيادة جيشه وتنفيذ ما يقرّره ممّا يراه صالحاً لهم.

ثُمَّ يعطيهم نبيّهم في آخر ردّه على الاعتراض قاعدةً عامّة، يمكن أن تسدّ أمامهم مواطن الإشكال وتفهمهم حقيقة الأمر، إن فهموا هذه القاعدة على وجهها الصحيح؛ وذلك أنَّ الله تعالى هو صاحب التدبير في خلقه ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾[3]، ويختار من عباده حسب ما يرى من المصلحة في حكمته الأزليّة اللانهائيّة، وليس لنا حقّ الاعتراض على الاختيار الإلهي البالغ درجة القطع ومرحلة التنفيذ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[4].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.



إلّا أنَّ نبيّهم ظلّ يرى مخائل الشكّ والتردّد مرتسمةً على وجوه البعض منهم، كأنّهم لم يسمعوا ما قاله ولم يفهموه، وما ذلك إلّا لأنَّ درجة تلقّي النفوس ومقدار فهمها للكلام يتحدّد بحدود آفاقها الذهنية ومداركها العقليّة ومسبقاتها الفكريّة.

فربّ كلامٍ يبدو صحيحاً واضحاً عند بعض، ويبدو فاسداً مبهماً عند آخرين.

وقد أثبت الله تعالى في كتابه الكريم هذه الظاهرة في عديد من آياته، كقوله عزّ من قائل: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[1]. وعليه، فمرض القلوب - والمقصود به زيغ الأفكار وانحرافها عن طريق الحقّ- مانعٌ عن تفهّم الكلام على وجهه الصحيح، في حين ترى الذين آمنوا، أولئك الذين يتّصفون بصحّةٍ في القلوب وسلامةٍ في الضمير واستقامةٍ في التفكير، لا يتفهّمون الكلام على وجهه الصحيح فحسب بل يجعلون مدلوله دليلاً آخر على صحّة عقيدتهم وإيمانهم، فيزدادون عند سماعه إيماناً ويقيناً.

إذن، فقد شعر نبيّهم أنّه لابدَّ له من إقامة دلالةٍ واضحةٍ أمام الجميع على صحّة قوله، وعلى تأييد تنصيب الله تعالى لطالوت ملكاً عليهم وقائداً لجيشهم؛ لكي يقيم الحجّة عليهم بشكلها النهائي، ولئلّا يبقى مجالٌ لشكٍّ أو جدال.

وليس هناك إلّا المعجزة، تحدث فتختم الجدال وتوضّح الحقّ الصريح.

---

(١) سورة المدّثّر، الآية: ٣١.

هكذا فكّر نبيّهم، ولكنّه يعلم أنّه لن يستطيع أن يعيّن لهم المعجزة ولا أن يقوم بها بانفراده من دون الاتّصال بالمنبع الإلهي واسترفاد القدرة والتوفيق منه.

وعليه، وفي غمرةٍ من السأم والضجر من هذا اللدد وهذه الطبيعة المشاكسة التي اتّصف بها قومه، توجّه إلى الله عزّ وجلّ لكي يعيّن له المعجزة المناسبة ويعطيه القدرة على تنفيذها.

والذي يمكن أن يقال في المقام: أن نبيّهم كان يعلم ما في طبيعة قومه من حبّ الاعتراض والجدل، وما في قلوبهم من الشكّ، لذا فقد عيّن المعجزة من قبل عند اتّصاله بالله تعالى في خصوص تعيين القائد الذي طلبوه.

وبهذا نعرف أنَّ المعجزة كانت قد تعيّنت لدى النبيّ، ولا تحتاج إلى توجّهٍ إلى الله جديد.

وعلى كلِّ حال، فقد تمَّ تعيين الآية من قبل الله تعالى، وفهمها النبيّ، فالتفت إلى قومه وقال لهم: ﴿...إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾[1].

إنَّ علامة تعيين الله لطالوت وتنصيبه ملكاً عليكم وقائداً لجيشكم، هو ﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾. والذي يبدو أنَّ هذا التابوت كان معروفاً لبني إسرائيل، معهوداً لديهم، وليس هو إلّا صندوقاً معيّناً كان النبيّ موسى وأخوه هارون يجمعان فيه ما كتباه من الوحي الإلهي. فكان ما جُمع في هذا الصندوق من الوحي يورث لقارئه السكينة، تلك السكينة والاطمئنان التي يتّصف بها المؤمن القويّ الاعتقاد، الذي لا تلعب بنفسه الشكوك، ولا تأكل فكره الأوهام، إنّها سكينة اليقين والاطمئنان إلى الحقّ الصريح، في قبال ما

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨.

يحدثه الشكّ في النفس من حيرةٍ وتردّد.

والمعجزة في هذا الأمر، هو أن ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ إليكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وحدثت المعجزة وانقطعت حجّة القوم، وبدا واضحاً أنَّ طالوت منصوبٌ من قبل الله تعالى عليهم قائداً؛ لما يتمتّع به من ملكات، ولما زاده الله تعالى من البسطة في العلم والجسم. فخضع هؤلاء القوم وأذعنوا ولم يردّوا بكلام. ولم يكن على الذي بقي شاكّاً متردّداً لمدى كفره ونفاقه ومرض نفسه، إلَّا أن ينسحب من هذا الجمع ويتنازل عن طلبه، فما هو أهلٌ للقتال في سبيل الله، تحت راية هذا القائد العظيم.

إذن لم يبق من الأمر شيء، إلَّا أنَّ يتجمّع الجيش تحت إمرة قائده ويخرج لقتال الملك الجائر جالوت، في سبيل الله العليّ العظيم.

(٤)

وتجمّع الجيش تحت إمرة قائده طالوت وتأهّب للخروج، واستعدّ للسير إلى الملك الظالم في عاصمته؛ للقضاء عليه في وكره، وقطع منبع ظلمه من مصدره.

ولم يكن للملك في ذلك الزمان القديم شبكة استخبارات، ليمكنه أن يعرف ما قد يقع في البلد المجاور، فكانت الحوادث تحدث والمؤامرات تحاك وهو مطمئنٌّ إلى غفلته وقصر نظره؛ فإنّه لم يكن لديه من حيلةٍ إلَّا أن يُنصّب على المدينة عاملاً يرضاه ويطمئنّ إليه، ثُمَّ هو يوكل أمر تلك المدينة إليه، يخالط أهلها ويعلم بمشاكلها ويدبّر أمرها، وكان العمّال في الغالب مخلصين للملك، متفانين في خدمته، ينفّذون أوامره ويطبّقون سياسته.

إلَّا أنَّه قد يتّفق أن يخونه العامل على مدينةٍ معيّنة، ويتواطأ مع أعدائه، أو قد يتّفق أن تضعف سلطة العامل على المدينة ويُغلب على أمره من قبل جماعةٍ متمرّدةٍ ولا يستطيع المقاومة. وعلى كلا الفرضين، فإنَّ سلطة الملك تنعدم في تلك المنطقة، ولا يبقى له أيّ سيطرةٍ عليها؛ لأنَّ سلطته إنَّما كانت مركّزةً في ذلك العامل وقد افتقده.

ولابدَّ أن يكون أحد هذين الأمرين قد حصل لعامل الملك على تلك المدينة، فإمّا أن يكون قد اتّفق مع الثوار أو أنَّه ضعف عن مقاومتهم، وإن كان الاحتمال الثاني أقرب إلى الذوق لمن تأمّل في جوّ القصّة، وعرف طبيعة عمّال الملوك وطبيعة الثوّار.



(٥)

وكان بين المدينتين نهرٌ لابدَّ للجيش أن يجتازه في أثناء سيره إلى العاصمة. وقد كان هذا النهر محطّاً لامتحانٍ إلهيٍّ جديد، لم يفز فيه هذه المرّة إلَّا القليل.

وذلك، أنَّه لمّا كان الله تعالى يعلم باحتواء هذا الجيش على مختلف المستويات من حيث الإيمان ورسوخ العقيدة في أفراده، فهناك المؤمن الصحيح المطمئّن بدينه وعقيدته، والمتفهّم للسبيل الذي يسلكه والوجهة المقدّسة التي يسير فيها، وهناك المنافق الشكّاك المستعدّ لأن يبيع دينه بأبخس الأثمان، لم يعرف اليقين إلى قلبه طريقه، ولا العقيدة إلى عقله مسلكاً، كما أنَّ في الجيش مستوياتٍ أُخرى من الإيمان بين هاتين الدرجتين الشيء الكثير.

ولم يكن الله عزَّ وجلّ يريد أن يفوز بالشهادة إلَّا كلّ مخلصٍ منيبٍ متفانٍ في سبيل ربّه وفي سبيل هدفه المقبل عليه. كما أنَّه يعلم بأنَّ المشكّكين المرجفين

إذا كانوا بين أفراد الجيش فإنَّهم سوف يزيدون الجهد ويعقّدون المشاكل ويثبّطون العزم. وهذا شرّ داءٍ يمكن أن يبتلي به أيّ جيشٍ في العالم، وخاصّة ذلك الجيش العقائدي، الذي يكون العنصر الرئيسي في توجيهه وقيادته هو إيمان أفراده بعقيدتهم وهدفهم، وإخلاصهم لدينهم وقائدهم.

بل إنَّ ذلك لا يصدق على الجيش فحسب، وإنَّما يرد في جميع الحركات الاجتماعيّة والسياسيّة والدينيّة وما شاكل؛ فإنَّ وجود المشكّكين المرجفين، المندسّين في صفوف الحركة، المتلبّسين بثيابها، والناطقين بلسانها، يكونون خطراً عظيماً عليها، بل إنَّهم أشدّ خطراً عليها من خطر أعدائها ومناوئيها بالصراحة والمكشوف.



إذن، فيجب تمييز هؤلاء الأفراد في هذا الجيش، وفصلهم عنه، والاستغناء عن خدماتهم؛ لكي تُتجنّب أضرارهم، وتُكفى مؤونة شرّهم. وهذا الفصل والتمييز لا يكون إلَّا بامتحانٍ الهيٍّ رهيب، ممّا جعله الله سنّته في خلقه؛ لتمييز المؤمن من الكافر، والصادق من الكاذب.

لذا فقد كان على القائد طالوت، أن ينفّذ هذا الامتحان الإلهيّ؛ لكي يظهر بوضوحٍ وأمام الجميع، مدى إيمان كلّ فردٍ من أفراد جيشه، ومدى رسوخ عقيدتهم، وتفهّمهم لمقصدهم.

وكان هذا النهر عندما وردوا إليه، خير ميدانٍ لتنفيذ الامتحان، فإنَّ الطريق طويلٌ والشمس محرقة، والتعبُ بادٍ بوضوحٍ على كلِّ فردٍ من أفراد الجيش، والعطشُ آخذٌ بخناقهم، وهم بحاجةٍ شديدة إلى الارتواء من هذا النهر وإرواء دوابّهم منه. وهذه حاجة بايولوجيّة شديدة التأثير، تدفع صاحبها إلى العمل على مقتضاها بقوّةٍ وعنف، وأن يستسهل في سبيلها كلّ

صعب، وأن يضرب من أجلها كلّ مانع أو رادعٍ عرضَ الجدار. لذا فإنَّ الفرد يحتاج في سبيل كفكفة جماح هذه الحاجة إلى أعصابٍ قويّة، وإيمانٍ راسخ، وعقيدةٍ سليمةٍ صلبة، بحيث يستطيع الفرد أن يدرك [أنَّ] المحافظة على عقيدته سليمةً راسخةً أعظمُ بكثيرٍ من أهمّية ارتوائه من الماء، وإيفاء هذه الحاجة المادّيّة المحضة.

ومن هذا المنطلق بالذات ينبع الامتحان الإلهيّ؛ فإنَّ الحكمة الإلهيّة حيث إنّها تعلم بوجود مصالح كبرى، روحيّةٍ واجتماعيّةٍ وثقافيّة، ينبغي للإنسان أن يجعلها هدفَه في الحياة، وأن يكرّس جهدَه لنيلها والوصول إليها، ومن ثَمَّ ينبغي له أن يضحّي في سبيلها ويبذل كلّ غالٍ ورخيص من أجلها.

وعليه، فقد أُنزلت التعاليم والإرشادات، لكي تقود البشر إلى هذه المصالح والأهداف.

ولّما كان العمل لنيل تلك المصالح العليا مشوباً ببذل جهدٍ ووقتٍ ومال، اعتبرت الحكمة الإلهيّة أنَّ هذا البذل شيءٌ مستحسنٌ وثمنٌ رخيصٌ لقاء نيل تلك الأهداف، ومن ثَمَّ جاءت تعاليمها - التي هي في الحقيقة طرق ووسائل إلى نيل تلك المصالح الكبرى- جاءت وهي لا تخلو من لزوم التضحية بالوقت والجهد والمال، وقد تبدو معارضةً لبعض الحاجات البايولوجيّة الجسميّة للإنسان. ولكنّ المفروض في المتديّن العميق الإيمان، الذي جعل تلك المصالح هدفاً لحياته، أنّه يرضى ببذل أيّ مقدارٍ من التضحية في سبيل نيلها والحصول عليها.

أمّا ذلك الفرد المشكّك الذي لا يعتقد بوجود تلك المصالح، وليس على استعدادٍ لبذل الرخيص، فضلاً عن الغالي، في سبيلها، قد جعل لحياته أهدافاً

ماديّةٍ ضيّقة، من الحصول على المال والسمعة و السيطرة، فهذا شخصٌ في نظر الحكمة الإلهيّة ضيّق التفكير، قليل البصيرة، بعيدٌ عن واقع الكون الذي يعيش فيه، لم ينظر إلى مستقبله، ولم يحسب له أيّ حسابٍ، ولم يعمل في سبيله شيء.

وعليه، وفي اللحظة التي يأتي فيها وقت العمل، يأتي وقت الامتحان أيضاً؛ إذ يظهر بجلاءٍ مَن هو الذي على استعدادٍ للتضحية وخوض غمار الواجب بحماسٍ وإخلاص، لكي يحصل في النهاية على نتائجه الكبرى ومصالحه المهمّة التي شرع العمل من أجلها، كما يظهر بوضوحٍ ذلك الشخص المتقاعس الكسول الذي لا تهمّه تلك المصالح، ولا يهمّه إطاعة أمر ربّه العليّ العظيم، والذي أخلد إلى الدنيا وما فيها من إغراءٍ ماديٍّ وضيع.

وعليه، فقد جاء هذا الامتحان الإلهيّ رمزاً جميلاً عن هذا المعنى بالذات؛ فإنَّ الجهاد وبذل النفس في سبيل الله، من أعظم الأعمال الإلهيّة، وليس كلّ شخصٍ أهلاً لها أو قابلاً لتحمّل مسؤوليّتها. ومن ثَمَّ اختبر صبرهم على هذه العقبة الصغيرة. فمَن صبر عليها، أمكنه الصبر في الجهاد ومجابهة الكفر في سبيل الله، أمّا مَن لم يصبر عليها، فكيف يمكنه أن يصبر على العقبة الكبرى هناك؟

لقد وقف طالوت قائدهم المحنّك، أمام إشباع إحدى حاجاتهم البايولوجيّة المهمّة، وهي العطش، لكي يعرف مدى تفضيلهم إطاعة أوامر الشرع المقدّسة على قضاء الحاجات الجسميّة المادّيّة الضيّقة.

وذلك أنّه ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾[1]، أي: خرج بهم ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنْ اغْتَرَفَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

﴿غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾[1]. فقد نهى أصحابه عن الشرب من النهر، وقرّر: أنَّ مَن يشرب من النهر فليس منّي، أي: ليس من عقيدتي ومذهبي وليس من المخلصين لي. ومن لم يطعمه فإنَّه منّي، أي: ممّن يشاركني العقيدة ويبادلني الإخلاص، إلّا مَن اغترف غرفة بيده، وهذا قسمٌ ثالث، يمثّل درجةً متوسّطةً من درجات الإيمان والإخلاص، حيث خرج من القسم الأوّل العاصي للأمر، المتمرّد على التعاليم، كما أنّه لم يدخل في القسم الثاني المنقاد المخلص المطيع الذي يفضّل مصالحه الحقيقيّة على مصلحته المادّية، بل إنَّ هذا القسم الثالث ممّن يحبّ الإيمان ويعتقد به، إلّا أنّه لا يستطيع مكافحة حاجته الجسميّة مدّةً طويلة، فقد يتعرّض إيمانه للخطر ويقع بالمخالفة مرغماً، فيندرج في القسم الأوّل بدون استحقاق.

لذا فقد أجاز طالوت لهذا القسم أن يشرب كفّاً واحدةً من الماء يغترفه من النهر.

وفي هذا التقسيم الثلاثي لدرجات الإيمان دقّةٌ وعمقٌ ومطابقةٌ لواقع البشر، أكثر ممّا قد يبدو لأوّل وهلةٍ من صحّة التقسيم الثنائي؛ من حيث إنَّ الشخص إمّا أن يكون مؤمناً أو غير مؤمن، ولا شيء غير ذلك. فإنَّ الواقع – على ما سبق أن أشرنا إليه في مقدّمة هذه القصّة – أنَّ للإيمان بأيّ مذهبٍ كان، درجاتٍ مختلفةً كثيرةً تتعدّد بتعدّد مستويات التفكير واختلاف المجتمعات والثقافات، وأشكال الطبائع والأفكار.

ووردوا على النهر، وبدأ التنفيذ الفعلي لهذا الامتحان الإلهيّ الرهيب، حيث رجع كلّ فردٍ إلى قرارة نفسه ليوازن بين أهمّية شرب الماء في نظره

---

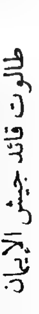
(1) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

وبين أهمّيّة إطاعة قائده والحصول على رضاء ربّه. ولم يمرّ إلّا برهةٌ صغيرة، إلّا وقد ظهرت النتائج بوضوحٍ وبشكلٍ ملموسٍ ينظره الجميع ويراقبه الجميع.

انثال القسم الأكبر منهم على النهر، فشربوا حتّى ارتووا وحملوا الماء فسقوا دوابّهم، واحتفظوا بكميّة أُخرى من الماء لتكون معهم في هذا الطريق الطويل. وبذلك يكونون قد أشبعوا حاجاتهم الجسديّة وأراحوا أبدانهم تلك الراحة الوقتيّة الزائلة التي تُعقب الندم والحسرة الأبديّة، وتُبعد الفرد عن مصالحه الحقيقيّة عن الاتّصال بمنبع النور الوهّاج السرمديّ الاشتعال، عن رضاء الله عزّ وجلّ.

واحتفظ قسمٌ آخر منهم، وهم القسم الأقلّ عدداً، الأقوى إيماناً والأشدّ إخلاصاً لربّهم ولقائدهم ولعقيدتهم، احتفظوا بالعطش في أفواههم وفي التعب في أجسامهم، وأعرضوا عن الشرب من النهر، حرصاً على أن يكونوا من قائدهم طالوت مماثلين له بالعقيدة، متبادلين معه الإخلاص، وحرصاً على أن يرضوا ضمائرهم المؤمنة، وينالوا منزلة القربى من الله العليّ العظيم.

وكان هناك قسمٌ ثالث، هو القسم الأوسط الذي توقّع قائدهم وجوده عندما سمح لهم بالاغتراف. لم يكن هذا القسم ليستطيع تحمّل العطش والتعب، ولكنّه في نفس الوقت لم يكن يرضى بأن يغضب ربّه ويعاند قائده، ولذا فقد اغتنم فرصة هذا الاستثناء، ورضي بهذا الحلّ الوسط الذي يسّره لهم قائدهم الحكيم. وعليه، فقد مال كلّ فردٍ منهم على النهر وشرب منه مقدار ما تحمل كفّه من الماء واكتفى به.



(٦)

وانتهت قصّة الشرب، وقد شرب مَن شرب، وأعرض مَن أعرض، ولم يبقَ على الجيش إلّا أن يعبر النهر مستمرّاً في السير إلى غرضه المقدّس المنشود.

عندئذٍ بادر قائدهم طالوت إلى القسم الأوّل من الجند، ممّن شرب حتّى ارتوى، ورضي ببيع دينه بدنياه، فأخرجه من الجيش واستثناه من الزحف المقدّس؛ لأنّه لم يستطع الصبر على حرّ العطش، فكيف يصبر على حرّ السيف؟ ولم يطع هذا الأمر الامتحاني البسيط، فكيف يستطيع إطاعة الأوامر الإلهيّة الكبرى. خيرٌ له وللجيش أن لا يدخل هذا القسم في الحرب، وأن يرجع إلى بلدته فرحاً بلذّته المادّية التي حصل عليها!



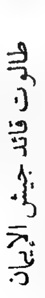
واستعدّ الباقون للعبور، بقيادة قائدهم المحنّك المؤمن (طالوت)، مكوّنين من القسمين الآخرين، وهم: الذين لم يشربوا، والذين اكتفوا بغرفةٍ من اليد.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[1]، استمرّوا في المسير، حتّى وصلوا إلى عاصمة الملك الظالم (جالوت).

وهناك وفي تلك اللحظة، واجهوا الواقع وجهاً لوجه، ولم يبق في الموضوع أيّ زيفٍ أو احتيال. وعرفوا أنّهم سوف يلاقون الجيش العظيم الذي يحرس الملك في عاصمته ويحميه، ذلك الجيش الذي يفوقهم كثيراً من حيث العدّة والعدد، وبخاصّة بعد أن فقدوا قبل عبورهم للنهر قسماً كبيراً من جيشهم حين أمرهم قائدهم بالانصراف.

وفي هذه اللحظة فقط، برز امتحانٌ الهيٌّ آخر، هو الامتحان الإلهيّ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.



الأخير، وهو أشقّ الامتحانات السابقة وأكثرها رهبةً وعمقاً؛ إذ يقصد به الإيضاح النهائي للعقائد، والفرز الحقيقي بين المؤمن المعتقد والمشكّك الضالّ.

فقد تشبّثت أسباب الحياة بقسمٍ من هذا الجيش، وملأت عليهم كيانهم رهبة الموت، تحت وابلٍ من ضربات جيش الملك العرمرم الكثيف. وأيسوا من النصر وأيسوا من النجاة، وشعروا بقلّة عددهم وضعف عدّتهم.

وعندئذٍ لم يجدوا مناصاً من التصريح بما يدور في نفوسهم المضطربة من المخاوف والوساوس والأوهام، وإن كان هذا التصريح يُضعف معنويّة الجيش ويثبّط عزمه، ويوحي له بالضعف وبُعد النصر. إلّا أنّهم حين ملأ عليهم كيانهم الخوف والرهبة لم يتصوّروا أنّ في الجيش من لا يرهب ولا يخاف، أو أنّ فيه مَن هو مستعدٌّ للإقدام على القتال، بالإضافة إلى ما في نفوس هؤلاء من ضعفٍ في الإيمان وقلّةٍ في الإخلاص. وعليه فقد انطلقت الكلمات من أفواههم راجفةً خائفة: ﴿قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، ولسنا نملك القوّة التي يمكننا أن نسيطر بها على هؤلاء وننتصر عليهم.

ولم يكن هذا القسم الخائف من الجيش، إلّا ذلك القسم الضعيف الإيمان الذي رأيناه في الامتحان الإلهيّ السابق، إنّه لم يستطع أن يتحمّل عطشه وهو على النهر، ولم يستطع أن يكافح حاجته الجسميّة البايولوجيّة، واكتفى في إطاعة قائده العظيم بالحلّ الوسط الذي يسّره له. ومثل هذه الدرجة من الإيمان لم تكن كافيةً للجندي المحارب أن يتقدّم ويقاتل عدوّه الجبّار بجيشه الجرّار، وإنّما كان ذلك بحاجةٍ إلى درجة من الإيمان أعلى، ومرتبةٍ من الإخلاص والتفاني في سبيل الله أرقى وأعظم.

 (٤)

وكان لهذا القسم ما تمنّى؛ إذ بادر القائد الحكيم وأخرجه من ميدان القتال؛ إذ أدرك بوضوحٍ نقطة الضعف فيه، وأن ليس من الحكمة في شيءٍ استخدام مثل هؤلاء المشكّكين المرجفين في الجيش العقائدي المقدِم في سبيل الله لقتال الكفر والضلال.

إذن، فمن المصلحة إخراجهم والاستغناء عن خدماتهم.

(٧)

وبقي القسم الأقلّ عدداً، الأكثر إيماناً وإخلاصاً واندفاعاً، لم تثبّط عزمهم الأقوال، ولم تقلّل هممهم ضروب الامتحانات، ولم يضعف من إقدامهم في سبيل دينهم وعقيدتهم قلّةُ عددهم وعدّتهم، وخروج قسمٍ كبير منهم. فقد فضّلوا عقيدتهم على كلّ اعتبار، ورفعوها فوق كلّ ميزان، يجدون العمل الإلهيّ هو الهدف الأسمى والغاية القصوى من حياة الفرد على هذه الأرض، وما قيمة هذه الحياة بما فيها من بهارج ماديّةٍ ومغرياتٍ وضيعةٍ تجاه الكمالات الروحيّة والخلود الأبدي في رضاء الله تعالى التي يبغون الحصول عليها عن طريق الاستشهاد في سبيل الله العليّ العظيم.

سمع هؤلاء المؤمنون ذلك الإرجاف الدنيء، فلم يرعهم ولم يقلّل من عزمهم واندفاعهم، وإنّما وقع منهم موقع الاستغراب والاستنكار، كيف يمكن أن يفكّر الفرد بهذا الأُسلوب المادّي المنحطّ، وكيف يتّضع الأُفق الذهني ودرجة إيمانه وعقيدته إلى هذا الدرك السافل الوضيع، بحيث لا يودّ الاستشهاد في سبيل الله ولا الحصول على رضاه والخلود في جنانه.

ومن ثَمَّ لم يكن على هؤلاء المؤمنين إلّا أنَّ يجيبوهم بالإنكار ويفحموهم بالحجّة، فما ينبغي للقول الباطل أن يبقى بلا جواب، ولا للمؤمن المخلص أن

يبقى ساكتاً عن الحقّ.

إنّهم يدركون بوضوحٍ أنَّ العنصر الحقيقيّ الرئيسيّ لانتصار الجيش، وبخاصّة الجيش المؤمن المقاتل في سبيل الله، ليس هو إلّا إيمانه وإخلاصه، وإلّا اندفاعه في الطريق السائر فيه وتفانيه في سبيله، فبالإيمان وقوّة العقيدة والإخلاص يمكن الفوز على أيّ عددٍ من الجيش مهما كان عظيماً ومالكاً للسلاح والعتاد؛ فإنَّ الإيمان قوّةٌ روحيّةٌ معنويّةٌ يتصاغر أمامها أيّ اعتبارٍ ماديٍّ ضيّق. وهم يعلمون أنَّ جيش الملك جيشٌ لا يملك من العقيدة والإيمان شيئاً، ولا يعرف لحياته هدفاً ولا غاية. إذن، فسوف يكونون لقمةً سائغةً بيد قوّة الإيمان واندفاع العقيدة والإخلاص.

هذا، بالإضافة إلى تأييد الله وتوفيقه؛ فإنّهم يعلمون أنّهم قد خرجوا في سبيله وابتغاء مرضاته، ولنصر عقيدته ودينه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾[1]، مؤمنين به متفهّمين لمقصدهم السامي النبيل ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وعليه، فقد جاء جواب هؤلاء المؤمنين المخلصين قويّاً جازماً ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[3]، والظنّ هنا بمعنى القطع واليقين، والإيمان العميق بلقاء الله تعالى والفوز لديه، ذلك الإيمان الذي له في مثل مقامهم هذا، الأثر الكبير في دفع الفرد المؤمن نحو الجهاد، والتفاني في سبيل الله.

قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ

(١) سورة الحجّ، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

الصَّابِرِينَ﴾[1]، إنَّ حجّتهم الآن ماديّةٌ محسوسة، يمكن لأيّ فردٍ شكّاك أو معارض أن يفهمها وأن يلمسها، والحجّة المادّية الملموسة هي التي تجدي أمام الشُكّاك المرجفين الذين يدورون في فلك المادّة ويتخبّطون في حيّز المحسوسات.

فليس على أولئك الشُكّاك إلّا أن يرجعوا في أذهانهم إلى ما يعرفونه من التاريخ وما ورثوه من أخبار حوادث الدهر ووقائع البشر، ليجدوا أنَّ هناك قانوناً إلهيّاً كونيّاً عامّاً نافذ المفعول في جميع مراحل التاريخ، ألا وهو فوز الإيمان على الضلال، والعقيدة على الشكّ، والعزم على التردّد، وأنَّ صغر جيش الإيمان وقلّة عدده وعدّته غير ضائرٍ فيه بشيءٍ، بعد أن كان متسلّحاً بإيمانه وإخلاصه، متوكّلاً على ربّه، لا يحارب إلّا قوماً لا تربطهم عقيدةٌ ولا يدفعهم إيمان ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[2].

هذا هو القانون الكونيّ الإلهيّ العامّ، والذي طُبّق في جميع وقائع الحروب التي كان فيها الطرفان من هذا القبيل، وهي كثيرةٌ جدّاً على مدى التاريخ. إذن، فليس على هؤلاء المشكّكين إلّا أن يرجعوا لحوادث التأريخ ليروا ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[3].

وكان على هذا الجيش أن يُحرز لنفسه العنصر المهمّ الآخر للنصر الأكيد، إلى جانب ما يحملونه في نفوسهم من إيمانٍ واندفاع، ألا وهو تأييد الله وتوفيقه لهم وتسديده لخطاهم، وربطه على قلوبهم، لئلّا تغلبهم جوانب الضعف في

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

نفوسهم في مثل هذه الساعات المحرجة فيفكّروا في خوفٍ أو فرار.

إنَّ التأييد الإلهيّ هو الدواء الناجع الوحيد، ضدّ مثل هذه الاحتمالات الرهيبة.

لذا نراهم أنّهم ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1].

وكانت العناية الإلهيّة تستعرض عن كثبٍ أعمالهم وأقوالهم، وتبارك لهم جهادهم وتفانيهم، وتستجيب لهم دعاءهم، وتمدّهم بالتأييد والتسديد.

فهذا القتال، وإن بدا بالنظر المادّي الضيّق غير متكافئٍ من ناحية الكثرة في جيش الملك، إلَّا أنّه في حقيقته غير متكافئٍ من الناحية الأُخرى؛ فإنَّ في أحد المعسكرين قوماً لا يملكون إلَّا أنفسهم وأسلحتهم، وفي المعسكر الآخر قوم يحملون إيمانهم وإخلاصهم واندفاعهم في سبيل الله، ويتترّسون بالقوّة الإلهيّة والتأييد الربّاني، وكيف لا يفوز مَن [كان] الله موفّقه ومسدّده.

وعليه، فلم يمض زمانٌ طويل إلَّا وقد ظهرت النتيجة الطبيعيّة المتوقّعة، وهي انتصار هذا الجيش المؤمن الصابر على جيش الملك الظالم (جالوت) ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[2] وتمَّ النصر المبين.

وهم لم يهزموهم فحسب، وإنّما تكلّل نصرهم بنصرٍ آخر، مهمّ وجوهريّ بالنسبة إلى حركتهم الثوريّة المؤمنة، ذلك النصر الذي كانوا يتطلّبونه من أوّل الأمر، (والذي) إنّما خرجوا من أجله وعلى أمل الحصول عليه، ألا وهو قتل الملك (جالوت) والقضاء على حياته إلى جانب القضاء على

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.



مُلكه وسيطرته. وقد حدث ذلك بالفعل؛ فإنَّ هذا الجيش المؤمن استطاع قتل الملك نفسه على يد أحد أفراده المخلصين فقد ﴿قَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾، وبذلك بلغ الهدف ذروته وأحرز الجيش النصر النهائي المبين. وبذلك نجوا من تعسّفه واستبداده وظلمه.

وهنا فقط تبدو في القصّة شخصيّةٌ جديدة، هي إحدى شخصيّات هذا الجيش المؤمنة المكافحة المتفانية في سبيل نصرة دينها وتأييد عقيدتها، تبدو هذه الشخصية هنا لحظةً لتختفي مرّة أُخرى في خضمّ آي القرآن الكريم، إلَّا أنَّ هذا البروز البسيط وحده كان كفيلاً بأن يخلّد إلى الأبد اسم قاتل الملك جالوت والمجهز على رمز الكفر والاستبداد.

إنَّه ليس شخصاً عاديّاً من هذا الجيش المؤمن فحسب، وإنَّما هو من المقرّبين الأبرار، إنَّه داوود، ذلك الرجل الفذّ العظيم، الذي ﴿آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾[1].

(ج)

هكذا يضرب هذا القرآن دستور إسلامنا الخالد، الأمثال ويقصص القصص؛ لكي يوضّح الحقّ ويدلّ على النهج الصالح القويم، والطريق السليم الذي يريد للبشريّة أن تسلكه لتفوز بالسعادة والخلود، ولكي يساعد الفرد المؤمن في إيمانه ويدلّه على نقاط الضعف والقوّة في نفسه. وما على هذا الفرد إلَّا أن يفكّر وإلَّا أن يتدبّر آي القرآن الكريم، وقد قال الله عزّ وجلّ ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[2].

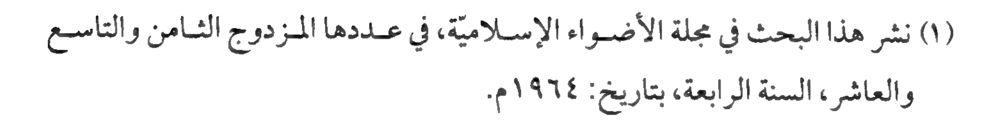
---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٢) سورة محمّد، الآية: ٢٤.

وأنَّ يفهم منها ما تشير إليه من عبرٍ وعظات، وما ترمز إليه من معانٍ جليلةٍ وتوجيهاتٍ سامية؛ لكي يطبّقها على نفسه وعلى أُسرته وعلى مجتمعه، ولكي يفهم الحياة وهذا الكون كلّه، من الناحية التي يريده القرآن أن يفهمها، تلك الناحية التي جاء بها نبيّنا الكريمﷺ؛ ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى الصراط المستقيم[1].

محمّد الصدر



(١) نشر هذا البحث في مجلة الأضواء الإسلاميّة، في عددها المزدوج الثامن والتاسع والعاشر، السنة الرابعة، بتاريخ: ١٩٦٤م.





في ذكرى
انتصار الحسين عليه السلام في أرض كربلاء

في ذكرى انتصار الحسين عليه السلام في أرض كربلاء [1]

كان موكب السحاب الأسود الثقيل المتلبّد بطبقات الظلام، يجرّ قدميه فوق أمواج الزمان ببطءٍ شديد، شامخاً بأنفه، مُدلاً على سواد لونه وتشويه وجهه.

كان السحاب متراكماً كثيفاً، وكان أسود فاحماً، وكان صامتاً صمت القبور، مظلماً ظلامها، لا يتخلّله رعدٌ ولا برق، ولا يشقّ عنان هذا الجوّ الموحش الرهيب قطعٌ من صوت، أو قطراتٌ من نور، وكان ثقيلاً لا تزحزحه الرياح، قاتماً لا يشفّ عن ضوء.

وفجأة، وفي غمرةٍ من الكمد العميق، وفي طبقاتٍ من الظلام الصفيق والصمت الموحش، أومض الأُفق الإلهيّ ومضةً برّاقةً متألّقة، أومض ليبدّد هذا السحاب المتراكم، وهذه الظلمة العفنة، وليدفن سوادها الفاحم البغيض في أعماق القبور.

وكان هذا الوميض مشرقاً جميلاً، وكان أبيض ناصعاً يستهوي العقول ويخلب البصائر، وكان هذا الوميض الإلهي أيضاً البذرة الأُولى التي أُلقيت في تراب الزمن وفي سويداء بعض القلوب؛ ليجني الناس منها على اختلاف لغاتهم واختصاصاتهم ثمراً جنيّاً طيّباً سائغاً للآكلين.

وما إن أومض الوميض، حتّى ارتعدت فرائص الظلام، وانحلّت

---

(١) [تاريخ كتابة البحث] الأربعاء: ١٠/ ١/ ١٣٨٢هـ = ١٣/ ٦/ ١٩٦٢م (منه قدّس سرّه).

كتائبه، ولاذت بالفرار.

وبعد هنيئةٍ من الزمن، كان الوميض قد أصبح شمساً ساطعةً قد صعدت إلى كبد السماء، لتنشر على البشريّة جمعاء الصفاء والإخاء والمحبّة والسلام. صعدت هذه الشمس فأحالت الصحراء حقلاً، والجدول الجافّ رويّاً، والسحاب الأسود المتجهّم أبيض لامعاً، وفتحت بذلك للبشريّة تأريخاً جديداً ترفل فيه بالعدل والإخلاص.

وكان هناك في زوايا الوجود، عند سلال المهملات وفي الكهوف المظلمة، عيون عشت عن أن تنظر إلى هذا النور المتألّق، وقلوب سود كلّت عن أن تستنشق هذا النسيم العليل، فكانت حجر عثرة في سبيل انتشار هذا النور كما ينبغي له، وكما يريد له من تفضّل بإذكاء أواره، وجرّت بذلك على البشريّة ويلاتٍ وويلات، لا زالت ترزح تحت عبئها الثقيل.



ولكنّها تحت هذا الضوء الساطع الكشّاف، لم تستطع أن تبدو كما تريد، وإلّا لسبّبت لنفسها الهلاك، ولجرفها النور بتيّاره فأحالها هشيماً تذروه الرياح. ومن ثَمَّ فقد أسبغ على نفسه أكثر السحاب الأسود القاتم ثوباً أبيض جميلاً، وأحاط نفسه بستارٍ من الغشّ والتمويه، وأصبح بذلك مزيجاً عجيباً ومزعجاً من النور والظلام. وكان هناك سحابٌ أسود لم يزدد بإشراق الشمس عليه إلّا تجهّماً وسواداً، ومن ثَمَّ فقد اضطرّ إلى التفرّق والاختباء في خرائب البوم وفي شعاب الجبال.

وحاول الظلام وناضل في سبيل هدفه الأعلى ومقصده الأسمى الذي لا زال يقدّسه ويحنُّ إليه، منذ أن أومض ذلك النور المتألّق الجميل، ألا وهو إطفاء جذوة هذه الشمس الساطعة التي أظهرت زيفهم ونبشت ما في



صدورهم وخالفت هواهم وسعت ضدّ مقاصدهم ومصالحهم.

وما إن ثنيت له الوسادة، ورأى وهو في مضيقه الذي رزح فيه منذ إشراق النور، ثقباً يستطيع منه سحب الهواء إلى رئتيه الخائرتين، حتّى أخذ بالتنفّس العميق وبالحركة المستمرّة وبالإبراق والإرعاد، وكانت أنفاسه عفنةً نتنة، تنشر في الجوّ المتألّق غباراً كدراً وسحاباً معتماً.

واستمرّ جيش الظلام ينفث من منخريه حمماً حمراء ودخاناً أسود، حتّى اختنقت الأنفاس وانتشر الظلام في طبقات الجوّ، وصعب رؤية الضوء من وراء حجب الظلام. وحجب هذا الظلام المتراكم أجزاء كثيرة كانت مشرقةً وضّاءة، ففصلها عن نبع نورها القويم، فاستحالت مظلمةً قاتمة، تحمل ما كانت تحمله من الصفات قبل أن يومض الفجر الجديد، وأتاح للنفاق أن ينزع عنه ثوبه الأبيض وينزل إلى ميدان النضال أسود فاحماً كما يريد لنفسه، وكما كان قبل أن يغلّه الضوء بقيوده الثقال.

وخرجت أيضاً عفاريت الظلام التي كانت مختبئةً في شعاب الجبال لتسهم حسب مصالحها في محاربة هذا النور القويم.

وعندئذٍ، وبعد أن عمل الظلام عمله، وألقى جميع ما في جعبته من نبال، لم تجد الشمس - ممثّلةً في الحسين عليه أفضل التحية والسلام- بُدّاً من النزال ضدّ جحافل الظلام وطبقات السحاب الأسود لتكشفه عن النور وليبدو النور للناظرين، كما كان متألّقاً وضّاءً جميلاً، مهما كلّفها ذلك من النفس والنفيس، فجمعت حولها قطع النور التي لا زالت مضيئةً مشرقةً ومخلصة للحقّ القويم، وقادتهم إلى ساحة القتال، إلى سيل الدماء وطريق الموت، لتطرد بغي الظلام الغائم، ولتلقي في روع الكون دروساً عظيمة في

التضحية في سبيل النور والحقّ والإسلام.

وكان موكب النور قليلاً في عدده ضعيفاً في عدّته، ولكنّه كان ساطعاً في نوره، صلباً في عقيدته، مخلصاً بإيمانه، لا يُؤثر عمىً على هدىً، ولا ضلالاً على رشاد، قد رأى طريق الحقّ وأخذ بلبّه النور الوهّاج، فاجتلبه إليه اجتلاباً وشدّه إليه شدّاً محكماً، وما إن رأى قوى الظلام وعفاريت الليل تعيث في الأرض فساداً وتنشر فيها حمماً ودخاناً، حتّى راعه هذا المنظر الرهيب، وآسفه أن يحتجب هذا الضوء الوهّاج الذي يحمل للبشريّة بين طياته السعادة والخلود، والتي تعبت هي نفسها عليه في سبيل انتشاره وسطوعه، وآلمه أن تُحرم منه الإنسانيّة، في حين إنَّه قد جاء خصّيصاً لإنقاذها من قوى الجور والظلام ومن الأدران والأوحال.

لذا فقد شعر كلّ فردٍ منهم بالمسؤوليّة الملقاة على عاتقه، وميّزها تمييزاً واضحاً، فجاء إلى ساحة القتال ممتلئاً إخلاصاً وإيماناً، ليبذل نفسه في سبيل هذا المقصد السامي، وليريق دمه من أجل هذا الهدف العظيم. فكان الفرد منهم يسابق إخوانه إلى الموت ليفديهم بنفسه أوّلاً، وليشارك قبلهم في هذه التضحية الكريمة ثانياً. بل لو كان لكلٍّ منهم نفسٌ غير نفسه، وقدرةٌ فوق قدرته، لبذلها طائعاً مختاراً عن طيب نفسٍ، وسرور ضمير.

وانكشف الصراع الدمويّ الرهيب، فتأمّلت الأعين نتائجه وفحصت مخلّفاته، نظر السحاب الأسود الثقيل خلال عينه العمياء، ومدّت عفاريت الظلام رؤوسها إلى ميدان القتال لترى النتاج.

ماذا يمكنها أن ترى مثل هذه المخلوقات اللعينة الرجيمة التي أطفأ الظلام نور بصرها، وقتل ضميرها، وأسكر ألبابها، لقد رأت بين يديها من



موكب النور أجساماً مضرّجة، وأشلاءً مقطّعةً مبعثرة، ورؤوساً محمولة على الرماح، وجثثاً ملقاةً على رمل الصحراء، فملأت أُفق نفسها نشوة النصر، وأحسّت بالفرح والسرور يغمرها، وبالشماتة تملؤها خلال هذا النصر الكبير - التي حسبت أنّها أحرزته- ولهذا التقدّم السريع لإطفاء نور الشمس المبين.

أمّا السحاب الأبيض وقطع النور التي لا زالت مشرقةً متألّقة، فقد رأت نفسها - رغم ما يملك عليها نفسها من الأسى، وما تفيض به عينها من الدموع- منتصرةً عزيزة، رافعة الرأس، تائهةً على قوى الظلام، تملؤها الثقة بالنفس، ويتفجّر في صدرها الإيمان، وما لها لا تكون كذلك بعد أن وضعت ثورة الحسين عليه أفضل الصلاة والسلام لبنةً جديدةً في صرح النور الشامخ، وفي سبيل الحقّ القويم، وبعد أن نكصت قوى الشرّ والطغيان وعفاريت الليل على عقبيها، وأدبرت ظهرها، وأعطت رجلها للريح تحاول الفرار.

ورأى السحاب الأبيض المتألّق أيضاً أنّه قد تلقّى دروساً بليغةً وعميقة، تنفذ إلى سويداء القلب وفي باطن الضمير، في المحبّة والتعاطف والإيثار، وفي الأنفة والعزّة والإباء، وفي الوفاء والإيمان والإخلاص، وأوّلاً وأخيراً في التضحية في سبيل النور الإلهيّ الذي بسطه على أرضه، ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، ورأى أيضاً قيمة هذا النور الوضّاء، و[الذي] ينبغي أن يبذل في سبيل نشره وإعلاء كلمته كلّ نفس ونفيس، ورأى شراسة الظلام، واكفهرار وجهه، وسواد قلبه، وخبث طويّته، وما يكنّ في جنانه من الحقد الدفين على الحقّ المبين.

ورأى السحاب الأبيض نفسه أيضاً مندفعاً وراء هذه الطليعة الصالحة التي ألقت ما على كاهلها من الواجب، وسلّمته إلى أجيالها المقبلة، في هالةٍ من

الإجلال والتقديس؛ لأجل أن تسعى نحو ما سعت إليه من هدفٍ، وتـضحّي في سبيل ما ضحّت من أجله من الحقّ، وتتّجه دومـاً نحـو الـشمس الـساطعة الوهّاجة التي لا يشوبها غبار ولا ظـلام؛ لتمتلـئ الأرض قـسطاً وعـدلاً كـما مُلئت ظلماً وجوراً.

محمّد الصدر





حول الأدب الإسلامي الملتزم

حول الأدب الإسلامي الملتزم[1]

(١)

لا يبدو هناك شيءٌ معيّن، يهزّ النفس ويسيطر على مشاعرها كالأدب؛ فإنَّ للنفس البشريّة ذوقاً جماليّاً حسّاساً، تدرك به المناطق الحسّاسة التي تعجّ بالجمال في هذا الكون، فتشرب من منهلها العذب وتتملّى إشعاعها المنير.

وليست هذه الحاجة الجماليّة بأقلّ أهمّيّةً -على الإطلاق- من أيّ حاجةٍ بايلوجيّة أو عقليّة أو نفسيّة في الإنسان، فإنّها أيضاً بدورها تطلب الإشباع، شأنها في ذلك شأن أيّ غريزةٍ أُخرى. وعلى الإنسان أن يطيع هذا النداء في حدود السلوك العادل الصحيح، فيشبعها ممّا في هذا الكون من نقاطٍ يتمركز فيها الجمال. وبإشباعها يستطيع الإنسان أنَّ يتخلّص من زحمة الأعمال وتراكم المسؤوليّات، وأن يصعد بنفسه إلى الأُفق العاطفيّ الأشقر الرقراق، فينطلق في لحظاتٍ حالمةٍ من الزمن مع ملذّات نفسه المحلّلة، يستنشق خلالها ضياء الكون الكبير.

ومن هنا نستطيع أن نعرف بوضوحٍ أنَّ عدم إشباع هذه الغريزة الجماليّة في النفس يعني -بشكلٍ مباشر- الجديّة في العمل أكثر من المعتاد، والدوران في دائرة مفرغةٍ من المسؤوليّات والارتباطات، بحيث قد تؤثّر أثرها السيّئ على النفس وتُحدث فيها أمراضاً نفسيّة أو عقليّة غير محمودة العاقبة.

---

(١) [تاريخ كتابة البحث] ١٣/ ٣/ ١٣٨٤= ٢٣/ ٧/ ١٩٦٢ (منه قُدِّسَ سِرُّه).

(٢)

والأدب هو أهمّ وسيلةٍ لإشباع هذه الفطرة الجماليّة في النفس في حدود التعاليم الإسلاميّة.

فنحن إذ نريد أن نسقط من اعتبارنا أدوات اللذّة المفسدة التي تؤدّي إلى الدعارة والإخلال بالعقيدة والأخلاق، وإلى مخالفة قوانين الإسلام كالموسيقى والرقص والغناء، لا نجد بعد ذلك من أساليب إشباع هذا الذوق الحسّاس إلّا أحد أمرين:

أحدهما: إشباعها عن طريق النظر المباشر إلى مباهج الطبيعة واستخلاص نقاط الجمال فيها، وهذا ما حثّ عليه الإسلام كثيراً كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾[1]. على أن يدرك الفرد بوضوحٍ أنَّ ما يُدركه من جمال الكون هو من خلق وترتيب خالقٍ قادرٍ حكيم.

وثانيهما: هو الأدب. ومن الواضح أنَّ الأدب هو الأُسلوب الاجتماعي البنّاء الوحيد لإشباع هذه اللذّة.

وبهذا نكون نحن كمسلمين، في أشدّ الحاجة إلى إشباع غريزتنا الجماليّة عن طريق الأدب الإسلامي البنّاء.

(٣)

ونعني بالأدب الإسلامي: كلّ أدبٍ احتوى على طريقةٍ معيّنةٍ في التصوير والتعبير تلذّ له الغريزة الجماليّة في الإنسان، إذا كان مقيّداً في الحدود



(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

العامّة لتعاليم الإسلام، بمعنى: كونه متماشياً لما نهى الإسلام عن نشره في المجتمع من أفكارٍ فاسدةٍ منحرفة، وعقائد إلحاديّة، ومثيراتٍ للفتنة بين المسلمين، أو للشهوة المحرّمة في النفس. ويكون الأديب حرّاً في هذه الحدود العامّة في أن يكتب ما يشاء، ويتبع وحيه الأدبي إلى حيث يريد.

والذي ينبغي أن يلاحظ بهذا الصدد: أنَّ هذا ليس من الالتزام في الأدب في شيء. وإنَّما هو محاولةٌ بنّاءةٌ من الإسلام في الرقيّ بالأدب نحو الأفضل وتنزيهه عن المفاسد والأدران، والاحتراس عن أن يكون أداةً هدّامة في المجتمع الإسلامي.

ويكون الأديب بعد ذلك، حرّاً في أن يتناول أيّ موضوعٍ يشاء، بأيّ أُسلوب يريد، وبأيّ مستوىً يهديه إليه فكره ويقوده إليه ذوقه.

(٤)

أمّا الأدب الملتزم، فهو شيءٌ وراء ذلك. إنّه تقيّد الأديب بأن لا يكتب إلّا من خلال مذهبٍ معيّن، أو فكرةٍ معيّنة، وتجنيد الأدب للدعوة للمذهب والتبشير به، وأخذ المذهب بنظر الاعتبار في كلِّ نتاجٍ أدبيٍّ يصدر عن الأديب. ولا شكّ في أنَّ هذا النوع من الالتزام الأدبيّ يقيّد الحريّة الأدبيّة ويضع عليها من القيود أكثر ممّا تتحمّل وتطيق، مع أنَّ الأدب لا يزدهر ولا يأتي غضّاً جنيّاً ملذّاً إلّا خلال الحريّة المطلقة، وإلّا أصبح النتاج الأدبيّ جافّاً قاتماً متكلّفاً لا يحمل من الروح الأدبيّة الوقّادة والمشاعر الحسّاسة شيئاً، وبالتالي فهو ليس أدباً وإنَّما هو نوعٌ منحطٌّ من الكلام.

إذن، فينبغي أن نغلق باب الأدب الملتزم، ونقرأ على روحه الفاتحة؟!

ولكنّنا إذا استطعنا أن نتميّز بوضوحٍ مواطن الحريّة ومواطن التقييد في

النتاج الأدبي، أمكننا أن نعرف أنَّ هناك بعض الحالات يكون فيها الأدب الملتزم هو مقتضى الانسياق مع الحريّة الأدبيّة المطلقة.

وذلك: أنَّ الحريّة التي يجب أن تتوفّر في الأدب إنّما هي حرية العواطف في أن تأخذ مجراها الطبيعي، والإحساسات في أن تعبّر عن نفسها كما تشاء، والوحي الأدبي في أن ينزل كيف يريد؛ لكي يكون بذلك النصُّ الأدبيُّ نتاجاً أدبيّاً راقياً يهزّ النفس ويخاطب الضمير ويُشبع الذوق الأدبي الجمالي لدى النفس البشريّة، وليس لأحدٍ في حدود ذلك، ولا للأديب نفسه، أن يفرض أيّ حدٍّ أو قيد مقيتين على عواطفه ووحيه، ولا أن يغيّر من نتاجها شيئاً وإلّا سقط نتاجه سقطةً مؤلمة لا قيام بعدها، وكان بذلك مخالفاً لقانون الحريّة الأدبيّة المطلق.

إذن، فالأديب مقيّدٌ بأن لا يقيّد الحريّة، وملزمٌ بأن لا يسير [إلّا] على هداها ويستجيب لمتطلّباتها.

وعن هذا الطريق يبرز مقصودنا.

فإنَّ عواطف الأديب وأحاسيسه ووحيه الأدبي قد تتّجه في بعض الحالات اتّجاهاً تلقائيّاً نحو الدعوة إلى مذهبٍ معيّن والانتصار إلى فكرةٍ معيّنة، وذلك عندما يتشبّع الكيان النفسي للأديب بالمذهب ويتشرّب في عقله وضميره، ويقتنع اقتناعاً وجدانيّاً عميقاً بصحّة وجهة نظره، وضرورة نشره والدفاع عنه.

عندئذٍ وفي تلك اللحظة الحاسمة يكون مقتضى قانون الحريّة الأدبيّة هو أن يتقيّد الأديب بما يوحيه إليه ذوقه الأدبي وما تعجّ به عواطفه من أحاسيس وانفعالات، ولا يكون لأيّ أحدٍ – بما في ذلك الأديب نفسه– أن يضع أمام

نتاجه أيّ نوعٍ من الحدود والقيود.

إذن، فالأديب الملتزم في مثل هذه الحالة، وعندما يكون الأديب ملتزماً بنفس طبعه الأدبي، يكون منسجماً مع الحريّة الأدبيّة المطلقة.

(٥)

فإذا صحّ لدينا ذلك، عرفنا بوضوحٍ موقف الأديب الإسلامي من الأدب الملتزم؛ فإنَّ هذا الأديب بصفته مسلماً يعتنق الإسلام عقيدةً ونظاماً قد انصهر كيانه النفسي في بوتقته المقدّسة وتكوّن لديه ضميرٌ إسلاميٌّ مرهف، واستضاءت عواطفه وأحاسيسه وأفكاره بنور الإسلام، وأحلّ عقيدته المقدّسة جزءاً غالياً من نفسه، وفي عين الوقت يؤدّي حاجة الإسلام إلى النشر والتبليغ، وافتقار المجتمع الإنساني إلى تطبيق قوانينه العادلة واتّباع تعاليمه القويمة.

عندئذٍ لا شكّ تتّجه عواطفه وأحاسيسه بشكلٍ تلقائيٍّ لا شعوريّ، اتّجاهاً إسلاميّاً، ويصطبغ جميع نتاجه الأدبي بصبغة الإسلام، ويكون مقتضى الحريّة الأدبيّة حينئذٍ متابعة ما تفرضه عليه عواطفه وأحاسيسه من النهج الإسلاميّ السليم، وألّا توضع أمامها الحدود والقيود.

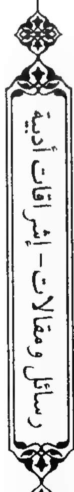
وبهذا نعرف بوضوحٍ كيف أنَّ الإسلام بسيطرته الروحيّة العقائديّة الفعّالة على نفوس الأفراد في المجتمع الإسلامي، يستطيع أن يجعل من كلِّ أديبٍ فيه أديباً إسلاميّاً ملتزماً، التزاماً تلقائيّاً لا تقييد فيه ولا حدود، ينطلق بعواطفه وأحاسيسه مع ما يتطلّبه الإسلام من تعاليم، وما يتجّه إليه من أهداف.

وحين ننظر من زاويةٍ أُخرى، نجد أنَّ الداعية الإسلامي لا يستطيع امتثال أوامر الإسلام بنشره وتبليغه كما في قوله عزّ من قائل: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[1] إلَّا بالأدب الإسلامي الملتزم.

فإنَّ على الداعية الإسلامي بحسب تعاليم الإسلام - وكما تنطق به هذه الآية أيضاً- مسؤوليّةً مزدوجةً في الدعوة إلى الإسلام:

إحداهما: مسؤوليّة المحافظة التامّة على تطبيق القانون الإسلامي في المجتمع المسلم، وعدم صدور المخالفات والمحرّمات الإسلاميّة من أيّ فردٍ من الأفراد، وهذه هي مسؤوليّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثانيتهما: مسؤوليّة الدعوة، دعوة غير المسلمين والمنحرفين عن الإسلام إلى الدخول في الإسلام واعتناقه عقيدةً ونظاماً؛ لكي يفوزوا بالمصالح الكبرى والكمال العظيم الذي أراده الإسلام لهم.



والإسلام دينٌ عالميٌّ موجّهٌ إلى البشر أجمعين؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم الصراط المستقيم. ومن ثَمَّ يتحمّل الداعية الإسلامي مسؤوليّةً كبرى عن نشر تعاليم الإسلام في سائر أقطار الأرض، وعرض ما في قوانين الإسلام من عدلٍ ورفاه، وما في عقيدة الإسلام من سكينةٍ واطمئنان، أمام أعين البشر أجمعين؛ لكي يتسنّى للداعية بشكلٍ مُرْضٍ، السير نحو الهدف الإسلامي الكبير، من نشره في العالم كلّه.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

والداعية، في كلِّ هذه الأهداف الكبرى محتاجٌ إلى الأدب الملتزم؛ فإنَّ تبليغ الأحكام الإسلاميّة والدعوة إلى الدين الحنيف وعرض قوانينه العادلة لا يكون إلَّا بالكتابة والكلام، وكلٌّ منهما ينبغي أن يكون له أُسلوبٌ أدبيٌّ شيّقٌ ملذّ، تميل إليه النفوس وترضى به غريزة الجمال؛ لكي يكون دافعاً للأفراد إلى الإصغاء له والتأثّر به، ليستطيع الداعية أن يجني بذلك، من الثمرات الإسلاميّة، أضعاف ما يجنيه بالأُسلوب الجافّ من الكلام العديم العاطفة والحرارة والحياة.

وذلك لأنَّ الغالبيّة العظمى من البشر لا يميلون بطبعهم إلى البحوث النظريّة المعقّدة التي تحتاج إلى التأمّل والتفكير، وإنَّما يميلون بطبعهم وبما يحملون من فطرةٍ جماليّةٍ حسّاسة، إلى الأساليب السهلة الملذّة التي تنتشر عادةً على صفحات الصحف والمجلّات وفي الكتب الأدبيّة المبسّطة؛ وما ذلك إلَّا لأنّهم يكرهون العناء الذهني، ويجدونه تعباً إضافيّاً فوق أتعابهم في الحياة، وإنَّما يريدون أن يمتّعوا نفوسهم بالنصوص السهلة الملذّة في لحظات راحتهم، تلك اللحظات الثمينة التي ينتزعونها من الزمن انتزاعاً. فيطالعها العامل بعد الفراغ من عمله، والموظَّف عند انتهاء دوامه، والتاجر عندما يريد أن ينتزع نفسه من مسؤوليّات المال، فيجد فيها كلُّ فردٍ منهم ما يُؤنس النفس ويبرّد الغليل، ويشبع حسّ النفس للجمال.

إذن، فلا يمكن أن يصل الداعية الإسلامي إلى ضمائر هؤلاء والتأثير على نفوسهم، إلَّا باستغلال هذا الطبع الذي يحملونه وانتهاج هذا الأُسلوب المبسّط، لإيصال صوت الإسلام إلى هؤلاء لكي يستطيع أن يجد أذناً صاغيةً في أكبر عددٍ من الناس، ويتمكّن من مسايرة البشر على مختلف المستويات.

فكما ينبغي نشر البحوث النظريّة عن الإسلام - لكن لا تخفى قواعده الرئيسيّة، وقوانينه بشكلهما العلمي المركّز عن كلِّ طالبٍ ووارد- ينبغي أيضاً أخذ الأُسلوب الأدبيّ السهل المبسّط بنظر الاعتبار.

(٧)

ولكن ما هو الأدب الإسلاميّ الملتزم؟

ونحن بالطبع لا يمكن أن نُعطي للأدب تعريفاً محدّداً، وإنّما صاحب الحقّ الوحيد في أن يعرّف الأدب هو الأدب نفسه، فهو الذي يعبّر عن نفسه ويعطي لها حقّ الحياة.

وإنّما نستطيع أن نحمل فكرةً موجزةً عن الأدب الإسلاميّ الملتزم، إذا عرفنا أنَّ الداعية الإسلامي حين ينظر إلى المجتمع وما فيه من مشاكل وآلام، وما تسود فيه من تقاليد وأفكار، وما يتّصف فيه أفراده من مستوى في الثقافة والفكر، يعيش ذلك كلّه بحسّه وعقله ونفسه، ويمتزج به امتزاج الفاحص المتفهّم، ويكون له في حسّه الأدبيِّ خميرةٌ حيّةٌ ناضجةٌ تعجّ بالعاطفة والحياة.

عندئذٍ فقط يمسك القلم، لينطلق مع تيّار وحيه الأدبي إلى حيث يقوده في هذا الطريق، مصوّراً الواقع المؤلم على أنّه مؤلم، وعارضاً للمشاكل على أساس كونها مشاكل تحتاج إلى الحلول القويّة الحاسمة، متطرّقاً في هذا الصدد إلى ما يضعه الإسلام من حلول، وما يقوله من تعاليم وإرشادات لكي ينشر العدل والرفاه في ربوع المجتمع الإنساني.



وممّا هو غنيٌّ عن البيان - بعد ذلك- لمن يعرف معنى النتاج الأدبي الصحيح، وما يمكن أن تتفجّر عنه روح الأديب من عواطف وأحاسيس، وبخاصّة بعد أن عرفنا أنَّ الأديب الإسلامي ملتزمٌ بطبعه، لا يجد في الالتزام

حدّاً لحريّته الأدبيّة، غنيٌّ عن البيان أن نـشير إلى [أنَّ] هـذا الأدب الإسـلامي يكون أدبـاً مليئـاً بالحيويّـة والإحـساس، وملـذّاً لغريـزة الجـمال في الإنـسان كأحسن ما يكون الالتذاذ.

(٨)

إنَّ هذا الأدب الإسـلامي لـن يعـدو أن يكـون مقالـةً أدبيّـةً ملـذّة، أو قصيدةً رائعة، أو قصّةً أو أُقصوصةً جميلتين أو مسرحيّةً لطيفة، أو نقداً أدبيّاً أو اجتماعيّاً بنّاء، إلى غير ذلك من الأساليب التي يمكـن للأديـب أن يتّخـذها في نتاجه الأدبي، مستجيباً في ذلك لما تمليه عليه أساليب أحاسيسه ووحيه.

كما لا يعدو الأُسلوب الأدبي أن يكون مـن الأدب الـواقعي، أو الأدب الرمزي أو الأدب الساخر مثلاً، إلى غير ذلك من أساليب الأدب المتعدّدة.

وبالجملة ينبغي أن يأخذ الأديب الداعية الإسلامي حريّته المطلقـة مـن هذه الناحية؛ لكي يستطيع أن ينـتج للمجتمـع الإسـلامي نتاجـاً أدبيّـاً ملـذّاً حسّاساً، وهو في عين الوقت نتاجٌ إسلاميٌّ عقائديٌّ توجيهيٌّ عظيم.

(٩)

وممّا ينبغي معرفته والتأكيد عليه في هذا الصدد: أنَّ التـأثير والإيحـاء العاطفي اللاشعوري أقوى وأعمق بكثـيرٍ مـن التـأثير الـشعوري. وعـلى ذلك، فليس من اللازم على الأديب الداعية وهـو ينـتج أدبـاً إسـلاميّاً، أن يركّز كلّ كلمةٍ من كلماته إلى الدعوة المباشرة، والمجابهة الـشعوريّة الحـادّة للقارئ؛ فإنَّ ذلك من شأن البحوث النظريّة العلميّة، لا مـن شـأن الأدب الفيّاض بالحياة.

وإنّما على الداعية الأديب حين يتناول موضوعاً أدبياً بالبحث، أو يبدأ بسرد قصّةٍ أو مسرحيّة، أو بوصف إحدى اللحظات الجميلة في الحياة، [أو] مقطوعةٍ شعريّةٍ رائعة، ليس عليه - في خلال ذلك- أن يتقيد بشيءٍ سوى الحدود الإسلاميّة العامّة، التي أشرنا إليها في الفقرة الثالثة من هذا البحث.

أمّا التأكيد على الدعوة إلى الإسلام والتنويه بما في قوانينه من عدالة، وما في امتثال أوامره ونواهيه من سعادةٍ وكمال، أمّا هذا كلّه فهو إنّما يكون بالإيحاء اللاشعوري الذي يتضمّنه النصّ الأدبي الإسلامي؛ وذلك بجعل خاتمة المطاف نتيجةً إسلاميّة، أو جعل أحد أبطال القصّة أو المسرحيّة شخصاً إسلاميّاً، أو بحلِّ المشكلة الرئيسيّة في الموضوع على أساسٍ إسلامي، وذلك لا يستدعي في كثيرٍ من الحالات أكثر من إشارةٍ مختصرة، قد لا تعدو أن تكون بيتاً من قصيدة، أو فصلاً من قصّة، يُعرض بلباقةٍ وحسن أُسلوب.

ونستطيع بذلك أن نجد القارئ في النهاية مقتنعاً اقتناعاً لا شعوريّاً عميقاً وهو لا يزال متمثّلاً للجوّ الأدبي في النصّ الذي قرأه، بما للإسلام من فضلٍ في تذليل المصاعب وحلّ المشاكل العاطفية والاجتماعيّة التي عرضها النصّ الأدبي الإسلامي.

وهذه هي النتيجة الكبرى التي نتوخّاها من الأدب الإسلامي الملتزم.

(١٠)

ولقد كان الأدب الإسلامي الملتزم بحاجةٍ إلى أضعاف هذا الحديث؛ لكي نتفهّمه على وجهه الصحيح، ولكي نستزيد منه ما وسعنا أن نستزيد؛

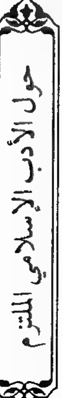


لمدى أهمّيّته البالغة في بناء المجتمع الإسلامي المنشود.

ولكن حسب هذا البحث أن يكون ذكرى، و﴿إِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1][2].



محمّد الصدر





(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٥.

(٢) نشر هذا المقال في العدد الأوّل والثاني من مجلّة الأضواء الإسلاميّة في السنة الخامسة، بتاريخ: ١٣٨٤هـ=١٩٦٤م.



أين الأدب الإسلامي الملتزم؟

أين الأدب الإسلامي الملتزم؟[1]

كـن أديبـاً كـما يـشاء الأدب

ومسلماً كما يشاء الإسلام ثُمَّ

اكتب ما شئت.

في لحظةٍ مِن أعقد لحظات المسلمين وأولاها بالعناية والاهتمام، وفي ساعةٍ افتقر فيها المسلمون إلى مَن يعرّفهم الإسلام ويرشدهم إلى هواه، سمعنا صوت الأخ الفاضل المجاهد السيّد محمّد بحر العلوم مرتفعاً يطالب الأُدباء المسلمين بأدبٍ إسلاميٍّ ملتزم، يتعهّدون فيه بتجنيد قواهم الأدبيّة وأقلامهم الحرّة التي تنبض بالحياة، في سبيل نشر الأفكار الإسلاميّة، وتفجير طاقاته بأُسلوبٍ رائعٍ جميل، وببسط فنّيٍّ سليم.

كانت هذه صيحة حقٍّ انطلقت من فم مخلصٍ قصد خدمة الإسلام وإبداء المشورة للمفكّرين المسلمين؛ لأجل أن يسعوا متكاتفين في سبيل إعلاء كلمة الإسلام وإطلاع الجماهير المسلمة بحقيقة دينهم، وما فيه من حقائق وطاقات. فكانت فكرةً رائعة، ومشروعاً فعّالاً للسير في هذا السبيل؛ لأنّه أقصر الطرق وأسهلها لنيل هذه الغاية النبيلة.

ولكنّ الزمان تصرّم وطال سيره، وانقضى على تلك الدعوة أكثر من العام ونصف العام، ولم نرَ إلّا الشيء القليل النادر ممّا دعا إليه حفظه الله تعالى؛

---

(١) [تاريخ كتابة البحث] الاثنين: ٢٠/ ٢/ ١٣٨٢هـ = ٢٣/ ٧/ ١٩٦٢م (منهُ قُدِّسَ سِرُّهُ).

ممّا دفعني إلى أن أُجدّد النداء وأكرّر على مسامع المسلمين تلك الكلمة، كلمة الحقّ.

إنَّ كلَّ مفكّرٍ إسلاميٍّ يعلم أنَّ الإسلام دينٌ عامٌّ شامل، خَاطَبَ البشريّة في كلِّ مكانٍ وزمان، فقد خاطب العامّة كما خاطب الخاصّة، وخاطب الجهلاء كما خاطب المثقّفين، وخاطب الفقراء كما خاطب الأغنياء، فليس من الصحيح إذن أن يقتصر المفكّر الإسلاميّ بالدعوة إلى دين الله على نفسه وخاصّته، بل إنَّ الواجب الإسلاميّ المقدّس يحتّم عليه أن ينشر الدعوة في كلِّ مكانٍ يوجد فيه مكلّفون باتّباع الأوامر الإسلاميّة.

إذن، فلابدَّ أن يصل صوت المفكّر الإسلامي إلى الجماهير وأن يهزّ نفوسهم، وأن يحملهم على العمل في سبيل دين الله القويم. يجب أن يفهم كلّ فردٍ منهم، ما في الإسلام من طاقاتٍ عظمى، وقوانين دقيقة، لابدَّ أن يفهم ذلك: التاجر في محلِّ تجارته، والتلميذ في مدرسته، والمعلِّم أثناء إلقاء محاضرته، والطبيب في عيادته، والموظّف في دائرته، ويجب أن يفهم ذلك: الفلّاح في حقله، والعامل في معمله، والنجّار والحدّاد والبنّاء وما إليهم، كلٌّ حسب حظّه من الثقافة والتفكير.

لابدَّ أن يفهم كلّ هؤلاء وغير هؤلاء، حقيقة دين الله الذي أنزله لعباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى الصراط المستقيم؛ ليستطيع المفكّر الإسلامي أن يدّعي لنفسه حينئذٍ أنّه قد أدّى بعض ما تتطلّبه رسالته الإسلامية التي حملها على عاتقه بوصفه مفكّراً إسلاميّاً.

لابدَّ أن يفهم كلّ فردٍ من هؤلاء أنَّ الإسلام قد ساهم من قريبٍ أو من بعيدٍ مساهمةً فعليّةً وفعّالةً ببناء العمل الذي يحترفه، وأنّه قد صعد بعمله هذا

إلى أقصى مرتبةٍ يمكن أن يبلغها من الكمال، وأنَّ للإسلام رأياً صائباً وقانوناً عادلاً في كلِّ عملٍ يقوم به الإنسان، وأيّ قولٍ يقوله مهما كان تافهاً أو مهمّاً في أيّ مرفق من مرافق الحياة.

وهذا الفهم ليس هو الغاية القصوى في نفسه، بل هو دعوةٌ إلى العمل، ونداءٌ إلى تطبيق أوامر الإسلام.

إذن، فلابدَّ أن تحدث في نفس كلِّ فردٍ الحماسةُ الدينيّةُ اللازمةُ التي تدفعه إلى امتثال هذه التعاليم وتطبيق النظام الإسلاميّ في مجريات حياته وجزئيّات أعماله، فبدون هذه الحماسة لا يمكن أن ينبض لأحدٍ عرقٌ أو يخفق قلب، وهذه الحماسة لا يمكن أن تحدث أو تتأجّج إلّا إذا شعر كلّ شخصٍ منهم أنَّ الإسلام حبيبٌ إلى نفسه، وجميلٌ في نظره، وأنّه يوافق مصلحته ويطابق هوى نفسه، وإلّا فإنَّ الشخص منهم ليس مستعدّاً إذا جدّ الجدّ وحانت ساعة العمل، والجماهير المسلمة على ما هي عليه في الحال الحاضر من الانحطاط الدينيّ والثقافيّ، ومن الأثرة وحبّ الذات، ليس مستعدّاً أن يضحّي بأيّ شيءٍ مهما كان تافهاً، في سبيل أمانٍ برّاقةٍ تشعُّ بأيدي جماعةٍ من المسلمين.

كيف إذن، يمكننا أن نصل إلى هذه الغاية النبيلة؟

إنَّ الإسلام بحرٌ لا يمكن أن ينضب معينه، لا أن يناله الجفاف من كثرة السقاية والشرب، وهو كفيلٌ بمصلحة هذه الجماهير بجميع أقوالها وأفعالها، وكفيلٌ بإصلاح نفوسهم وإسعاد قلوبهم لو تفهّموه وعقلوه. غاية الأمر أنَّ هذه الطاقات العالية والأفكار النيّرة مختزنةٌ في بطون الكتب الضخمة ضمن عباراتٍ مغلقة، وأوجه رأيٍ غامضة، جادت بها أفكار المختصّين بالبحث

حول الفقه الإسلامي واستنباط شرائعه وأحكامه، وليس عليهم في ذلك من غضاضة؛ لأنَّه لابدَّ لكلِّ علمٍ من اصطلاحاتٍ وقواعد يسلك بها إلى النجاح طريقاً لاحباً.

ولكنّ هذا - بالطبع - ممّا لا يصلح للنشر أمام العامّة، ولا ممّا يتقبّله أذهان الجمهور، إذن فنحن - بكلٍّ بساطة - لسنا بحاجةٍ إلّا إلى إبراز هذه الكنوز إلى النور، وعرضها أمام الرأي العامّ بشكلٍ زاهٍ قشيب، يلفت الأنظار ويلذّ النفوس، بشكلٍ يوافق جميع المستويات ويماشي مختلف العقليّات، ليستطيع الإسلام أن يسير جنباً إلى جنبٍ، مع الآراء العالميّة الكبرى، وأن يفوقها بجدارته وحصافة رأيه في يومٍ من الأيّام.

وهنا تبرز أمامنا جليّةً واضحة، فائدةُ الأدب الإسلاميّ الملتزم، ومدى خدمته الفعّالة في مصلحة الإسلام والمسلمين، ولابدّ لنا في هذا المقام أن نقف لحظاتٍ لنتميّز معالم هذا الأدب الذي ندعو إليه.

بين يدينا هذه الجماهير، نراها لا تأنس إلّا بهذا الأُسلوب السهل المبتذل، الذي تنشره المجلّات والصحف والكتب الصغيرة المبسّطة، وتنطق به الإذاعات ومحطّات التلفزة، مشفوعةً بالصور الخلّابة في أغلب الأحيان. ففي هذه الأساليب ما يريحها أثناء الاسترخاء، بعد الكدح من أجل الحياة، ويسلّيها بعد التفكير المضني، ويقتل وقتها بسهولةٍ ويسر. أمّا ما يبعث على التأمّل والتفكير، فهو يفقد هذه المميّزات ويدعو إلى التعب وبذل كميّةٍ من الطاقة الذهنيّة، إن كان في هذه الجماهير أفرادٌ تحاول أن تقرأه وأن تفهمه.

وقد كان هذا الأُسلوب السهل المبسّط، هو المسلك الرئيسيّ في الدعاية لمختلف المبادئ ووجهات النظر المادّيّة والإلحادية والاستعماريّة التي إنّما



تقصد الشرّ والدمار. فإذا كانت الجماهير بصفاء نفسها وخلوّ ضميرها، ترى أكاسرة الوحوش جميلةً خلّابة، بمجرّد صورة ملوّنة أو صوتٍ رقيق، فما أحرى ما أن ترى في الإسلام أضعاف ذلك الجمال إذا اتّبع نفس الأُسلوب في دعوته.

قد يكون النتاج الأدبيّ[1] الذي قاله حسّان بن ثابت ودعبل الخزاعي والكميت دفاعاً عن شريعة سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله أدباً إسلامياً ملتزماً، حاولت نشرة الأضواء[2] المجاهدة أن تتّبع نفس أُسلوبه، وأن تنادي إلى الإسلام بنفس طريقته، ولكنّها - ويالالأسف- كانت غافلةً أو أنّها تغافلت عن أنَّ هؤلاء الشعراء إنّما خاطبوا جماهير زمانهم، وتكلّموا معهم على الطريقة التي يفهمونها، وبالفكرة التي يسيغونها، وكانت هذه القصائد حينئذٍ مؤثّرةً وفعّالة، تحمل شحنةً موجبةً إسلاميّةً قويّة، وتغافلت عن أنَّ عليها أن تخاطب جماهير القرن الرابع عشر الهجري، وتتكلّم على طريقتهم وبالأُسلوب الذي يفهمونه ويلذّون له، كما كانت جماهير القرون الإسلاميّة الأُولى تفهم حسان ودعبل وتلذّ لهما؛ لتنال الأضواء مثل ما نالا من الإعجاب والإصغاء.

فقد أخذ الذهن البشري مساراً آخر، ولبس ثوباً مختلفاً تمام الاختلاف عن تلك الثياب، وقد أصبحت تلك الأشعار كنوزاً، وأصبحت أمثالها

(١) في هذا إشارةٌ إلى ما ذكره السيّد بحر العلوم (حفظه الله) تعالى في مقاله. راجع المقال في مجلّة النجف الغرّاء، العدد السابع، السنة الرابعة (منه قدس سره).

(٢) وهي: مجلّة (الأضواء) التي تشرف عليها اللّجنة التوجيهيّة لجماعة العلماء، وكان صاحب الامتياز فيها: العلّامة المجاهد الشهيد الشيخ كاظم الحلفي قدس سره. وقد صدر العدد الأوّل منها بتاريخ: الجمعة ١٥/ ذي الحجّة/ ١٣٧٩ = ١٠/ حزيران/ ١٩٦٠.



المستحدثة ممّا ينبو عنها الذوق وتمجّها الإذن، ولا يرغب الإنسان بالبدء بقرائتها، فضلاً عن أنّه يستطيع إتمامها والاستفادة منها.

لن يفيدنا مقالٌ جامدٌ صلب، كأنّه يشرح أعقد النظريّات العلميّة وأدقّها، معتمداً في الدعوة إلى دين الله القويم على تكرار كلمة الإسلام عدداً ربّما فاق العشر مرّات في المقال الواحد، ذاكراً أنّه يدعو إلى السعادة والفوز في الدنيا والآخرة.

إنَّ الذي تدعو إليه هذه المقالات والكتب صحيح جدّاً، وهو مستمدٌّ من صميم الإسلام ومقتبسٌ من معينه الثرّ، ولكنّه لا يمكن أن ينفذ إلى ذهن الجماهير الذين ألقى الله تعالى هدايتهم بعد أنبيائه وأوصيائه عليهم الصلاة والسلام على هؤلاء المؤلّفين والكتّاب.

فعلى الكاتب الإسلامي اليوم إن كان يريد أن يشبع اندفاعه نحو الدعوة الإسلاميّة، وأن يرضي إخلاصه للإسلام، وأن يبرئ ذمّته من رسالة الإسلام الخالدة، عليه أن ينظر في صميم الحياة في الأوضاع العامّة والأوضاع الخاصّة، أن يجالس مختلف الطبقات ليطّلع على مستواهم الثقافيّ والفكريّ، وليتفهّم مشاكلهم ووجهات نظرهم، وأن ينزل إلى أغوار نفوسهم ليرى محتوياتها وما تزخر به من الآمٍ وآمال، وليشخّص في النهاية الأُسلوبَ الصحيح الذي يمكن أن يصل به صوته إلى قلوبهم ليهزّها ويحييها، ثُمَّ ليجلس بعد ذلك ليكتب أدباً فيّاضاً بالحياة جميلاً رائعاً تعشقه النفس وتلذّ له الأذن، فيكون بهذا قد عالج الواقع الإسلاميّ المتداعي من ناحية، وأوصل صوته إلى الجماهير المسلمة من ناحيةٍ أُخرى، وأنتج نتاجاً أدبيّاً بالمعنى الصحيح من ناحيةٍ ثالثة.

أرجو أن لا يُحمل هذا الكلام على الدعوة إلى سدّ باب البحوث الإسلاميّة الدقيقة والمقالات الفكريّة العميقة؛ فإنَّ كلا النوعين ضرورةٌ إسلاميّة لا محيص عنها في سبيل نشر الدعوة والتنويه بها، ولكنّ المخاطب بكلٍّ من النوعين غير المخاطب بالنوع الآخر، والغلط الفاحش يكمن في نشر المقالات الفكريّة في محلٍّ يقصد به إقناع الجماهير.

إذا وجد المفكّر الإسلاميّ حاجةً ورغبةً لأن يعرض الإسلام بجميع جوانبه وأفكاره على الجمهور المسلم، فلن تنفعه الدعوة عن طريق الأُسلوب التجريديّ الجافّ، بل عليه أن يسكب في إنتاجه روحاً ويجري في دمائه حياةً تجعله ثمرةً يانعة هي أهلٌ للاقتطاف.

وما على الأديب الذي يربأ بنفسه عن الأُسلوب المبتذل، ذلك الأُسلوب الذي يحتاج إلى كتّاب آخرين، إلَّا أنَّ يستجيب لنداء الأدب بجميع مستلزماته ومقوّماته، خيالاً وتصويراً وفكرةً وأُسلوباً، قصّةً كان النتاج أم قصيدةً أم مقالاً اجتماعيّاً أم أدبيّاً، وحتّى إن كان غزلاً أو وصفاً أو مديحاً أو رثاءً - مثلاً- وبعد أن يتمّ له النتاج وتتميّز معالم شخصيّته، يشير إشارةً يسيرةً في غضون كتابته أو قصيدته إلى موضع الإسلام من بحثه، ورأيه في المشكلة التي يعالجها أو الموضوع الذي يتناوله، هذه الإشارة كفيلةٌ بأن تحوّل النتاج إلى نتاجٍ إسلاميٍّ فيّاضٍ بالحياة، محبّبٍ إلى النفوس، ولن يجد الأديب أنَّه قد خسر أيّ شيء، بل إنَّه قد ربح ربحاً أبديّاً خالداً، حيث يأخذ الإسلام بيد أدبه إلى حيث المجد والخلود. وفي الدعوة الإسلاميّة القدرة والقابليّة على احتضان هذا الحقل من حقول المعرفة بين ذراعيها الحنون ضمن ما تحتضن من حقول المعرفة وحقول الحياة، ثُمَّ يكون النتاج عندئذٍ بحثاً إسلاميّاً تسيغه النفس بل

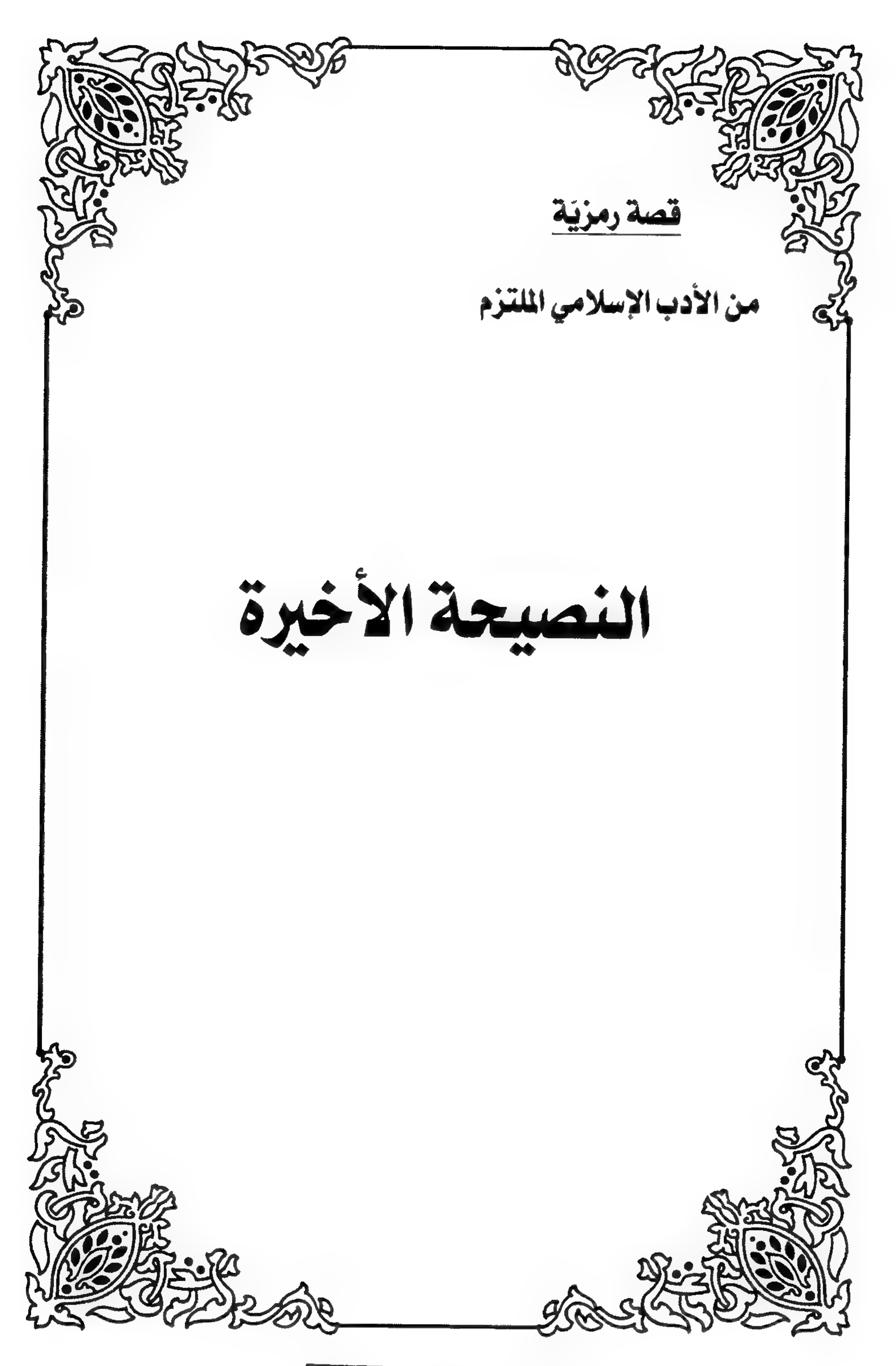


تشتاق إليه ويقتنع به العقل، بل يُطلب منه المزيد.

ليس لي - بالطبع - أن أقترح على الأُدباء شيئاً، وما هي حدود تفكيري حتّى أملي عليهم الآراء، كما أنّه لا ينبغي أن يقيّد الأدب بأيّ قيدٍ يخلّ بفعاليّاته؛ فإنَّه لا ينشط ولا يزدهر إلَّا تحت ظلّ الحريّة، والحريّة المطلقة، ولكنّه اقتراح رأيتُ أنّه لا يخلّ بطبيعة الأدب الحرّة، كما أنّه من ناحيةٍ أُخرى نداءٌ مخلصٌ لنحصل على أدبٍ إسلاميٍّ مجيد، ولنوصل صوت الإسلام إلى الجماهير المسلمة المتعطّشة إلى معرفة الإسلام، وإلى امتثال أوامر الإسلام. والله وليّ التوفيق.

محمّد الصدر





قصة رمزيّة

من الأدب الإسلامي الملتزم

النصيحة الأخيرة

النصيحة الأخيرة(1)

أضفى جوّ الليل البهيم على هذه الغابة الكثيفة الشجراء، جوّاً أسود فاحماً، يوحي لما فيها من نبات وحيوان، بالوحشة والروعة، ويغيّر فيها ما كانت تعجّ به من أوجه نشاط الحياة أثناء النهار، يغيّره إلى نوعٍ من الصمت العميق والسكون الموحش الدفين.

فلم يعد يسمع خلال هذه الغابة المترامية الأطراف إلّا ما تحدثه يد الأشجار من حفيفٍ خفيف، يلامس أوتار الأُذن برقّةٍ وفتور، عندما تلاعبها أنامل النسيم الهادئة، وإلّا ما يُسمع من أجنحة طيور الليل، وهي تغادر مكامنها إلى حيث مطالب الرزق.

وإلّا وقع أقدام وحشٍ هائم، لم يتطرّق النوم إلى عينيه من شدّة الجوع، فمشى خلال الليل البهيم باحثاً عمّا يسدّ به رمقه من ضعفاء الحيوان.

في هذا الليل وتحت أُفق هذا الجوّ الساكن، كانت تضطجع فوق العشب الوثير، وتحت مجموعةٍ ملتفّةٍ رائعةٍ من الأشجار الباسقة، لبوةٌ مريضة، تجمع حولها أشبالها، وتئنّ بين الحين والآخر من وطأة الألم، وتستوحي من ذلك الجوّ الهادئ الرهيب مزيداً من الوحشة والألم والكسل.

وكانت أوصال الألم تستشري في إهابها بنشاطٍ صامت، وتمشي بأعصابها بهمّةٍ هادئة، مستمدّةً من ذلك الليل البهيم حيويّةً متزايدة، ونشاطاً منقطع النظير.

(1) [تاريخ كتابة البحث] الخميس: ٢٣/ ١٠/ ١٣٨٤ = ٢٤/ ٢/ ١٩٦٥ (منهقدس سره).



آلام اللبوة تتزايد شيئاً فشيئاً، ولواعجها تثقل عليها باستمرار، وآهاتها وأنينها يزداد تتابعاً، ويتأكّد عمقاً. فمرّة ينطلق منها الزفير انطلاق المتفجّر الثائر، وأحياناً يخرج من بين أشداقها خروج اليائس الصامت. وهي بين الحالتين مستسلمةٌ إلى العشب لا تعرف ملجأً ولا تعلم دواء.

وإذ رأى أشبالها ما في أُمّهم [من] ألمٍ ممضّ، وما تعانيه من وحشةٍ وحسرة، وما تكابده من مرضٍ أليم، توجّهوا إليها بخشوعٍ وأدب، راجين منها أن تسمح لهم بالبحث لها عن طبيبٍ في أرجاء هذه الغابة الكبيرة؛ لعلّه يستطيع تشخيص دائها وتعيين دوائها، ويكون على يديه شفاؤها العاجل السريع، وإن استلزم الحال إيقاظه من نومه وإزعاجه في أحلامه.

وحين رأت الأُمّ الرؤوم مبلغ حنوّ أشبالها ولوعتهم عليها، شكرت لهم عواطفهم، وأثنت على حسن كرمهم، وأذنت لهم بالذهاب.

لم يغب الأشبال إلّا برهةً من الزمن، جاؤوا بعدها ومعهم أرنبٌ عجوز، ينطّ بين العشب ببطءٍ وتثاقل، قد خالط النوم عينيه، وأزعج التعب رجليه.

واقتربوا منها، وانحنى الأرنب بأدبٍ واحترام، مسلّماً على اللبوة الأُمّ، فرحّبت به، وشكرت له سعيه، وأذنت له بالجلوس.

وإذ ضمّهم ذلك المجلس، ابتدر أكبر أبنائها بالكلام، محاولاً تعريف هذا الضيف القادم لأُمّه، فذكر أنّه أرنبٌ صالح، معروفٌ بالتقوى والورع، وبطهارة النفس وصفاء الضمير، إلى جانب دقّةٍ في النظر، وسعةٍ في التفكير، واطّلاعٍ واسع على علوم الطبّ.

وطلب هذا الشبل من أُمّه أن تسمح للطبيب أن يشخّص ما بها من داء، ويعيّن ما تشكوه من آلام؛ لعلّه أن يصف لها الدواء الناجع الصحيح.



وبعد أن جسّ الأرنب نبضها ونظر إلى لسانها، واستمع إلى دقّات قلبها، انسحب بهدوء، وجلس مرةً أُخرى في مكانه الأوّل. ثُمَّ تأوّه آهةً صغيرةً تحمل ما يريد أن يبديه تجاه هذه اللبوة المريضة من شفقةٍ ورحمة.

ثُمَّ قال لها: إنّك يا سيّدتي في صحّةٍ وعافيةٍ ولا داء فيك، ولا يحتوي جسمك على تشنّج أو التهاب أو اضطراب، وإنّما الذي تحسّينه وتشكين منه، إن سمحت لي بذكره، إنّما هو خمولٌ أصابك، وكسلٌ ألمّ بكِ منذ أيام، منعكِ عن ممارسة نشاطك الاعتيادي في الحياة، وأدّى بك إلى عدم تناول المقدار الطبيعي لك من الطعام والشراب، فأنتجَ ما تجدينه من ألمٍ ووحشة.

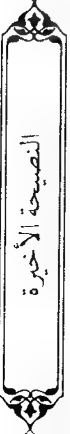
وإنّي سوف لن أصف لك دواءً تستعملينه، ولا عقّاراً تصنعينه، وإنّما الذي أعتقده أنَّ أنجع الأدوية بالنسبة إليك هو أن تقومي بنفسك، شيئاً فشيئاً بفعاليات الحياة، وتباشري عملك الطبيعي فيها، وتقومي بما تتطلّبه منك من واجبات، وما لك عندها من حقوق.

واتّبعي أحسن الطرق التي توصلك إلى حقوقك والقيام بواجباتك؛ لكي تستطيعي أن تتناولي من ثمار جهدك التي تغرسينها بيدك، فاكهةً شهيّةً ناضجة، لا يشوبها ألم، ولا تختلط بها حسرةٌ ووحشة.

وإنّي أعدك، أنّك بمجرّد أن تذوقي الثمار الشهيّة التي تقطفينها من بساتين عملك، فإنَّ داءك سوف يزول، وستبرئين تماماً من هذه الشكاة.

ما إن سمعت اللبوة من الأرنب الطبيب هذا الكلام، حتّى تغيّر وجهها عليه، ولاعبت ملامحها مسحةٌ من العبوس والاشمئزاز.

ثُمَّ قالت له: دع عنك فلسفتك هذه جانباً، كيف تنصحني بالحركة وممارسة النشاط، وأنت على ما تراني عليه من المرض والذبول؟



فأجابها الأرنب: إنَّني قد أدّيتُ لكِ النصيحة، وقمت بالواجب أمام ربّي وضميري، ولكِ فيما قلتُ مِن الشفاء ما تطلبين لو كنت تعلمين.

فقالت له بحدّة وعبوس: اذهب فقد خالط الشيب عقلك أيّها الأرنب العجوز. وحاولت أن تضربه بمخالبها ولكنّها لم تقوَ على القيام، وفرّ الأرنب من بين يديها هارباً.

بقيت اللبوة عندئذٍ تئنّ تحت ضغط الألم الثقيل وتتقلّب على فراش المرض الأليم في ذلك الليل الموحش الرهيب، تقتات من آلامها مرّ الطعام وتتجرّع من وحشتها أكؤس العلقم والصاب، وازداد وجد الأشبال على أُمّهم الطريحة، وتضاعفت لوعتهم على ما تعاني من ألمٍ وحسرة. واستأذنوها بعد برهةٍ صغيرةٍ للتجوّل في هذه الغابة المظلمة مرّةً أُخرى لعلّهم أن يجدوا طبيباً آخر أبعد نظراً وأعمق فكراً من ذلك الأرنب العجوز، لعلّه أن يوفّق إلى الإسراع بها إلى أملها الكبير في الشفاء العاجل الجميل.

وجاس الأشبال مرّةً أُخرى خلال الغابة الشجراء، باحثين بما أُوتوا من خبرةٍ وجهد عن طبيبٍ جديد.

ولم يمرّ على اللبوة زمانٌ طويل، إلّا ورأت أشبالها عائدين، وبصحبتهم ثعلبٌ شابٌّ قويّ، تقفز من عينيه علائم المكر والدهاء، وتنطق حركاته بالحيويّة والنشاط، وتدلّ ملامحه على ما في نفسه من نزوات الشباب.

واقتربوا منها، وأقعى الثعلب عن قرب، وأبدى تحيّةً مقتضبةً باحترامٍ للّبوة المريضة، ثُمَّ استأذنها بمباشرة أعماله كطبيب، فأذنت له.

أطال الثعلب الفحص، وقلّب المريضة ظهراً لبطن، وتأكّد في فحصه عدّة مرّات، وكان بين الفينة والفينة، يفتر عن الفحص؛ ليفكّر ويتدبّر.



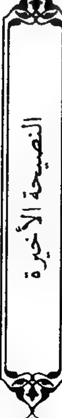
وعندما انتهى، رفع رأسه بدهاء ومكر، وهزّ رأسه هزّةً خفيفة، توحي للّبوة أنّه مشفقٌ عليها رحيمٌ بها، ثُمَّ ابتدرها بالكلام قائلاً:

إنَّني آسف، إذ أخبرك أنَّ بدنك محتوٍ على عدد من الأمراض الجسيمة، والعلل الخطيرة، من اضطرابٍ في القلب وتضخّمٍ في الكبد وقرحةٍ في المعدة، وهذه الأمراض تحتاج إلى طول في العلاج، وكثرةٍ في الدواء، وإلى إنفاق زمانٍ طويلٍ في النوم المريح الخالي من ممارسة أيّ نشاط.

وإنَّه ينبغي لكِ أن لا تفكّري في شؤون الحياة، وأن لا تحملي بين جنبيك همومها وآلامها وتتعبي على تحصيل لقمة العيش فيها، وإنَّما دعي ذلك إلى أشبالك الكرام، الساهرين على راحتك وحسن مداراتك.

وإنَّني واصفٌ لك بعض الأدوية المساعدة لكِ في شفائك، والموصلة إليكِ صحّتكِ، بأسرع وقتٍ وأسهل طريق، وإنِّي سوف أتعهّدك بين الفينة والفينة بالزيارة والفحص والإرشاد.

وبعد أن كتب لها قائمة الأدوية في ورقة، ودّعها بحفاوةٍ وإكرام، وذهب إلى حال سبيله.



ومن ثَمَّ تصدّى الأشبال إلى تحصيل الدواء وجمعه من أطراف الغابة، واستخلاصه من النباتات المتعدّدة والمعادن المختلفة. وأنفقوا في ذلك وقتاً طويلاً، حتّى كادت الشمس أن ترسل أشعّتها الدافئة بعد ذلك الليل البهيم، على أشجار الغابة الباسقة؛ لتكسوها روعةً وجمالاً، وتجعلها سرّاً وفتنةً للناظرين.

عاد الأشبال بعد ذلك العناء الطويل إلى أُمّهم الطريحة، ليقدّموا لها الدواء الذي أحضروه، فوجدوا أنَّ حالها قد ساء، وصحّتها قد تنازلت، وقد استشرى بها المرض أكثر فأكثر، فسلّموا عليها بأدبٍ واحترام، ونظروا إليها

بحسرةٍ وألم، وأسرعوا بإعطائها شيئاً من الدواء الذي حملوه.

وتناولت اللبوة الدواء، ثُمَّ التفتت إليهم، وحاولت جاهدة أن تغتصب من بين آهاتها المتواصلة، وقتاً كافياً لأن تقول: آه، لو كنت قد أطعت الأرنب العجوز، ومارست حقّي في الحياة، شيئاً فشيئاً منذ المساء السابق، إذن لم أكن لأصل إلى هذا الموقف الأليم.

ولو كنت قد سلكت الطريقة الفضلى في الحياة، ومارست حقوقي وواجباتي باتّزان لما وصلت إلى هذه النتيجة الرهيبة، ولانقشعت عنّي حجب الوحشة، وانزاح عنّي الألم إلى غير رجعة.

فإنَّ النشاط الدائب البنّاء، في سبيل تطبيق منهج الحياة القويم، والوصول إلى ثماره الناضجة الشهيّة، بكدّ اليمين وعرق الجبين، خيرٌ على كلّ حال، من الاستسلام إلى الكسل، والإعراض عمّا تعجّ به الحياة من حقوقٍ وواجبات، والاكتفاء بشرب الدواء بوحشةٍ وحسرة، على فراش المرض الرهيب.

وليس هذا الدواء الذي تجرّعته الآن، بمشورة ذلك الثعلب الماكر، إلَّا الطريق المحتوم إلى الهلاك، وإلى مغادرة الحياة، فقد أخطأ تشخيص الداء ووصف الدواء، وما أظنني إلَّا مفارقتكم بعد قليل.

ونصيحتي الأخيرة إليكم: أنَّكم إذا مرضتم يا أشبالي الأعزّاء في يوم من الأيَّام، فارجعوا إلى ذلك الأرنب العجوز، أو إلى مَن يسير على شاكلته في العمل والتفكير، وحذار أن يخطر في أذهانكم الرجوع إلى مثل ذلك الثعلب الماكر الشرّير.



قصة رمزية

من الأدب الإسلامي الملتزم

قصة دجاجتين



قصة دجاجتين[1]

هناك في طرفٍ من أطراف هذه الصحراء القاحلة المترامية الأطراف، التي تنعب فيها البوم وتعوي فيها الثعالب والذئاب، وتشرق عليها شمس الضحى فتحيل حصباءها إلى جمارٍ لاهبة، وأحجارٍ متّقدةٍ تقتل الطير وتمنع السير... في أحد أطرافها جبلٌ صغيرٌ مطلٌّ على شعبةٍ من شعب الصحراء، مخضوضرة الجناب بتلك الخضرة الصحراويّة اليابسة والنباتات الشوكيّة المحدّدة.

قد رقدتْ في بعض ظلاله وفي كهفٍ من كهوفه، ضبيةٌ نحيفةٌ بادية الشحوب متغيّرة اللون، تشكو منذ الأمس ألماً ألمّ بها، وداءً حلّ بإهابها وأخذ بمجامع نفسها، فكانت راقدةً بهدوءٍ مستسلمةً إلى أنغام الألم، وهي تسري في إهابها الغضّ، وتعتصر بأصابعها القويّة منها القلب والأمعاء. وكانت تستوحي من سكون الصحراء ووحشتها ورهبتها ما يضاعف عليها آلامها ويعطي المرض نشاطاً ملحوظاً وغلياناً محسوساً. كما كانت تحسّ من لفح الهجير وقلّة الزاد والماء، ما يزيد قوّتها ضعفاً وجسمها نحولاً ولونها شحوباً.

ولم يكن يمكنها أن تأنس بشيءٍ أو تجد السلو عن آلامها بأيّ أمل، لولا وجود ابنيها الضبيين الشابّين اليافعين، اللذين بدآ استقبال الحياة بأملٍ واسع، وصدرٍ منفتحٍ ونشاطٍ دائب. وكان أحدهما أشدّ قلباً وأمضى إرادةً وأوسع



(١) [تاريخ كتابة البحث] الأحد: ١٠/ ١/ ١٣٨٦= ١/ ٥/ ١٩٦٦ (منه قدّس سرّه).

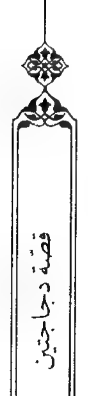
أملاً، وكان الآخر أكثر هدوءاً وأرقّ قلباً وأبعد نظراً. وكان يدعى الأوّل منها (رائداً) والآخر (مريداً).

ولم يكن لهما من العمل في ذلك الحين، إلّا السهر على راحة أُمّهما والعمل عل تمريضها، والجدّ في سبيل قضاء حوائجها والقيام بمتطلّباتها ... وبعد أن مضى يومٌ كاملٌ من حين استقبلت أُمّهما هذا الضيف الثقيل والمرض الشديد، في زمنٍ لم تذق فيه طعم الراحة ولون النوم ... لم يكن لهذين الولدين من بدٍّ سوى أن يرجوا أُمّهما بأن يُحضرا لها الطبيب؛ لعلّ الصحّة طوع بنانه، والشفاء ملك يديه، ولم يكن للأُمّ بدٌّ أيضاً سوى الرضا والتسليم لهذا الاقتراح الشفيق ... ونزلت الفكرة إلى حيّز العمل والتنفيذ.

... بقي مريدٌ مع أُمّه الطريحة يرعى شؤونها ويكفل لها مصالحها، وذهب رائدٌ بنشاطه المتحفّز وإرادته المنطلقة، يبحث في أرجاء الصحراء عن الطبيب ... وبعد لأيٍ وجهدٍ، وجد ثعلباً عجوزاً بادي النحول يطلّ الذكاء ويقفز الدهاء من وراء نظّارتيه السميكتين، قد اشتهر بين أصحابه بالحذق في علوم الطبّ، والبراعة في وصف الدواء ... وانفتح برؤيته أمام رائد بابٌ من الأمل الجديد، وتكلّل جهده بالنجاح.

قابل رائدٌ الثعلبَ بابتسامةٍ جميلةٍ تصحبها تحيّةٌ لطيفة، حاول أن يضمّنها أكبر ما يستطيع من المجاملة والتودّد أمام هذا الثعلب الجافي العجوز... ورجاه بلطفٍ أن يذهب بصحبته لعيادة أُمّه الطريحة التي تأكل إهابها الأمراض وتسري في أعصابها الآلام، المستلقية في ذلك الطرف من الصحراء.

ولم يكن من الثعلب إلّا أن ابتسم بخبثٍ وبشكلٍ باهت مقتضب، وأوجد هزّةً خفيفةً في رأسه، وتمتم بين شفتيه: إنّني على استعدادٍ للذهاب



معك، إذا جعلت أُجرتي دجاجتين كاملتين.

... ابتلع رائدٌ ريقه من مثل هذا الجفاء، ومن هذا الطلب الثقيل، من أين يستطيع إحضار دجاجتين ليشبع بهما نهم هذا الثعلب الماكر؟ ... إلَّا أنّه مضطرّ ... وما حيلة المضطرّ إلّا ركوبها ...

إنَّ أُمّه تنتظره قيد الفراش على أحرّ من الجمر ... وليس من الصحيح أن يستمرّ بها المرض أكثر ممّا هو عليه الآن ... كما أنّه ليس من المؤكّد أنَّ في استطاعته الحصول على طبيبٍ آخر لو رفض المعاملة مع هذا الثعلب الطبيب ... أمّا الدجاجتان ... فسوف تحضران ... مادام في بدنه نشاط، وفي قلبه عزمٌ وإرادة.

ومن ثَمَّ حاول إبقاء ارتسام الابتسامة على شفتيه ... وتدحرجت من فيه كلمةٌ واحدةٌ هي: نعم.

... ولم تمض برهةٌ إلّا وقد صارا بين يدي الأُمّ المريضة ... ولاحظها ولدها وقد ازداد شحوبها وتتابع أنينها، وصعب وقع الحرّ على بدنها، وإذ دخلا أبدى الثعلب تحيّةً مقتضبة، أجابه عليها (مريد) الضبي المجاور لأُمّه إجابةً خفيفةً مع ابتسامةٍ صغيرة، وتمتمت الأُمّ صوتاً خافتاً يشبه الأنين.

وإذ انتهى من الفحص جلس الثعلب .. واستعدّ للكلام، وأصبح الولدان آذاناً واعية لتلقّي ما سوف يقول. فذكر لهما بلهجةٍ حازمةٍ أنَّ أُمّهما تشكو التهاباً في الأمعاء، وأنَّ عنده دواءً ناجعاً لذلك. ثُمَّ التفت إلى رائد وأردف بحزم: إنَّني سوف أحضر لأُمّك هذا الدواء، بشرط أن أجد الدجاجتين جاهزتين عند رجوعي إلى هنا ... ولم يكن لرائد من بدٍّ إلَّا أن جمع شتات بأسه وإرادته، وأجابه بصوت واثق: كن مطمئنّاً يا دكتور.

وإذ يذهب الطبيب، يلتفت مريدٌ نحو رائد مؤنّباً قائلاً: ما هـذا الـشرط الذي تورطّتَ به مع هذا الثعلب الماكر، وكيف يمكنك إحضار الـدجاج لـه، وهل يوجد في هذه الصحراء على سعتها أيّ أثرٍ للدجاج؟

... وفهم رائد أنّه لابدَّ أن يقف من القضيّة موقـف الحـازم الجـادّ، وأن يلتزم بالشرط الذي قطعه على نفسه إلى نهاية الشوط، وليكن في سبيل ذلك ما يكون ومن ثَمَّ ... فقد أجاب أخاه بكلّ حزمٍ وتأكيد: لم يكن من ذلـك بـدّ، لم يكن من الإنصاف أن ندَع أُمّنا تهلك تحت وطأتي السقام والهجـير، مهـما غـلا الثمن. وسوف أُحضر له الدجاج على أيّ حال.

فقال مريد: ألم يكن من الممكن أن تتّفق معه على أيّ شرطٍ آخـر أقـرب منالاً وأسهل حصولاً؟

فقال رائد: لم يكـن الموقـف يـسمح بـذلك، ولم يكـن الثعلـب متقـبّلاً للمناقشة والجدل، وعلى كلِّ حال، فإنّني الآن ذاهبٌ للبحـث عـن الـدجاج، لإحضاره قبل مجيئه بالدواء .. وابق أنت مع أُمّنا في الانتظار.

ومضت ساعةٌ من الوقت، بطيئة السير، شاحبة الظلال.. ظهـر بعـدها الثعلب العجوز، وهو يحمل قنّينة الـدواء، ويجـرّ قدميـه نحـو الكهـف بـبطء وتثاقل، وإذ وصل إليهم لم يُلقِ من التحيّة إلّا شيئاً قليلاً ... راح بعدها يتلفّت حواليه بدهشةٍ وانزعاج، ويدير برأسه في أرجـاء المكـان ... وفي لحظـةٍ نطّـت الكلمات من فيه بحدّة وحرارة، نحـو مريـد: أيـن الـدجاجتان، ألم يـأت بهـما أخوك؟

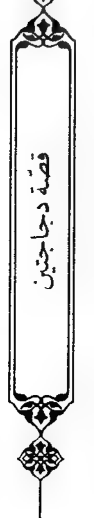
فأجابه مريدٌ باستسلام: لقد ذهب ليُحضرهما، فـصاح الثعلـب المـاكر: على أيّ حال.. لن تشرب أُمّك هذا الـدواء، قبـل إحـضار الـدجاجتين، فهـزّ



مريدٌ رأسه مستسلماً وقال وهو يحمل نفسه على الهدوء: لعلّه يأتي عن قريب. فردّ الثعلب بنفس اللهجة: إذن سأنتظره، وسأبقى هنا حارساً لدوائي إلى حين مجيئه.

ومضت ساعة أُخرى ثقيلة الأقدام شاردة الذهن ... واهية القوى ... بين التوجّس والأمل ... ظهر بعدها رائد يشتدّ في سيره راكضاً في قلب الصحراء، ولم يزل يقترب شيئاً فشيئاً حتّى استطاع الحاضرون أن يروا بوضوح أنّه لا يحمل أيّ شيء، وأنَّ أمارات الحزن والخيبة قد انطبعت على محيّاه، بالإضافة إلى خطوط التعب والإرهاق.

وهنا صرّ الثعلب بأسنانه وهزّ رأسه بعنفٍ قائلاً: يا له من خائن.. وحين حاول مريدٌ أن يجمع ما تبعثر من تفكيره وقوّته علّه يستطيع الجواب .. دخل رائدٌ وهو يلهث من التعب فألقى على أُمّه التحيّة، بشكلٍ متهدّج لاهث، وسأل عن تطوّر حالها باقتضاب .. وهو يرى نظرات الثعلب تعاجله الكلام، فقال: إنَّني جلت في طول الصحراء وعرضها، فلم أجد للدجاج أيّ عينٍ أو أثر، فلو تفضّل الدكتور بالرضاء بأيّ شيءٍ آخر يقترحه، لكان حسناً.



إلَّا أنَّ الثعلب صرّ على أسنانه من جديد، ونظر إلى رائد شزراً وقال: ما أخونَك من ضبي.. ألم تقدّر موقفك من أوّل الأمر، إنَّني لا أعدل بالدجاج شيئاً ولا أرضى به بدلاً، يكفيك أنَّني قنعت منك باثنتين، وصحبتك إلى أُمّك قبل استلامها، ثُمَّ هزّ رأسه وأردف قائلاً: أمّا الآن فإنّي أُريدهما كأُجرةٍ على الفحص، ولن تشرب أُمّك هذا الدواء ما لم تحضرهما.

وتفصّد رائد عرقاً، ولم يحر جواباً، واستسلم في صمت، وبادله أخوه نظرات العتاب واللوم .. وساد المكان صمتٌ موحش في انتظار ما يأتي به

المستقبل من حوادث وحلول.

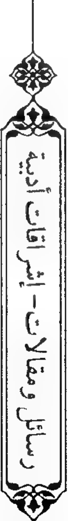
واستمرّ هذا الصمت برهة، صاخب العواطف، متصارع الأفكار.. نطق بعدها الثعلب قائلاً: ما هذا الصمت؟ هل سوف تغمطون عليّ حقّي وتأكلون أجري، لن يكون هذا أبداً. امض بنا أيّها الخشف، إلى الأسد سيّد الغاب، لأحاكمك لديه وأرى نظره فيك. وفي غمرة وقع الصدمة وقوّة الدهشة في ذهن هذين الولدين الشابّين اليافعين، لم يجد رائد بدّاً من أن يستردّ قوّته ويجمع شظايا نشاطه وينادي بمجامع نفسه نحو العمل والإرادة؛ إذ الأمر أمره، ويجب أن يتعهّد به إلى آخر المطاف.

وهنا نظر رائد في عيني الثعلب بقوّةٍ وعزم، قائلاً بكلِّ إصرار: قبلت تحدّيك.. هيا بنا إليه.. أمّا أنت يا أخي فابق مع أُمّنا حتّى أرجع إليكم، إلّا أنَّ مريد أجاب بإصرار: إنّني سأذهب معك لأراقب تطوّرات الموقف، أمّا أُمّنا فسندعها في كنف رحمة خالقها العظيم، وما عليها من بأس.

وبعد أن استأذن الضبيان أُمّها وودّعاها.. خرج الثلاثة قاصدين الغابة البعيدة التي تحدّ الصحراء من إحدى جوانبها. وبعد لأيٍ وصلوا إلى الغابة وفحصوا عن عرين الأسد حتّى وجدوه، فاستأذنوا ودخلوا، فوجدوه جالساً قد أحاط به جمعٌ من أنواع الحيوان.

وإذ دخلوا عليه، وحيّوا الأسد بأدبٍ واحترام، وأجابهم بابتسامةٍ هادئةٍ طبعها على شدقيه، تقدّم الثعلب الطبيب نحو الأسد، فشرح له ظلامته، وطلب منه إمّا إلزام الضبي بإحضار الدجاجتين، أو معاقبته بالشكل الذي يقتضيه النظام.

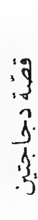
... وبعد أن انتهى الثعلب من كلامه، أمره الأسد بالتنحّي إلى أحد



الجوانب، والتفت إلى رائد وطلب منه أن يقول ما عنده، فذكر للأسد أنّه بحث عن الدجاج فلم يجده، ولو كان قد وجده لكان قد أعطاه للثعلب، ولشربت أُمّه الدواء.

... استمع الحاضرون إلى كلام الخصمين.. وأصبح الجميع بانتظار الكلمة النهائيّة التي تصدر عن الأسد في سبيل تذليل هذه العقبة وردّ الحقّ إلى نصابه.

إلّا أنّه لم يكن من الأسد، بعد أن سمع كلام رائد، إلّا أن رسم على شفتيه ابتسامةً خفيفة، وقال: الأمر سهل يا بنيّ، تستطيع أن تحصل على الدجاج من بعض بيوت الفلّاحين الموجودة في الطرف الآخر من الغابة.



ارتاح الثعلب الطبيب وحرّك أُذنيه، وصمت الحاضرون، وبقي الضبيان الأخوان جامدين في مكانهما، وقد ذهب بكلٍّ منهما عاصفةٌ من التفكير... إلّا أنَّ أرنباً من الحاضرين لم تُرق له فكرة الأسد، ولم يستصوب نظره، فتقدّم بين يديه بخضوعٍ وأدب، واستأذن في الكلام، وبعد أن سمع الإذن، تنحنح الأرنب وقال: سيّدي، إنَّ أداء الحقّ لأحدٍ لا يكون بغمط حقّ الآخرين، وليس صحيحاً أن يسرق هذا الضبي دجاجاً ليجعله أُجرةً للطبيب



... وحملق الأسد في هذا الأرنب الجريء ونظر إليه شزراً، وقال: إنَّ نظامنا وتقاليدنا في هذه الغابة تجيز ذلك، وما المانع أن نحكم على طبق النظام... ورفع إذ ذاك يده لكي يضرب الأرنب بمخلبه، إلّا أنَّ الأرنب نطّ من بين يديه وأسرع بالهرب والاختفاء.

أمّا رائد فقد قال بعزمه ونشاطه المعهود: حقّاً تقول أيّها السيّد العظيم، وسأسلّم للثعلب حقّه بعد قليل، فلينتظرني قريباً من العرين.. ثُمَّ انحنى

بأدبٍ وودّع باختصارٍ وأسرع بالخروج. واضطرّ أخوه أن يجري وراءه لكي يعرف وجهته.

وحين صارا في أكناف الغابة، ناداه قائلاً: إلى أين تذهب يا رائد، أليس من الأفضل أن تصطاد من هذه الغابة بعض الدجاج الوحشي وتذهب به إلى الثعلب، فإنّه خير لك من السرقة التي لا تعرف عواقبها، وليس لك في بيوت الفلّاحين خبرةٌ مسبقة، إلّا أنَّ رائداً أجابه بعزم وإصرار: ليس في هذه السرقة أيّ ظلمٍ بعد أن أجازها النظام وأمر بها سيّد الغاب، وأمّا بيوت الفلّاحين فسوف احتال لها وأترصّد عليها، حتّى نظفر بالنتيجة بأقرب وقتٍ وأسهل طريق، فقال مريد بلهجة اليائس: افعل ما شئت أمّا أنا فلن أعينك في شيء، سوف أنتظرك خارج البيوت.. وادخل أنت إلى حظائر الدجاج.

.. وكان الطريق قد وصل بهم في ذلك الحين إلى قرب تلك البيوت، فقبع مريدٌ في زاوية تكشف له عن تحرّكات أخيه... أمّا رائد فقد أمعن النظر والفحص في مجموعة من البيوت، ولم تمض إلّا برهة، قفز بعدها إلى داخل بيتٍ رآه يحتوي على حظيرة للدجاج.

... انتشر لهذه القفزة صوتٌ عالٍ، جلجل في الهواء، ووصل إلى مسامع مريد وهو قابع في زاويته، فوضع يده على مجامع قلبه وهزّ رأسه بصمت، ولم يلبث أن رأى سكّان البيت وقد خرجوا للبحث عن مصدر الصوت.. فوجدوا ضبياً قد ألقى بنفسه في حضائرهم.. يا للعجب.. إنّه ضبيٌ شابٌّ يانع، يصلح لحمه لأنواع من المطبوخات .. ويكفي الأُسرة لعدّة أيّام.

ورأى مريد يد أحدهم تصوّب نحوه شيئاً وتطلق عليه منه قذيفةً من نار، ويقع رائد على الأرض قتيلاً ... وتُقبل الأُسرة بفرحٍ ونهم؛ لكي تجرّ



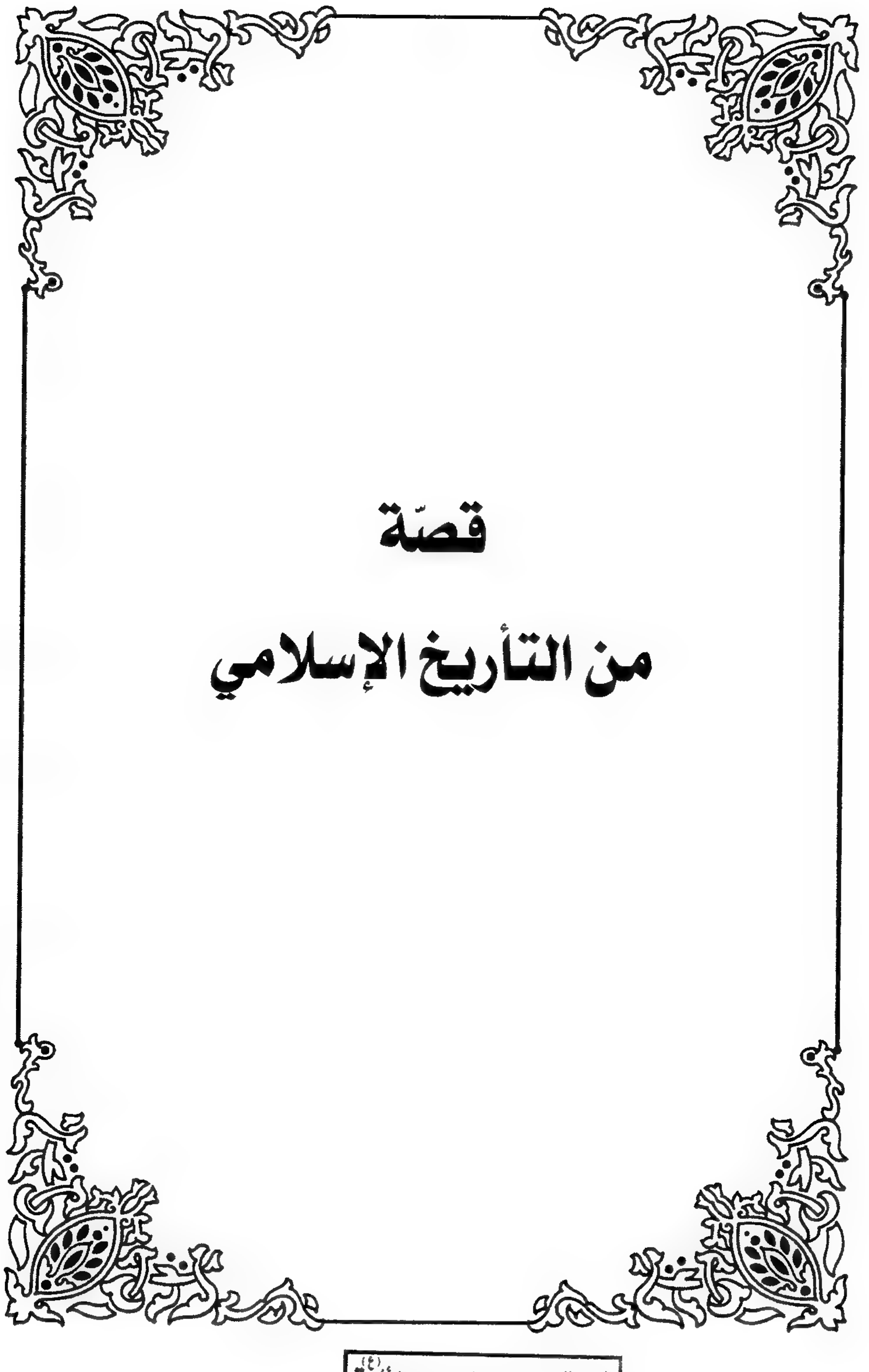
الفريسة الباردة إلى داخل الدار.

شاهد مريد كلّ هذا بحرقةٍ وصمت.. ثُمَّ هزّ رأسه بأسف، وانطلق يعدو نحو أُمّه ووصلها بعد برهةٍ من الزمان، فوجدها لا زالت لاصقةً بالأرض.. وهي على أحرّ من الجمر، بانتظار معرفة مصير ولديها العزيزين. ودخل مريدٌ كاسف البال يبدو عليه آثار الحزن والتعب.. وإذ رأته الأُمّ وحده على هذه الحالة، شعرت بأنَّ وراءه ما يسوء.. فأحفته[1] السؤال عن أخيه. فشرح لها تمام ما وقع باقتضاب، وأضاف بلهجةٍ يختلط فيها الحزن بالعزم والإيمان: لقد قلت له ودللته على الحقّ، إلَّا أنَّه لم يرد لنفسه إلَّا ذلك.

فأجابت الأُمّ بشيءٍ من الارتياح: مَن ضاق عليه الحقّ فالباطل عليه أضيق.

---

(١) أي: بالغت في السؤال. راجع لسان العرب ١٤: ١٨٧، فصل الحاء المهملة.



قصّة

من التأريخ الإسلامي

قصة من التاريخ الإسلامي

(١)

الاهتمام بادٍ على وجه هذا الرجل الأعرج، وعلامات الجدّ والتوثّب باديةٌ على أساريره، وانساقت الكلمات من بين شفتيه حارّةً مؤثّرة.

- منعتموني الخروج إلى بدر، فلا تمنعوني الخروج إلى أُحد.

إلّا أنَّ قومه يبقون على الإصرار الثقيل:

- أنت رجلٌ أعرج، ولا حرج عليك، وقد ذهب بنوك مع النبيّ صلى الله عليه وآله، وفي شهادة أولادك ما يكفيك.

- بَخٍّ، أيذهب أولادي إلى الجنّة، وأنا أجلس عندكم؟

ويبادر باهتمامه الثوريّ المؤمن، ليأخذ الطريق إلى حيث توجد (درقته) ليلبسها استعداداً للجهاد المقدّس، متمتماً بخشوع:

- اللهمّ لا تردّني إلى أهلي خائباً.

ويستمرّ قومه على إصرارهم الثقيل، فتبعوه بخطواتٍ قاتمة، ليقعدوه، وليفلّوا من عزمه، ويفتّتوا إخلاصه. ولكنه يواجه هذا التيّار صامداً مخلصاً لا تأخذه في الله لومة لائم.

ويتوجّه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو قائد الغزوات، وحبيب المسلمين، وقوله الفصل في كلّ خلاف، ويقطع الطريق باندفاعه وتأجّجه، لا ببطئه وعرجه، ويواجه النبيّ صلى الله عليه وآله، لينزل في قلبه الكبير بلغة الإيمان الصارم،

احتجاجه الشديد على هذا التيّار المقيت:

- يا رسول الله! إنَّ قومي يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك. والله إنّي لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنّة.

- أمّا أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك.

فيأبى هذا الرجل إلّا عن الانفتاح على الأفق الرحب الخالد، أُفق الشهادة، ويصرّ على رأيه بالخروج إلى الجنّة، فيلتفت رسوله الله صلى الله عليه وآله إلى قومه:

- لا عليكم أن تمنعوه، لعلّ الله يرزقه الشهادة. وانفرجت أسارير الرجل، لقرب الغاية وبلوغ الهدف، وأخذ القوم برأي رسول الله صلى الله عليه وآله وخلّوا عنه.

واندفع الرجل في طريق الشهادة، إلى ساحة الموت، يذرعه بعرجته ويذلّله بهمّته وإيمانه، محدّثاً نفسه بتلهّفٍ مخلص:

- أنا والله مشتاقٌ إلى الجنّة.

وكان ابنه يعدو في أثره، حيث خرّا صريعين في ساحة الجهاد الإسلامي المقدّس، فأشرقا نجمين في سماء الشهادة، وأداء المسؤوليّة الإسلاميّة، فكانا أحياء عند ربّهم يرزقون.

وكان لزوجته أمّ أولاده، موقفٌ مخلص كبير، نذكره في القسم الثاني إن شاء الله تعالى[1].

الأحد: ٢٢/ ٧/ ١٣٨٩= ٥/ ١٠/ ١٩٦٩

---

(١) راجع أُسد الغابة ٥: ٢١٥، وما بعدها، وشرح نهج البلاغة ١٤: ٢٦١، وما بعدها، قصّة غزوة أُحد (منه قدّس سرّه).



(٢)

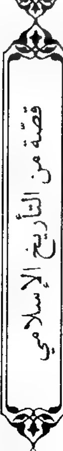
الصباح الكئيب يشرق ببطءٍ حزين، وسكونٍ رهيب، على هذه الأرض الطيّبة التي ملأت مسامعها بالأمس صليل السيوف وضوضاء الرجال... الجثث مكوّمة على الأرض تنعى نفسها بصمتٍ وخمول، عسى أن تمتدّ إليها أنامل الرحمة فتوارى تحت الصعيد.

ويبدو من بعيدٍ شبحٌ أسود يتسنّم جملاً، يجدّ السير مع الفجر ويسابق الزمن، ويطلّ على القتلى وجهٌ تعلوه الكآبة ويشدّه الإيمان.. ويتلفّت بحماسٍ واهتمام.. عساه يرى الأعزّاء الذين ودّعتهم هذه المرأة لخوض هذه المعركة المقدّسة، لكي يكونوا من جنود الله الأمناء... إنَّ هذا القلب لم يجب ولم يتلجلج.. كان عند وداعهم مؤمناً صامداً.. ولا زال مؤمناً صامداً... إنَّ زوجها وولدها وأخاها.. وإن خسرتْهم في العاجل.. إلَّا أنَّها ربحتْهم في نهاية المطاف.

زجرت الجمل فبرك... وامتدّت يداها المطمئنّتان بكلِّ خشوعٍ إلى الجثث العزيزة، فحملتها معها على الجمل.. إنَّها الآن تشعر بالقرب إليهم.. قرب الجسد وقرب العقيدة وقرب العمل.

ومضت فترة.. امتلأ الفسيح خلالها بالنساء الواردات المتفرّجات، الباحثات في القتلى، والمتطلّعات في الأخبار... إنَّ هذه المرأة الصابرة لا يهمّها من أمرهنّ شيئاً، فقد أدّت مهمّتها على خير وجه... إنَّها تريد المدينة لكي تدفنهم هناك.

وبينما هي تريد المسير .. إذ أخرجها من وجومها وانصرافها.. صوتٌ



قريب.. إنَّه صوت عائشة زوجة النبيّ المظفّر الذي قاد هذه المعركة المقدّسة...

جاءت بين النساء المستطلعات، وابتدرتها عائشة:

- عندك الخبر.. فما وراءك.

والتفتت المرأة المجاهدة الصابرة، إنَّ أهمّ خبرٍ عندها هو انتصار الإسلام في هذه المعركة الكبرى (أُحد).. ونجاة قائدها الكبير من القتل بعد ما حدث فيها من خيانة بعض الجنود.. أمّا خبر هذه الجثث العزيزة، فليس مهمّاً، وبادرت المرأة إلى الجواب بكلّ حزم:

- خير، أمّا رسول الله ﷺ فصالح. وكلّ مصيبة بعده جلل.

- فمَن هؤلاء؟

- أخي وابني وزوجي.

- فأين تذهبين بهم؟

- إلى المدينة أقبرهم... (حَلْ حَلْ) تزجر بعيرها.

وهنا حدث ما لم يكن متوقّعاً... إنّها أمرت بعيرها بالسير، فبرك. وظنّت عائشة أنّه عاجزٌ عن السير لثقل حمله.

فقالت: لثقل ما حمل.

- ما ذاك به. لربّما حمل ما يحمله البعيران، ولكنّي أراه لغير ذلك.

فزجرته فقام.. فلمّا وجّهته إلى المدينة برك.. فوجّهته إلى أُحد فأسرع..

إذن، فالموقف مجهول، يكتنفه سرٌّ خفيٌّ لابدَّ فيه من الرجوع إلى رسول الله ﷺ لكي يفسّره.. فإنَّه المرجع [في] كلّ أمرٍ مهمّ ... وتوجّهت المرأة إلى النبيّ ﷺ.. تشكو حال جملها وخيبة أملها في دفن أعزّائها في المدينة..

فقال النبي ﷺ: إنَّ الجمل لمأمور.. هل قال عمرو شيئاً؟



- نعم.. إنَّه (يعني زوجها الأعرج) لمّا توجّه إلى أُحد استقبل القبلة ثُمَّ قال: اللهمّ لا تردّني إلى القبلة وارزقني الشهادة.

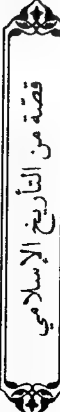
- فلذلك الجمل لا يمضي. إنَّ منكم يا معشر الأنصار مَن لو أقسم على الله لأبرّه .. منهم عمرو بن الجموح.. يا هند، ما زالت الملائكة مظلّة على أخيك من لدن قُتل إلى الساعة.. ينظرون أين يدفن.

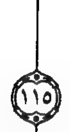
ولم يكتفِ النبيّ صلى الله عليه وآله بهذه التعزية الرقيقة للمرأة الصابرة المجاهدة... إنَّ القائد ينبغي أن يلحظ كلّ جنوده بعين الرحمة والعطف... مكث صلى الله عليه وآله حتّى كبّروا.

ثُمَّ قال: يا هند: قد ترافقوا في الجنّة جميعاً.. عمرو بن الجموح بعلك.. وخلّاد ابنك.. وعبد الله أخوك.

- يا رسول الله، فادعُ الله لي .. عسى أن يجعلني معهم[1].

الأربعاء: ١٤/ ١٠/ ١٣٨٩ = ٢٣/ ١٢/ ١٩٦٩





(١) راجع أُسد الغابة ٥: ٢١٥، وما بعدها، وشرح نهج البلاغة ١٤: ٢٦١، وما بعدها، قصّة غزوة أُحد (منه قدس سره).



مواقف اجتماعية

(لقد أصبح شخصاً آخر)

مواقف اجتماعية(١)

(لقد أصبح شخصاً آخر)

(١)

جاءني وقد بسط يديه وتهدّلت شفتاه ونبتت في رأسه عيناه، وقد أصبحت أذناه أُذنَي حمار، وقد غطّى جسمه وبر.

كان وجهه متلبّداً يعلوه صدأٌ باهت، وعيناه ضيّقتان، ومنخراه واسعان، وحدقتاه مضطربتان، وكانت رجلاه دقيقتين تخطّان الأرض خطّاً، ويكاد يخرّ من فوقهما، كقطرةٍ من ماء.

وطافت عيناه في وجهي، وأخذ يتذرّع جسمي جيئةً وذهاباً، لعلّها تستطيع أن تعلو أسواره، وتفتّش أعماقه، ثُمَّ حرّك رأسه كخروفٍ يريد النطاح، ثُمَّ بذل جهداً في فتح فمه وإدارة لسانه مستنجداً بالكلام ليتفضّل عليه بالخروج، ولكنّه عجز عن أن يتقيّأ الكلام.



وبعد محاولةٍ جمعتُ بها شظايا نفسي وشتات تفكيري، بعد أن بعثرها هذا المنظر الغريب، حاولتُ اختراق عينيه لأطّلع على ما تختزنه نفسه من الأفكار بدون حاجةٍ إلى الكلام، فرأيتهما تطلّان على بئرٍ عميق تختلط فيها أنواع المياه وتسبح في أمواجها عديدٌ من الأسماك، ولو أنّني حاولت أن أغرق

---

(١) [كتب بتاريخ] الجمعة: ٧/ ١١/ ١٣٨١ = ١٣/ ٤/ ١٩٦٢ (منه قدس سره).

نفسي في هذا البئـر لجرفنـي تيّـاره ولأصـبحت وجبـةً شـهيّةً لأسـماكه. إذن، فلأحترس ولأحذر، ولأمتح[1] وأنا على حافّة البئر دلواً دلواً.

برقت عينـاي وعلـت وجهـي ابتـسامةٌ جامـدة، وأظهـرتُ في نظـراتي السرور والاطمئنان، لعلي آكل وجبةً من لحم السمك المقليّ، الذي لا يعدو أن يكون خبيثاً نتناً ولكنّي سأبتلعه على كلّ حال، وبعـد أن أمطرتـه طـلاً خفيفـاً سرت في جسمه ظلال الطمأنينة، وارتعد رعدةً خفيفة.

وفي غمرة كان فيها رأسه مدلّىً أمامه، ويـداه معقودتـان وراءه، وظهـره محدودبٌ كالهلال، ارتفع بوجهه قليلاً، ووجّه نحوي نظرةً متواضعة.

ثُمَّ أخذ الماء يتدفّق من خرم صغير، وحينئذٍ أحسستُ بحرارتـه تكـوي بدني، إنَّه ماءٌ قد بلغ درجة الغليان. ليت شعري كيف تعـيش فيـه الأسـماك؟ ولكنّني ابتلعت ريقي وخنقت ما كاد يطفح من عاطفتي، وتكلّفـت الابتـسام وأصخت السمع.

وبدأ الماء يتزايد وحرارته تتزايد، وبدأت الدموع تنهمر من عينيه ويـداه تتحرّكان يميناً وشمالاً، وإلى فوق وإلى أسفل، ووجهـه يـستدير إلى كـلِّ جهـةٍ وهو يشرح ما حلّ به من البلاء، طالباً أن أغسل وَبَـرَه بالمـاء والـصابون، وأن أحرث حقله المجدب وأزرعه.

وقد وجدتني حينئذٍ مقيّداً بسلاسل من الضرورة ومن الألم، ودار ذهني في مختلف الآفاق، والتطمت الأمواج في رأسي، حتّى كادت تغرقني، ولكنّ ألم الحريق أرجعني إلى انتباهي وعرّفني بمكاني. لقـد وجـدتني قـادراً عـلى قتـل الأسماك التي عاثت في نفس هذا المسكين الفساد، وحـرث حقلـه الـذي أتـى

(١) متح البئر: انتزع ماءها.



عليه الجفاف، فلماذا لا أفعل؟

وما إن حدّدتُ موقفي حتّى دحرجتُ من فمي شيئاً من الكلام الذي حاولتُ أن يكون بارداً جميلاً، تهدأ به نفسه، ويأنس به نظره، وفي غمرةٍ من يأسه ورجائه، وألمه وأمله، مدّ نحوي يداً باردة يريد شكري على ما وعدته من الخير وما أديّته من الجميل، ومددتُ نحوه يداً حاولتُ أن أشعره بحرارتها، وسرتْ بينهما حركة، ثُمَّ ودّع وانصرف.

(٢)

بعد انقضاء أيّامٍ أنستني غمرة الأعمال خلالها عدّتها، كنتُ فيها نهباً للعمل المضني في قطع شراك ذلك المسكين ورأب صدعه، سمعتُ طرقاً يحوم حول باب الدار، وكانت عدّة طرقاتٍ قويّةٍ رتيبة، وكنت بعدها أحاول فتح الباب.

وسادت فترة سكونٍ، طاف نظري خلالها بهذا الصنم العتيد الماثل بفم الدار، وتبادلنا النظرات، فوجدته ينظر إليّ كأنَّه ناظرٌ إلى حبّةٍ من الخردل، بعد أن عانى منه الشيء الكثير، ومن منخريه تسرّب السلام ووصل متهادياً إلى أُذني، فصكّها صكّاً، وكان الجواب - على رغمي - جافّاً متكلّفاً.

ثُمَّ مدّ نحوي ببطءٍ وتكبّر، يداً جامدةً غليظة، وبادلته المصافحة مبادلةً حاولتُ أن تظهرَ بأجمل ممّا رأيتُ منه.

وبدون أيّ استئذانٍ دخل الدار، واختار مقعده، ثُمَّ تهالك عليه كأنَّه قرد عجوز. وبعد مدّة عزّ عليه فيها أن يكلّمني، برزت الكلمات من فمه بطيئةً ثقيلة، كأنَّه ينحتها من جبل، وكان أن تقيّأ هذه الكلمات: إنَّني أشكرك رغم أنَّك لم تعمل من أجلي إلَّا الشيء اليسير، وبالرغم من أنَّ عملك كان ناقصاً

ومخطئاً، وإنّما أنا الذي أكملته وأنا الذي ضـمنت خروجي مـن الـبلاء، وأنـا الذي أصلحتُ ما أفسدتَه بيديك. ولكنّي أشكرك على كلِّ حال.

وحملقتُ في وجهه متفرّساً، وسرتْ في بدني رعـدةٌ خفيفـة، إنَّـه هـو لا شكّ في ذلك، ولكنّه قد أصبح شخصاً آخر بفضل مجهودي الضائع. فسبحان محوّل الأحوال.

محمّد الصدر





نظرات سريعة
في
كتب خمسة

أبحاث موضوعيّة عميقة
في كلٍّ من الكتب الآتية

١. «مسرح المجتمع» لتوفيق الحكيم.

٢. «مذكّرات[1] نائب في الأرياف» له أيضاً.

٣. «النقد الأدبي أُصوله ومناهجه» لسيّد قطب.

٤. «مع أبي العلاء في سجنه» لطه حسين.

٥. «ابن الرومي حياته من شعره» لعباس محمود العقّاد.

---

(١) كذا في الأصل، واسم الكتاب (يوميّات نائب في الأرياف).

النظرة الأولى

نظرة في (مسرح المجتمع)

إنَّ نظرةً حقيقيّةً عميقةً في (مسرح المجتمع)[1] فيهـا كثيرٌ مـن العسر



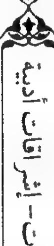
(١) للكاتب والأديب المصريّ توفيق الحكيم (١٨٩٨-١٩٨٧م)، وهو من روّاد الرواية والكتابة المسرحيّة العربيّة، ومن الأسماء البارزة في تاريخ الأدب العربي الحديث، كانت مسرحيّته «أهل الكهف» في عام ١٩٣٣م حدثاً هامّاً في الدراما العربيّة، فقد كانت تلك المسرحيّة بدايةً لنشوء تيّارٍ مسرحيّ عُرف بالمسرح الذهني؛ لصعوبة تجسيدها في عملٍ مسرحيّ. وهو يُعدّ أوّل مؤلِّف استلهم في أعماله المسرحيّة موضوعاتٍ مستمدّةً من التراث المصريّ عبر عصوره المختلفة، سواء أكانت فرعونيّة أو رومانيّة أو قبطيّة أو إسلاميّة.

ولد توفيق إسماعيل الحكيم - والذي اشتهر باسم (توفيق الحكيم)- في ٩ أكتوبر ١٨٩٨، لأبٍ مصريّ من أصلٍ ريفيّ يشتغل في سلك القضاء في قرية (الدلنجات)، إحدى قرى مركز إيتاي البارود بمحافظة البحيرة، ولأُمٍّ تركيّة أرستقراطيّة. التحق بمدرسة دمنهور الابتدائيّة حتّى انتهى من تعليمه الابتدائي ، ثُمَّ ألحقه أبوه بمدرسة حكوميّة في محافظة البحيرة حيث أنهى الدراسة الثانويّة.

انتقل إلى القاهرة لمواصلة الدراسة الثانويّة في مدرسة محمّد علي الثانويّة، وحصل على شهادة الباكالوريا عام ١٩٢١م، انضمّ إلى كليّة الحقوق ليتخرّج منها عام ١٩٢٥م.

تُرجمت له أعمال كثيرة ونُشرت بالفرنسيّة والإنجليزيّة والأسبانيّة.

تقلّد العديد من المناصب، ونال أرفع الجوائز: قلادة الجمهوريّة عام ١٩٥٧م، وجائزة الدولة في الآداب عام ١٩٦٠م، ووسام الفنون من الدرجة الأُولى، وقلادة



والحرج، وأمّا النظرة السطحيّة فلا تعدو أن تكون جافّةً وتافهة.

ولكنّ نظرتي هذه على الكتاب لن تقتصر على الظواهر والسطوح، ولكنّها أيضاً لن تكون مفصّلةً وطويلة، فهي لن تطول عن بعض صفحات.

لقد استطاع مؤلِّفه الأديب أن يصوّر بصورةٍ دقيقةٍ وعميقةٍ وبأسلوبٍ جذّابٍ طريفٍ، جهاتٍ عديدةً من جهات المجتمع، وطبعاً لا يقصد منه إلَّا المجتمع المصريّ بالذات، المجتمع الذي ترعرع فيه ونما، وترعرع فيه قلمه- أيضاً- ونما.

لقد استطاع أن يعبّر مؤلِّفه بدقيق التصوير وجميل التعبير، استطاع أن يشرح لنا بخياله الخصب وفكره النقّاد وقلمه السيّال، جهاتٍ تعطينا من العبرة أمراً عظيماً، ومن العظمة شيئاً كثيراً، ممّا يقسرنا أو يقسر المجتمع المصريَّ- على الأقلّ- على التفكير في حالهم وتدبّر أخلاقهم. ولكنّه -على كلِّ حال- حريٌّ وذو قابليّة أن يكون عِظَةً للمتّعظين وتبصرةً للمبصرين على وجه هذه الكرة الأرضيّة، فمهما تغايرت طبائع الناس لن تتعدّى قدراً مشتركاً بينهم موجوداً بصورةٍ مركّزة في هذا الكتاب.

فليس إذن (مسرح المجتمع) مجرّد تسلية تفزع إليها للترفيه وقتل الوقت

النيل عام ١٩٧٥م، والدكتوراه الفخريّة من أكاديميّة الفنون عام ١٩٧٥م.

أُطلق اسمه على: فرقة مسرح الحكيم في عام ١٩٦٤ وحتّى عام ١٩٧٢، ومسرح محمّد فريد اعتباراً من عام ١٩٨٧م.

توفّي توفيق الحكيم في ٢٧ يوليو سنة ١٩٨٧م عن عمرٍ بلغ تسعين عاماً، وترك تراثاً أدبيّاً رفيعاً وثروة هائلة من الكتب والمسرحيّات التي بلغت نحو ١٠٠ مسرحيّة و٦٢ كتاباً. راجع كتاب توفيق الحكيم (لإسماعيل أدهم وإبراهيم ناجي).

في قراءةٍ قد تعتقدها غير مجديةٍ وغير نافعة.

بل إنّه يحتوي إلى جانب تسليته الشيِّقة ونكتته الظريفة، على جانبٍ عظيمٍ من دقيق التصوير وحصيف التفكير، فقد جاء هذا الكتاب سهماً موجَّهاً إلى قلب أوضاع مجتمعه الفاسدة وعاداته الكريهة التي تتمشدق بها طغمته الحاكمة حينئذٍ، وحفنةٍ من أذنابها، بزَهوٍ وجبروتٍ على الجمّ الغفير من العمّال والكادحين؛ لتمتصَّ دماءهم وتستنزف جهودهم.

وقد جاء الكتاب أيضاً سهماً موجّهاً إلى بعض العادات الفاسدة والطبائع المعوجَّة والطرق الرخيصة التي يتبنَّاها بعض الأشخاص في سبيل تنفيذ أغراضهم الضيّقة والوصول إلى مآربهم الدنيئة، فأشعرهم بخِسَّتِها ووضاعتها؛ لعلّهم يحاولون السير في طريق النور، والتَّنكُّب عن جادّة الظلمة والفساد.



ولكنّه – مع الأسف– لم يسرد في هذا الكتاب بين سؤالٍ وجواب وقيل وقال إلّا مساوئ المجتمع ومفارقاته، وسوء عادات أهله وأعضائه، أمّا الجهات الجليلة الجميلة اللامعة البرّاقة فقد عافها، وأشاح بوجهه عنها، لماذا؟.. طبعاً الجواب معروف، وهو أنَّ أيّ إنسانٍ نظرتَه لا تجد فيه إلّا النظر إلى الجانب الأسود من حياة الآخرين إن لم تكن حياته هو أيضاً، فالزلَّة والخطأة هي التي تبقى راسخةً في الذهن، أمّا الحسنات فتذهب أدراج الرياح إذا تناقضت مع تلك الزلَّة، فكأنَّ السيِّئات هي التي تُذهِبُ الحسنات ولا العكس.

فمهما كان للمجتمع من فضائل وحسناتٍ، وحضارةٍ وتقدُّمٍ ورُقِيّ، فإنّها تُقْذَف كالكرة بعيداً، إذا كان هناك شيءٌ في المجتمع يسمّى: إيماناً بالجنّ

(ت: ١٢)[1][2]، أو اعتقاد بأخذ الثأر (ت: ٢١)[3]، أو امرأة موظّفة، لا يمكنها الجمع بين البيت والدائرة (ت: ٣)[4]، أو رجل يؤدّي به حبّ المال إلى قتله(ت: ٦)[5].

وقد اقتصر في الأعمّ الأغلب على هذا النوع من التمثيليّات النقديّة، ولكنّنا قد ننظر نظرةً فاحصةً في الكتاب، فنرى عرضاً لصفحةٍ من الدفاع المقدّس عن الوطن في (ميلاد بطل ت: ٥)[6]، وصفحةٍ من الفلسفة الإلهيّة التي تُؤمن بوجود البارئ عزّ وعلا، وبأنّه عالمٌ بالحاضر والماضي والمستقبل على حدٍّ سواء، وأنَّ العباد مخيَّرون في أعمالهم لا مسيَّرون، وذلك في تمثيليّة (المخرج ت: ٩)[7].

وقد استعمل المؤلِّف في هذا الكتاب خياله وطارَ بهِ في جَوِّهِ الهادئ

(١) ت = تمثيليّة (منه قدّس سرّه).

(٢) راجع مسرح المجتمع: ٣٤٥، وما بعدها، (١٢) من وحي المعتقدات الشعبيّة، بيت النمل، تمثيليّة في فصلٍ واحد.

(٣) راجع مسرح المجتمع: ٧٦٣، وما بعدها، (٢١) من وحي العادات الريفيّة، أغنية الموت، قصّة تمثيليّة في فصلٍ واحد.

(٤) راجع مسرح المجتمع: ٦٣، وما بعدها، (٣) من وحي الحركة النسويّة، النائبة المحترمة، تمثيليّة في منظرين.

(٥) راجع مسرح المجتمع: ١٢٣، وما بعدها، (٦) من وحي رجال الأعمال وصراع الأجيال، اللّص، قصّة تمثيليّة في أربعة فصول.

(٦) راجع مسرح المجتمع: ١٠٧، وما بعدها، (٥) من وحي حرب فلسطين، ميلاد بطل، تمثيليّة في منظرين.

(٧) راجع مسرح المجتمع: ٢٧٧، وما بعدها، (٩) من وحي السينما والدين، المخرج، قصّة تمثيليّة في فصلٍ واحد.

وقد استعمل المؤلِّف في هذا الكتاب خياله وطارَ بهِ في جَوِّهِ الهادئ الواسع، مستنشقاً من نسيمه ومتقلِّباً في نعيمه، فظهرت لنا من تحت قلمه قصص جميلةً وحوادث لطيفة، حاول أن يمثِّل بها المجتمع فيجعل أبطالها كأنَّهم أعضاء فيه، وأقوالهم كأنَّها صادرة عنه، ولكنّها- ومهما يكن من أمر- لا تمثّل، ولا يمكن أن تمثّل، إلَّا خياله الخصب وفكره الرَّحب.

وقد مَثَّلَ المؤلِّف في هذا الكتاب الأدب التمثيليّ بأروع صورِه، وعرضه بأزهى أشكاله، متَّخِذاً له صوراً مركَّزة، وأفكاراً محدَّدة، لا حائرةً ولا مردَّدة. يلوكُ قلمه المعاني كأنَّها لقمةٌ سهلةٌ، أو عجينةٌ سلسةٌ، أو طينةٌ رطبةٌ، هدفه الأسمى في كلِّ تمثيليّةٍ هو أن يؤدّي المغزى حقّه، ويؤدّيه إلى سامعه معزَّزاً بالحجج، مدعَماً بالبراهين.

ولذا فقد انقادت المعاني بين يديه، وانسابت أمام عينيه، يتصرَّف بها كما يشاء أن يتصرَّف، ويفعل كما يحلو له أن يفعل. فنجده يُحبك خيوط القصّة كما يريدها أن تُحبَك، وينسجها كما يشاء أن تُنسَج، بحيث تنسجم في أن يظهر المغزى الذي يريده في آخر لحظةٍ من قراءتها.

وهذا ممّا يجعل تمثيليّته مجرّد قصّةٍ فلسفيّة، لا يمكن أن تحدث في الحياة الاعتياديّة إلَّا على أيدي الممثّلين السينمائيّين؛ وذلك لأنَّ هذه الحياة التي نعيشها لا تنطبق إلَّا مع هذا البيت[1]:

ما كلُّ ما يتمنّى المرء يدركُهُ ... تجري الرياح بما لا تشتهي السّفن

---

(١) هذا البيت لأبي الطيّب المتنبّي، راجع نهاية الأرب في فنون الأدب (للنويريّ) ٣: ١٠٥.

وهذا ممّا لا ينطبق وواقع هذه التمثيليّات كما مضت الإشارة إليه.

وليس في أغلب حياتنا التي نحياها معنىً ولا مغزى، أو لا مغزى لها على الأقلّ، فأيّ فصول حياتنا تحدَّدت أقواله وتميّزت أفعاله، بحيث يظهر لنا منها في الأخير ما يسمّى (المغزى)؟

وهذا ممّا لا يحدث إلَّا نادراً في تاريخ البشريّة، فإن كان الأُستاذ المؤلِّف قصد هذه الحالات الشاذَّة، فلماذا فرض كتابه على أنَّه (مسرح المجتمع)؟

وإن كان قصد الحوادث الاجتماعيّة والأخلاق الاعتياديّة، فقد ظهر ممّا قلنا سابقاً: بأنَّ هذه أحوال شاذَّةٌ لا يقاس عليها.

يخرج من ذلك، التمثيليّات التي لا مغزى لها، وإنَّما يقصد منها معناها فقط، مثل تمثيليّة (اللصّ)[1]، والتمثيليّات التي يُعرَف مغزاها من منطوقها، مثل: (العشّ الهادئ)[2]، و(الرجل الذي صمد)[3]، و(أعمال حرّة)[4].

ونحن قد نرى أنّنا حين نعيش جلسةً واحدةً في حياتنا اليوميّة مع شخصٍ غريب علينا، يمكن لنا أن نعرفه وأن نفهمه. ولكنّك إذا قرأت - مثلاً -

---

(١) راجع مسرح المجتمع: ١٢٣، وما بعدها، (٦) من وحي رجال الأعمال وصراع الأجيال، اللّص، قصّة تمثيليّة في أربعة فصول.

(٢) راجع مسرح المجتمع: ٤٧٣، وما بعدها، (١٧) من وحي الحياة الفنيّة، العشّ الهادئ، قصّة تمثيليّة في أربعة فصول.

(٣) راجع مسرح المجتمع: ٦١٥، وما بعدها، (١٩) من وحي تيّار المجتمع، الرجل الذي صمد، قصّة تمثيليّة في فصلٍ واحد.

(٤) راجع مسرح المجتمع: ٣٦٣، وما بعدها، (١٣) من وحي الأداة الحكوميّة، أعمال حرّة، قصّة تمثيليّة في فصلٍ واحد.

الفصل الرابع وحده (من وحي المجتمع والعلم الحديث)[1]، فهو وإن كان شيّقاً أكثر من سوابقه لمَن ألَمَّ بالقصّة من أطرافها، ولكنّه لا يمكنك أن تفهم منه إلّا الشيء النزر القليل إذا قرأته مستقلاً عن فصوله الثلاثة السابقة؛ لأنّه مرتبطٌ بها ربطاً محكماً، ومشدودٌ إليها شدّاً وثيقاً.

ولكنّ المفروض- إذا كانت هذه التمثيليّات تُمثِّل الحياة وتنطبق على الواقع- أن لا يعدو أيّ فصلٍ من فصولها إلّا أن يكون كجلسةٍ نجلسها مع أيِّ شخصٍ غريب.

وممّا يخرج بها أيضاً عن التصوير الواقعيّ لحياة الإنسان المألوفة ومعيشته الاعتياديّة، شيئان مهمّان لاحظتها على هذه التمثيليّات، أمّا أحدهما فتتّصف به جملةٌ منها:

وهو الأُسلوب الذي يسرد به المكالمات التلفونيّة التي قد تقع بين أبطال الرواية، فيجعل كلام الطرف الذي يذكره في التمثيليّة واضحاً ومفهوماً، مع أنّنا نجد أنّنا إذا أصغينا إلى أحد طرفي المكالمة التلفونيّة وليس لنا سابق عهدٍ بفحواها، فسوف لن نفهم منها إلّا الشيء القليل، بل قد لا يزيد بعضهم على تكرار ألفاظ الإيجاب أو السلب على مدى المكالمة.

وهو مُضطرٌّ إلى ذلك اضطراراً للضرورة التي تُلجِئُهُ إلى تفهيم فحوى المكالمات التلفونيّة بين أبطال روايته لدى القارئ.

أمّا الثاني، فهو خاصٌّ بتمثيليّة (لو عرف الشباب)[2]، حيث سرد فيه

---

(١) راجع مسرح المجتمع: ٦٤١، وما بعدها، الفصل الرابع، (٢٠) من وحي المجتمع والعلم الحديث، لو عرف الشباب، قصّة تمثيليّة في أربعة فصول.

(٢) المصدر السابق.

حلماً طويلاً لأحد الشيوخ العاجزين، رأى فيه أنّه قد تفتَّحت في نفسه زهور الشباب، وتمشَّت به روحه اليانعة، بفضل دواءٍ له هذه الخاصيّة العجيبة.

والعادة تقضي بأن يكون الحالم موجوداً على مدى الحلم؛ لأنّه هو صاحب الحلم، وهو الذي يرى وهو الذي يتخيَّل، أمّا أنَّ الحلم تجري حوادثه والحالم غير حاضر، كما حدث في الصفحات الأُولى من الفصل الثالث من هذه الرواية[1]، فهذا ممّا لا يمكن حدوثه في الحياة الاعتياديّة.

ونحن نستطيع أن نُقسِّم تمثيليّات الكتاب الإحدى والعشرين من حيث إصلاحها للفاسد وتقويمها للمعوجّ، إلى ثلاثة أقسام:

فهي إمّا أن يُقصَدُ منها إصلاح عيبٍ وخللٍ اجتماعيّين، أو شخصيّين، أو أنّه لا يُقصَد منها إصلاح أيّ عيبٍ أو خلل.

ونستطيع أن نستنتج من بين القسمين الأوّلَين قسماً رابعاً مركَّباً، وهو عيب يظهر لأوّل وهلةٍ للعيان على أنّه عيبٌ شخصيّ، ولكنّه بلحاظ أنَّ المرتكبين له ذوو عددٍ وكثرة في المجتمع، كان عيباً اجتماعيّاً.

فأمّا التمثيليّات التي تصف العيوب الشخصيّة:

فمثل (أُريد أن أقتل ت: ٢)[2]، و(الحبّ العذري ت: ١٥)[3]،

---

(١) راجع مسرح المجتمع: ٧٠٦، وما بعدها، (٢٠) من وحي المجتمع والعلم الحديث، لو عرف الشباب، قصّة تمثيليّة في أربعة فصول، الفصل الثالث.

(٢) راجع مسرح المجتمع: ٣٥، وما بعدها، (٢) من وحي الطبائع البشريّة، أُريد أن أُقتل، قصّة تمثيليّة في فصلٍ واحد.

(٣) راجع مسرح المجتمع: ٤١٥، وما بعدها، (١٥) من وحي النماذج البشريّة، الحبّ العذريّ، قصّة تمثيليّة في فصلٍ واحد.

و(ساحرة ت: ١٤)[١]، و(عمارة المعلّم كندوز ت: ١٠)[٢].

وأمّا التي تصف العيوب الاجتماعيّة، فمثل: (الجياع ت: ١٦)[٣]، و(أغنية الموت ت: ٢١)[٤]، و(بيت النمل ت: ١٢)[٥]، و(مفتاح النجاح ت: ١٨)[٦].

وأمّا التمثيليّات التي يُقصَد منها وصف عيوب شخصيّة اجتماعيّة ومن ثَمَّ السعي إلى إصلاحها: فمثل (أصحاب السعادة الزوجيّة ت:٤)[٧]، و(بين يوم وليلة ت: ١)[٨]، و(النائبة المحترمة ت: ٣)[٩]، و(أعمال حرّة ت: ١٣)[١٠].

وأمّا التي لم تتعرّض لأيّ عيبٍ أو خلل، فإمّا أنَّ المؤلِّف قد ذكرها وهو في



(١) راجع مسرح المجتمع: ٣٨٧، وما بعدها، (١٤)، من وحي الحوادث الجارية، ساحرة، قصّة تمثيليّة في فصلٍ واحد.

(٢) راجع مسرح المجتمع: ٢٩٩، وما بعدها، (١٠) من وحي أخلاق الحرب، عمارة المعلّم كندوز، تمثيليّة في فصلٍ واحد.

(٣) راجع مسرح المجتمع: ٤٤٧، وما بعدها، (١٦) من وحي الحياة العصريّة، الجياع، تمثيليّة في فصلٍ واحد.

(٤) راجع مسرح المجتمع: تقدّم تخريجها.

(٥) راجع مسرح المجتمع: تقدّم تخريجها.

(٦) راجع مسرح المجتمع: ٥٩٣، وما بعدها، (١٨) من وحي الأخلاق والوصوليّة، مفتاح النجاح، قصّة تمثيليّة في فصلٍ واحد.

(٧) راجع مسرح المجتمع: ٨٥، وما بعدها، (٤) من وحي الحياة الزوجيّة، أصحاب السعادة الزوجيّة، تمثيليّة في فصلٍ واحد.

(٨) راجع مسرح المجتمع: ٩، وما بعدها، (١) من وحي أخلاق المجتمع، بين يوم وليلة، قصّة تمثيليّة في منظرين

(٩) تقدّم تخريجها.

(١٠) تقدّم تخريجها.

سياق ذكر فضيلةٍ من الفضائل الاجتماعيّة، فهي مثل: (ميلاد بطل ت: ٥)[1]، و(الرجل الذي صمد ت: ١٩)[2]، أو أنّها مجرّد حادثة قد تقع في المجتمع لها معناها ومغزاها، فمثل: (المُخرِج ت: ٩)[3]، و(لو عُرِفَ الشباب ت: ٢٠)[4]، و(اللصّ ت: ٦)[5]، و(العشّ الهادئ ت: ١٧)[6].

وحرصاً على استيعاب جميع التمثيليّات، لابدَّ لنا أن نذكر أنّه بقي ممّا لم نذكر منها ثلاثة: (أُريد هذا الرجل ت: ٧)[7]، و(عرف كيف يموت ت: ٨)[8]، و(الكنز ت: ١١)[9]، وفي الحقيقة أنّني لم أستطع أن أتبيّن رأي المؤلّف في المغزى الذي تدلّ عليه، أيراه خيراً أم يقصد منه سوءاً؟

فلذا لم أستطع إلحاقها بأيّ واحدٍ من الأقسام الأربعة السابقة.

وقد نرى أنّ الأُستاذ المؤلّف أدخل في رواياته أشخاصاً أنعم عليهم

---

(١) تقدّم تخريجها.

(٢) تقدّم تخريجها.

(٣) تقدّم تخريجها.

(٤) تقدّم تخريجها.

(٥) تقدّم تخريجها.

(٦) تقدّم تخريجها.

(٧) راجع مسرح المجتمع: ٢٣٥، وما بعدها، (٧)، من وحي حرّية المرأة، أُريد هذا الرجل، تمثيليّة في فصلٍ واحد.

(٨) راجع مسرح المجتمع: ٢٥٣، وما بعدها، (٨)، من وحي الصحافة والسياسة، عرف كيف يموت، قصّة تمثيليّة في فصلٍ واحد.

(٩) راجع مسرح المجتمع: ٣٢٣، وما بعدها، (١١) من وحي المال والحبّ، الكنز، قصّة تمثيليّة في فصلٍ واحد.



بلفظ (البك)، أو (الباشا) في تمثيليّاتٍ متعـدّدة[1]، وبَـوَّأهم المناصـب العاليـة والأموال الطائلة. وقد كدتُ أن أنسبه إلى الخطأ لولا علمي بما تـستتبعه هـذه الارستقراطيّة السوداء من تَفسُّخٍ وتَرَهُّلٍ في حياة أصحابها الداخليّة، وعظمـةٍ وتكبُّرٍ على الأغلبيّة الساحقة من النـاس، يـستثمرون جهـودهم، ويمتـصُّون عرق جبينهم ونقود جيوبهم، ثُمَّ لا يكون لهـؤلاء المـساكين مـا يمـسكون بـه رمقهم أو ما يقيهم حرّ الصيف وبرد الشتاء، فضلاً عن الحياة الحرّة الكريمة.

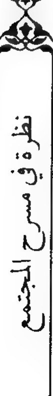
ونحن إذا نظرنا إلى جوّ الكتاب التأريخي الذي صـدر فيـه ومـا كـان في زمنه الفاروقي البغيض، من مفارقاتٍ كثيرة، وجرائم شـنيعة، تُرتكَـب بحـقِّ هؤلاء البؤساء، نجد كيف أنَّ الكتاب جاء في الحقيقة والواقع ثورةً على أُمـورٍ متعدّدة، ومفاسد مستشرية، مـن تَـضَخُّم الألقـاب والأمـوال، والـتَّحَكُّم في رقاب الناس.

والواقع أنَّ كلَّ هذه التمثيليّـات (الحكيمـة)، هـي نمـوذجٌ مـن نـماذج الأدب الرفيع، وفضيلة من فضائل القلم الـحُرّ المجيد!...

الجمعة ٣٠/ ١٢/ ١٣٧٩= ٢٤/ ٦/ ١٩٦٠م

محمّد الصدر

النجف – العراق



(١) كما في تمثيليّة اللصّ، وعرف كيف يموت، والحبّ العذري، وغيرها.

النظرة الثانية

نظرة في (مذكرات[1] نائب في الأرياف)[2]

إنَّ النظرة الحقيقيّة العميقة التي نطلقها بهدوءٍ وسكون على هذا الكتاب العجيب وعلى أدبه العامِّيّ اللّطيف، هذا الكتاب الجائش بالصرامة، الثائر على الظلم والطغيان، المتحدّي لأوضاع المحاكم والحكّام...

لتعطينا رغم هدوئها وسكونها، ورغم جبينها الرطب وأهدابها الذابلة، العِبرةَ تلو العِبرة، والعِظَة تلو العظة، والذكرى تلو الذكرى؛ لأنّنا ننظر من خلال هذه المذكّرات إلى فجائع الظلم والطغيان، وإلى اضطهاد الشعب الساذج الآمن، وإلى قتل العدل والإنصاف بالجملة على مسرح محاكم تلك البلاد.

ونرى شرحاً مفصَّلاً لهذا الريف البائس القابع في زاويةٍ من زوايا البلاد، أو في منطقةٍ من هذا البرّ اللانهائي.

فنرى كيف أنَّ الحكّام المستبدّين يُمهِّدون في ذلك الريف الآمن الوادع، للجريمة طريقاً لاحباً مهيعاً، يدخله القرويّ البائس، مُندفعاً فيه اندفاعاً، ومُضطرّاً إليه اضطراراً.

فنحن لا نرى لسلب أموال هذا الشعب واستثمار جهوده وغمط

(١) كذا في الأصل، واسم الكتاب (يوميّات نائب في الأرياف).

(٢) للكاتب والأديب المصري توفيق الحكيم. وقد تقدّمت ترجمته.

حقوقه على حساب حفنةٍ من الحكّام الجائرين والطغاة المستبدّين، نتيجةً سهلةً سائغة، ولا نهايةً مُوجعةً بائسةً إلَّا الجوع، وإلَّا فقدان لقمة العيش التي هي رمز البقاء على مسرح هذه الحياة.

ونحن أيضاً لا نرى للجوع هذه الآفة الكبرى وهذه الطامَّة العظمى التي يكيلها هؤلاء الحكّام الذين لا يملكون مسكةً من ضمير، ولا شعاعاً من عدلٍ أو إنصافٍ، على هذا الشعب البائس المسكين نتيجةً سائغة، كأموال الشعب الجائع في بطون حكّامه، إلَّا الجريمة.

هذه الجريمة التي يندفع الجائع المسكين إليها اندفاعاً، ويضطرّ إلى ارتكابها اضطراراً؛ لأنَّه يملك جوفاً خالياً يُلِحُّ عليه أن يملأهُ ولو بكسرة خبز يابسةٍ أو بلحم مِيتةٍ عَفِنَة، وهو بدوره أيضاً لا يملك حتّى هذه الكسرة أو هذه الميتة، فيضطرّ إلى السطو على أموال غيره من الناس؛ ليُسكِت إلحاح هذا الجوف الخائر، ويطفئ جذوة هذا الجوع البائس، وفي ذلك قد قال أبو ذرٍّ عليه الرحمة والرضوان: (عجبتُ لمَن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه)[1].

ثُمَّ إنَّنا لا نجد نتيجةً لهذه السرقة، التي هي في واقع أمرها في منتهى التحفُّظ، إلَّا ابتزاز الأموال من جيوب هؤلاء المتَّهمين الجائعين، الماثلين أمام محاكم الجور والفساد؛ وذلك لأنَّ التُّهَم تُرشَق بهم بدون أيّ حجةٍ أو دليل، ويستمعون إلى الحكم بغرامة خمسين قرشاً بدون أيّ دفاعٍ أو احتجاج.

(١) هذه المقولة من المقولات المشهورة عن الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري، ويبدو أنَّها غير واردة في المصادر المتقدّمة، وإنَّما اشتهرت نسبتها إليه على ألسنة المتأخّرين، فراجع مثلاً: في ظلال نهج البلاغة ٤: ٢٨٣.



ونحن نستطيع أن نَتبيّن الوَقع العظيم لهذه الخمسين في نفس هذا القرويّ البائس، الذي صوَّرها لنا بقوله: (خمسين قرش! وحياة راسك أنا ما وقعت عيني على صنف النقديّة من مدّة شهرين)[1].

فهو إذن، ويا للبؤس والشقاء، لم يَرَ النقود التي هي رمز الحياة وسرّ البقاء بأمّ عينيه منذ شهرين قد تَصرَّمَا عليه بالجوع والفقر والمرض.

ولكن هل ترى إلى أين سوف تعود هذه الخمسين التي ودّعت صاحبها حين ودّعته السعادة والهناء وطيب العيش؟!

إنّها ستعود إلى المكان الذي عادت إليه أموال الكادحين وأعمال العاملين، من جيوب تلك الطغمة الفاسدة من الحكّام الـمُستبدِّين والخَوَنة الجائرين.

إذن، فقد رجعت الحلقة الدائرة إلى أوّل دورها، حيث سيضطرّ هذا البائس الفقير إلى ارتكاب الجريمة مراراً وتكراراً؛ ليعوِّض عن هذه القروش الخمسين التي ابتزَّتها منه هذه الطغمة الفاسدة ظلماً وعدواناً.

ثُمَّ إنَّه سوف يحاكَم أمامهم ويحاكَم، على كلِّ سرقةٍ، ويُحكَم عليه بدون أيّ تَدَبُّرٍ أو تَرَيُّث، في كلِّ محاكمة منها، بغرامة الخمسين قرشاً التي سوف تضطرُّه بدورها إلى السرقة مرةً أُخرى، وهكذا... .

وكان أَولى بهؤلاء الناس البَطِرين الجشعين أن يوفِّروا لشعبهم السُّبُل الحرّة الكريمة لكسب العيش وإطفاء جَذوة الجوع، وبذلك سوف تقبر إلى الأبد مسالك الجريمة وطرق الفساد.

ولن يكلّفهم ذلك سوى شيءٍ هَيِّن بسيط، هو الانصراف عن ابتزاز

---

(١) يوميّات نائب في الأرياف: ٥٦.

الأموال، والطمع بها في جيوب البائسين، فهذا وحده هو الكفيل بأن يُـجلِس القاضي على المنصَّة طول يومه نـائماً أو مـستيقظاً ولا يـرى وجـه أيّ مـتّهم أو متّهمة؛ لأنَّ كلّ فردٍ من أفراد هذا الشعب قد انصرف عن الجريمة إلى مـا هـو الأفضل وعن الرذيلة إلى ما هو الأحسن.

ويحسن بنا أن ننظر إلى هذه العبارة ونحن في مجالنا هذا، حيث يصوِّر لنا فيها موقع العدل والإنصاف من القلوب الغليظة والضمائر الـمُتَحَجِّرَة، حين يقول: (ذلك أنَّ «العدل» و«الشعب»... إلخ، كلمات لم يَزَل معناها غامضاً عن العقول في هذا البلد، كلـمات كـلّ مُهمّتهـا أن تكتـب عـلى الـورق وتُلقَـى في الخطب كغيرها من الألفاظ والصفات المعنويّة التي لا يحسّ لها وجود)[1].

ثُمَّ لا تكتفي هذه المذكّرات أن تشرح لنـا كيفيّـة الحكـم بالإعـدام عـلى العدل والإنصاف في هذه المحاكم القضائيّة الجائرة، بل إنَّنا نرى فيها أيـضاً إلى جنب هذه المآسي القضائيّة السوداء، مآسيَ أُخرى قد تكون أدهى منها وأَمَـرّ، هي مآسي الانتخابات ومهازل صناديق الاقتراع.

وكيف أنَّ هذا الشعب البائس القانط الذي يريـد رغـم جهلـه وقُـصْـر نَظَرِهِ أن يساهم بانتخاب من يُـمثّله في مجلس الأُمّة، يُحرَم قسراً بالحديد والنار من هذا الحقّ السائغ الطبيعيّ الذي وهبَتْه له لائحة حقوق الإنسان لهيئة الأُمم المتّحدة، وجميع القوانين الديمقراطيّة.



وهذا ما نراه واضحاً من كلام المأمور الذي يطلِقُهُ بوجه حَفنةٍ قذرةٍ من العُمَد، هذه الحفنة القذرة التي هي الحاكم المباشر للشعب، يـأكلون مـن مالـه ويتقلّبون في نعيمه: (فَتّح عِينـك يـا عُمْـدَة أنـت وهـو. مرشـح الحكومـة في

(١) يوميّات نائب في الأرياف: ١٤٦.

الانتخابات لازم ينجح، أنا نفضت يدي وأنتم أحرار! مفهوم؟

فأجابوا في صوت واحد: مفهوم يا حضرة البك)[1].

أمّا هؤلاء الشعب الذين يَتُوقون إلى الحريّة ويطالبون بالديمقراطيّة؛ ليطمئنّوا إلى ممثّليهم، وتَركَنُ إليهم نفوسهم، ويعرفون بهم مصيرهم، أمّا هؤلاء فهم المشاغبون الذين خاف منهم أحد العُمَد حين تلقّى ذلك الأمر الصارم فقال في تردُّد: (فيه يا جناب البك جماعة مشاغبين أقويا كلمتهم مسموعة)[2]، وطبعاً لا يمكن أن نتوقّع من هذا المأمور القذر غير التَّنكيل بهم وتشتيت شملهم، حين أجابه بشيءٍ من الشدّة والحزم (وقال له: المشاغبين اتركهم لي أنا !)[3].

ونرى أيضاً أنَّ أمثَلَهم طريقة، وأقربهم بزعمه إلى حريّة الانتخابات وديمقراطيّة الاقتراع، هو في الحقيقة والواقع، أبعدهم نظراً وأخبثهم ضميراً وأسقمهم وجداناً، فنراه حين يصف لنا طريقته في حريّة الانتخابات متمشدقاً، كأنّه يصف جنّةً من جنات النعيم، فيقول: (دي دايماً طريقتي في الانتخابات: الحريّة المطلقة، أترك الناس تنتخب على كيفها، لغاية ما تتمّ عمليّة الانتخابات، وبعدين أقوم بكلِّ بساطة شايل صندوق الأصوات وأرميه في الترعة، وأروح وأضَع مطرحه الصندوق اللي احنا موضّبينه على مهلنا)[4].

---

(١) يوميّات نائب في الأرياف: ٩٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

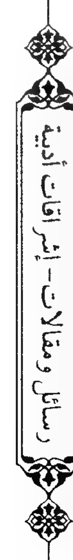
(٤) يوميّات نائب في الأرياف: ١٢٠.

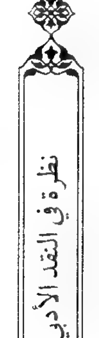
ومن هنا نرى المدى الذي بلغته الحياة الانتخابيّة في تلك الأرياف البائسة من التَرَدِّي والانحلال في ذلك العهد الفاروقيّ البغيض، الذي تتحكّم به الألقاب وتتصرّف به الأموال.

ولكنَّنا قبل أن نختم هذه النظرة السريعة، نريد أن نعرف هل انتهت مع ذلك العهد، في ذلك الريف المصريّ البائس، مآسي القضاء ومهازل الانتخابات، أم أنَّها لا تزال موجودةً لحدِّ الآن؟!...

الثلاثاء ٤/ ١/ ١٣٨٠هـ = ٢٨/ ٦/ ١٩٦٠م

محمّد الصدر







النظرة الثالثة

نظرة في (النقد الأدبي)

ها هي خيوط الضوء اللّامعة البرّاقة، التي ترسلها شمس (النقد الأدبي)[1] باسمةً مشرقةً في بُطءٍ ولِينٍ واسترخاء، كأنّها نائمةٌ على الأُفق تحلم

(١) لسيّد قطب إبراهيم حسين الشاربي (١٩٠٦ - ١٩٦٦م)، وهو أديب ومفكّر إسلاميّ مصريّ، ولد بقرية موشة بمحافظة أسيوط في صعيد مصر، وبها تلقّى تعليمه الأوّليّ وحفظ القرآن الكريم، ثُمَّ التحق بمدرسة المعلّمين الأوّليّة (عبد العزيز) بالقاهرة، ونال شهادتها والتحق بدار العلوم وتخرّج عام ١٩٣٣م. عمل بوزارة المعارف بوظائف تربويّة وإداريّة، انضمّ إلى حزب الوفد المصريّ لسنوات وتركه على أثر خلاف عام ١٩٤٢م. وابتعثته الوزارة إلى أمريكا لمدّة عامين وعاد عام ١٩٥٠م. وفي عام ١٩٥٠م انضمّ إلى جماعة الإخوان المسلمين، وحوكم بتهمة التآمر على نظام الحكم وصدر الحكم بإعدامه، وأعدم عام ١٩٦٦م.
مرّت حياة سيّد قطب في مرحلتين: مرحلة النشاط الأدبي، ومرحلة العمل الإسلاميّ. وقد بدأت الأُولى منذ كان طالباً بدار العلوم، فنشر العديد من المقالات النقديّة في المجلّات والصحف عن العقّاد والرافعي وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ، وجمع بعضها في كتابه (كتب وشخصيّات) (١٩٤٦م)، وكانت له معاركه النقديّة الحادّة، كما أصدر ديوان شعر بعنوان الشاطئ المجهول (١٩٣٥م)، وكتاب طفل من القرية (١٩٤٦م)، وهو سيرة ذاتيّة من وحي كتاب الأيّام لطه حسين. وفي هذه المرحلة أيضاً أصدر كتاب النقد الأدبي أُصوله ومناهجه (١٩٤٨م)، تميّز بالجمع بين الأصالة والمعاصرة، وفيه برزت بدايات نظريّته في كتابه في ظلال القرآن.

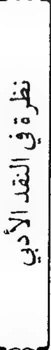


بذكرى ماضيها المشحون بالذكريات، المملوء بالغَثِّ والسَّمين، فقد رأت هذه الأشعّة التي لا تزال تتراقص على شفار الأُفق ولم تصعد في السماء إلَّا قليلاً، لقد رأت منذ العصور الأُولى وهي تمرُّ من خلال نفوس الأُدباء وقلوب الشعراء وأفكار الملهمين، مشاهد كثيرة، وجالت في عوالم متعدّدة، أطلعتنا فيها على جميل الكلام وقبيحِهِ، وحُلوِ اللفظِ ومُرِّهِ، ولطيف المعنى وسخيفِهِ.

ولكن هذه الشمس الناصعة الوهّاجة لا تزال في أوّل بزوغها، ولا تزال في مهدها تحتاج إلى ما يسبغه عليها أصحاب القلم والقريحة من العطف والرعاية، وما يُضفون عليها من الحبِّ والحنان؛ فإنَّ حنان الأبوين كلّما طابت ألفاظه ورَقَّت مشاعره، كلّما رَفَّت السعادة بجناحيها الوادعين على طفلهما الصغير المتلهّف للرعاية، المشتاق للحبِّ والحنان.

وفي المرحلة الأدبيّة ظهرت بواكير اهتماماته الإسلاميّة، فنشر مقالة التصوير الفنّي في القرآن في مجلّة المقتطف (١٩٣٩م)، ثُمَّ ما لبث أن عاد إلى الفكرة ذاتها، فاتّسع بها وأصدر: التصوير الفنّي في القرآن (١٩٤٥م)، ومشاهد القيامة في القرآن (١٩٤٧م)، وهما دراسة جماليّة بلاغيّة جديدة في الإعجاز البياني للقرآن.

وأمّا المرحلة الإسلاميّة، فقد جمعت بين العمل الإسلامي والكتابة الإسلاميّة، وفيها نشر كتاب في ظلال القرآن (١٩٥١ - ١٩٦٤م) في ثلاثين جزءاً، جمع فيه خلاصة ثقافاته الفكريّة والأدبيّة وتأمّلاته القرآنيّة العميقة، وآرائه في واقع العالم الإسلامي خاصّة، والأوضاع الإنسانيّة في العالم المعاصر. وكانت فكرة الظلال والقيم التعبيريّة ركيزةً هامّة في هذا الكتاب. كذلك أصدر طائفةً من الكتب الإسلاميّة ذات طابعٍ خاصّ، منها: العدالة الاجتماعيّة في الإسلام (١٩٤٩م)، والسلام العالمي والإسلام (١٩٥١م)، ومعالم في الطريق. وقد بلغت مؤلّفاته حوالي ستة وعشرين كتاباً. راجع كتاب سيّد قطب والأُصوليّة الإسلاميّة (لشريف يونس).



وقد كان (النقد الأدبي) عند أدباء القرون السالفة لا يقوم على قاعدة، ولا يخضع لمنهاج، ولا يَتَّسِمُ بتنظيم، وكان الذكيُّ الفَطِنُ من الأُدباء مَن يملك نَفْساً فَوّاحةً وفكراً يجول في مروج الخيال، ويغوص في بحار المعاني والألفاظ، هو الذي يستطيع أن يجعل نقده الأدبي في أيّ موضوعٍ من مواضيع العلم والعاطفة والحياة، مُرَكِّزاً على نقاطٍ معيّنة، سائراً على منهاجٍ مرسومٍ وطريق واضح مفهوم.

فكان لزاماً على شخصٍ بحّاثةٍ أديب، ونابغةٍ مُطّلِعٍ مثل الأُستاذ القطب، الذي كان سعيه في هذا الميدان محلّ كلّ شكر وتقدير، فكان لزاماً عليه أن يطرق هذا السبيل، ويحمل عن إخوانه هذا العِبْءِ الثقيل، ويَدلّهم على المنهل العذب والمنهج الصحيح والأُصول الثابتة في النقد الأدبي النَّزيه.

وقد أجاد وأبدع في وضع أُسُس النقد الأدبي في أُصول ومناهج لو اتُّبِعَت وطُبِّقَت على جميع تراثنا الأدبي الكبير لأضافت إليه تراثاً عظيماً وأدباً غزيراً.

ولعلّ الأُستاذ المؤلّف أوّل مَن طَرَقَ هذا الباب على هذا النحو من الدقّة والتنظيم، وكلّف نفسه هذا العمل الشاقّ الـمُتعِب، فلذا قد ظهر على كتابه مسحةٌ من الضَّعْف؛ لأنَّ الفنّ أو العلم إن لم تتناوله أيدي الباحثين بالبحث والتدقيق، وتكثر حوله البحوث والكتب وتتعدّد حوله النظريّات، لا يمكن أن يشتدّ ساعده ولا أن يقوى ظهره. ونرى هذا الضعف عندما نقرأ الكتاب، فلا نجد إلّا رأي المؤلّف في مجموع هذا الكتاب، سوى نظريّات متفرّقة وآراء مبعثرة أشار إليها إشارةً طفيفة ثُمَّ كَالَ عليها كمّيّةً من (النقد الأدبي)! حيث ذهبت بعدها أدراج الرياح.

ومما يستلفت النظر في أحد آرائه الفَذَّة، ويبعث على العُجب والتساؤل قوله: (فالشاعر الذي يصلنا بالكون الكبير، والحياة الطليقة من قيود الزمان والمكان، بينما هو يعالج المواقف الصغيرة، واللحظات الجزئيّة والحالات المنفردة، هو الشاعر الكبير. على نحو ما مَثَّلنا في طاغور، والخيام، والجامعة.

والشاعر الذي يصلنا بالكون والحياة لحظات متفرّقات، يتّصل فيها بالآباد الخالدة والحياة الأزليّة، أو بالحياة الإنسانيّة خاصّة والطبيعة البشريّة، هو الشاعر الممتاز على نحو ما نجد في ابن الرومي والمتنبّي والمعرّي.

والشاعر الذي يصدق في التعبير عن نفسه، ولكن في محيطٍ ضَيِّق، وعلى مدى قريب، ولا نَنْفُذ وراءه إلى إحساسٍ بالحياة شاملٍ، ولا إلى نظرةٍ كونيّةٍ كبيرة، هو شاعر محدود...)[1].

فنرى مِن هذا كيف صَنَّفَ المؤلِّف الشعراء إلى طبقاتٍ وطوائف، كلّما ارتفع بأحدهم المكان واتَّسعت به الطاقة، كلّما قَلَّ مثيلُهُ ونَدُرَ نظيرُهُ.

فهذا التحديد الدقيق للعاطفة، واشتراط أن تكون هذه العاطفة مُصوِّرَةً لآمال الإنسانيّة جميعاً وآلامها ومعتقداتها وأحلامها، هو - في الواقع - قتلٌ لأكبر كميّةٍ عظمى من تراثنا الأدبي الخالد، وغُبنٌ لحقوق أعبق الأفكار وأنصع القرائح في شعرائنا السابقين.

ثُمَّ إنَّ هذه الجهة في الواقع تقوم على مجرّد الفرض والخيال وذوق الناقد الأدبيّ الخاصّ؛ لأنَّ وصف الحادثة الضعيفة إن كان يُعَبِّر عما تُكِنُّه البشريّة من الآلام والآمال، كما في القطعة التي نقلها عن (طاغور) في أوائل الكتاب والتي يقول فيها:



(١) النقد الأدبي أُصوله ومناهجه: ٥٨، فنون العمل الأدبي: الشعر.

(– لقد اشتدّ ظلام الليل، وأقفر الطريق، وتـألّق الحباحـب بـين أوراق الشجر.

– مَن عساك تكون! يا مَن تتبعني في خطوات متلصّصة، صامتة؟

– آه! لقد عرفت، أنّك تُريد أن تسرق منّي كلَّ أرباحي.

– لن أخيب ظنّك!

– لأنّي ما زلت أملك شيئاً؛ لأنَّ حظّي لم يسلبني كلّ شيء)[1].

والتي وصفها الأُستاذ المؤلِّف بـ(أنَّ لحظـات مـع هـذا «الإنـسان» في هـذا العالم الراضي كالفردوس، الناعم كالأحلام، لهي عمرٌ جديد، وكونٌ جديد)[2].

والتي لا أظنّ الشاعر عنى بها غير نفسه، وتوجَّعَ بهـا إلَّا مـن لـصوص حارته، وتفاءَلَ رغم العِبء الثقيل إلَّا لإرضاء ضميره، واعتقـاده أنَّ حظّـه لم يسلُبه كلَّ شيء، والتي إن صوّرتْ كوناً أو عالماً أو حياةً جديدة، فكـما تُـصوِّر ذلك هذه الأبيات الخالدة[3]:

لِـدُوا لِلْمَـوْتِ وَابْنُـوا لِلْخَـرَابِ	فَكُلُّهُـــمُ يَـــصِيرُ إِلَى ذَهَـــابِ
لِـــمَنْ نَبْنِـي وَنَحْـنُ إِلَى تُـرَابٍ	نَعُـودُ، كَـما خُلِقْنَـا مِـنْ تُـرَابِ
أَلَا يَــا مَــوْتُ لم أرَ مِنْــكَ بُــدّاً	قَـسَوْتَ فَـما تَكُـفُّ وَمَـا تُحَـابِي
كَأَنَّـكَ قَـدْ هَجَمْـتَ عَـلَى حَيَـاتِي	كَمَا هَجَمَ الْـمَشِيبُ عَـلَى الـشَّبَابِ

(١) النقد الأدبي أُصوله ومناهجه: ١٦، العمل الأدبي. نقلاً عن: ترجمة لطفـي شـلش في مجموعةٍ سمّاها «رعاة الحبّ»، واسمها الذي وضعه طاغور «البستاني».

(٢) النقد الأدبي أُصوله ومناهجه: ١٧، العمل الأدبي.

(٣) هذه الأبيات لأبي العتاهيّة، راجع الأغاني (لأبي الفرج الأصفهاني) ٤: ٣٠٧.

فأيُّ إنسانٍ في هذا العالم لم يَمُت وأنَّه لا يمكن أن يموت؟ وأيّ نَفَس لم ينقطع؟ وأيّ دار لم تصبح بعد جدتها طَلَلاً تُنشدُ عليه الأشعار وتتغزَّل به القرائح؟ وأيّ شجاعٍ قدير مقدام هابه الموت وخافَ من سطوته وقوّته؟

وإنَّ هذا العالم الذي يصوّره لنا الأُستاذ المؤلِّف والذي لا يبدأ بالمهد ولا ينتهي باللحد! لم يأتِ على لسان شعرائنا العرب قليلاً ولا كثيراً - حسب ما يظهر من الكتاب- لأنَّ (طاغور) و(الخيّام) لم ينظّما في اللّغة العربيّة في يومٍ من الأيّام، فالأوّل من شعراء الهند، والثاني من شعراء الفرس؛ ولأنَّ الترجمة مهما كانت دقيقةً ورصينةً لا يمكن أن تحمل من اللّغة الأُولى إلّا فكرتها، أمّا جرس ألفاظها وإيقاع حروفها - الذي بنى عليه المؤلِّف نظريّةً كبرى في هذا الكتاب- فسوف تبقى في مكانها مرتاحةً وادعة!

ثُمَّ إنَّ (طاغور) غير مسلم العقيدة، و(الخيّام) غير مسلم المبدأ؛ حيث لم يصدع (الخيام) بالإسلام في أدبه وأشعاره. في حين إنَّ المؤلِّف نفسه هو الذي احتفظ للإسلام بالفضل الأكبر في صياغة العمل الأدبيّ وبلورة أفكاره. فما قيمة أدب مَن لا يعتقد به كدينٍ أو كمبدأ؟ ثُمَّ إنَّه كيف لم يولّد الإسلام شعراء يتّصلون اتّصالاً مباشراً ودائماً بالكون والحياة؟ وهل في هذا الكون وهذه الحياة أُفقٌ أوسع من أُفق الإسلام، وكونٌ أكبر من كونه؟

وهو الدين الوحيد الذي أعطى الحياة أُذُناً واعيةً وصدراً رحباً، وامتدَّ بفروعه حتّى بلغ الاعتقاد بالقوّة الحكيمة المدبِّرة الأزليّة الأبديّة التي تتصرّف في هذا الكون وتدبّر شؤونه وتنظّم معيشته، وامتدّ بجذوره حتّى تناهى إلى سمعه أنين الجائعين ودعاء المظلومين وحشرجة المهمومين.

ثُمَّ إنَّه ما بال الشعراء الإسلاميّين كابن الرومي والمتنبّي والمعرّي الذين

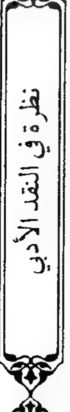
يلامسون ذلك النبع الكبير لحظةً دون لحظة، ورشفةً دون رشفة.

إنَّ الذي نراه منهم عندما يلامسون ذلك النبع وهذه الحياة، لا نجد فيه ما يَمُتُّ إلى الإسلام ومعتقداته ونُظُمه بقليلٍ ولا كثير؟ ولعلَّ العلّة لذلك - في الحقيقة- أنَّهم لامسوا النبع الكبير للحياة ولم يلامسوا النبع الكبير للإسلام، فقد اكتفوا منه بالقليل، كما اكتفوا بالقليل من التصوير الواقعيّ لحياة الإنسان في غالب حياتهم الشعريّة.

ونحن لن نختلف مع المؤلِّف في أنَّ الأدب الذي يصوّر أحلام البشريّة وآلامها ومعتقداتها ورموزها، قليلٌ في الأدب العربي وغير الأدب العربي؛ وذلك لأنَّ الشعراء المدرِكين لهذا الواقع الدقيق قلائل لا يُعَدُّون حتّى بالأصابع. ولكن الذي أقصده أنَّ نُدرَة هؤلاء الشعراء من ناحية، وكثرة مَن دونهم من ناحيةٍ أُخرى، سوف يؤدّي [إلى] إنكار نتاج هذه الكثرة الساحقة من الأُدباء، والتَّجهُّم له وغمط حقّه، لسببٍ بسيط هو أنَّه لا يتّصل بالنبع الكبير! إلى ظلمٍ فاحشٍ وجرمٍ أدبيٍّ عظيم.

ثُمَّ إنَّ هذا الكون الكبير والحياة الطليقة من قيود الزمان والمكان، لن تبقى إلَّا وهماً من الأوهام، وفكرةً من الأفكار، عندما ينحدر التفكير إلى الدرك الأسفل، وينحصر في عصبيّاته المغرية التي أعمته وأضلّته.

فقد نقل الأُستاذ المؤلِّف من كتاب (بشّار) للأُستاذ المازني فقرة قال فيها: (..... وممّا يجري مجرى الخبر الأسبق أنَّ صديقاً قال له وهو يمازحه: «إنَّ الله لم يذهب ببصر أحد إلَّا عوّضه بشيء، فما عوّضك..؟»، قال «الطويل العريض»، قال: «وما هذا؟»، قال: «لا أراك ولا أمثالك من الثقلاء»، ثُمَّ قال: «يا هلال؟ أتطيعني في نصيحةٍ أخصّك بها»، قال: «نعم» قال: «إنَّك كنت



تسرق الحمير زماناً، ثُمَّ تُبتَ وصِرت رافضيّاً، فعُد إلى سرقة الحمير، فهي والله (؟!) خير لك من الرفض!)[1].

حيث نرى فيها الأمر العظيم من التهجُّم المشين المقرون بالسخريّة اللاذعة والجريمة المنكرة على فرقةٍ إسلاميّةٍ تنزّهت يدها عن محاربة النبيّ صلى الله عليه وآله وأولاده، وارتفع شأنها إلى ولائهم وإطاعة أوامر الله ورسوله فيهم.

وحيث قد أخطأ «بشّار» بعقليّته القديمة وأفكاره الضَيِّقة في الاعتراض على هذا المذهب الإسلاميّ العظيم، وأخطأ الأُستاذ المازني في نقل ذلك على صفحات كتابه، فما الذي حدا بالأُستاذ المؤلِّف الذي يعرف من قوانين الإسلام ونُظُمه شيئاً كثيراً ويتذّرع بذوق القرن العشرين، ويستنير بنور الكهرباء والذرّة أن يهبط معهما إلى هذا الدرك الأسفل وهذا المستوى الوضيع؟ وهو الداعي إلى الانطلاق بالأفكار من الآفاق الضَيِّقة والنظرات المحدودة.

ثُمَّ إنَّ هناك نظريّةً أُخرى تبنّاها وركّز عليها بحثه في مختلف أنحاء كتابه، تدور حول إيقاع الألفاظ وجرسها وموسيقاها، حيث تُحدِثُ الألفاظ ظلالاً ومشاعر في نفس الأديب والسامع، تسمو على معانيها اللّغويّة، وذلك ليصوِّر بها لنا الأديب درجة انفعاله الشعريّ النفسيّ حول أيّ أمرٍ من الأُمور.

وفي ذلك يقول: (ووظيفة الأديب حينئذٍ أن يهيِّئ للألفاظ نظاماً ونَسَقاً وجوّاً يسمح لها بأن تُشِعّ أكبر شحنتها من الصور والظلال والإيقاع، وأن تتناسق ظلالها وإيقاعاتها مع الجوّ الشعوريّ الذي تريد أن ترسمه، وألّا يقف



(١) النقد الأدبي أُصوله ومناهجه: ٢١٧ - ٢١٨، المنهج النفسيّ.

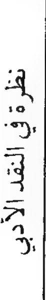
بها عند الدلالة المعنويّة الذهنيّة)[1] الجامدة.

وتصادفنا هذه النظريّة متلبّسة صوراً مختلفة في كثير من بحوث الكتاب، فنراها في (العمل الأدبيّ)[2]، وفي (القيم الشعوريّة)[3]، و(التعبيريّة)[4]، وفي غالب (فنون العمل الأدبيّ)[5]. ونجدها أيضاً في كلٍّ من (المنهج النفسيّ)[6]، و(الفنيّ)[7] من (مناهج النقد الأدبي)[8].

أمّا في (المنهج المتكامل)[9]، فنجد تكراراً لنظريّته عن اتّصال الشاعر بالنبع الكبير!

ومن طريف ما رواه عن كتابه (التصوير الفنّيّ في القرآن)[10]، كمثالٍ على جرس الألفاظ وإيقاعاتها، هذه الفقرات:

(تسمع الأُذن كلمة (اثّاقلتم) في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾[11]؟ فيتصوّر الخيال ذلك



(١) النقد الأدبي أُصوله ومناهجه: ٣٩، القيم التعبيريّة.

(٢) المصدر السابق: ٩، وما بعدها.

(٣) المصدر السابق: ٢٢، وما بعدها.

(٤) المصدر السابق: ٣٤، وما بعدها.

(٥) المصدر السابق: ٥٤، وما بعدها.

(٦) المصدر السابق: ١٨٤، وما بعدها.

(٧) المصدر السابق: ١١٧، وما بعدها.

(٨) المصدر السابق: ١١٤، وما بعدها.

(٩) المصدر السابق: ٢٢٥، وما بعدها.

(١٠) النقد الأدبي أُصوله ومناهجه: ٤٠، القيم التعبيريّة.

(١١) سورة التوبة، الآية: ٣٨.

الجسم الـمُثَّاقل يرفعه الرافعون في جهدٍ فيسقط من أيديهم في ثقل؛ إنَّ في هذه الكلمة (طنّاً) على الأقلّ من الأثقال... وتقرأ ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾[1]، فترتسم صورة التَّبطئة في جرس العبارة كلّها، وفي جرس (لَيُبَطِّئَنَّ) خاصّة، وإن اللّسان ليكاد يتعثّر وهو يتخبّط فيها حتّى يصل ببطءٍ إلى نهايتها)[2].

ويقول في نفس الكتاب أيضاً: (وقد يشترك الجرس والظلّ في لفظٍ واحد، مثل: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾[3]، فلفظ الدَّع يصوّر مدلوله بجرسه وظلّه جميعاً. وممّا يلاحَظ هنا أنَّ (الدَّعّ) هو الدفع في الظهور بعنف، وهذا الدفع في كثيرٍ من الأحيان يجعل المدفوع يخرج صوتاً غير إراديّ، صوت عين مشدّدة ساكنة، هكذا (آعّ)، وهو في جرسه أقرب ما يكون إلى جرس (الدعّ)[4].

ومن هنا نعلم أنَّ الأُستاذ القطب يتصوّر أنَّ لكلِّ نفسٍ على السواء خيالاً شاعريّاً واسعاً، وأُفقاً فكريّاً كبيراً، يخترق به مداليل الألفاظ اللغويّة، حيث ينظر وراءها إلى الظلال والإيقاع.

ويرى أنَّ هذه الظلال والإيقاعات منفصلةٌ ومباينةٌ لمعاني ألفاظها اللغويّة – وإن كانت مرتبطةً بها ارتباطاً وثيقاً– ولكن هل كان من الممكن أن يبقى لها نفس الظلّ والإيقاع لو فرضت جملةً أو موضوعةً لمعنىً لغويٍّ آخر؟

وحيث إنَّه يعزّ علينا ويؤسفنا حقّاً أن نعترض على هذا الفيلسوف

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٢.

(٢) التصوير الفنّي في القرآن: ٩١– ٩٢، التناسق الفنّي.

(٣) سورة الطور، الآية: ١٣.

(٤) التصوير الفنّي في القرآن: ٩٥، التناسق الفنّي.

الأديب والناقد العبقريّ والباحث الإسلاميّ، وأن نُثِيرَ أيّ ملاحظة أو استفهام حول نظريّاته العميقة وآرائه الدقيقة، فسنغلق أعيننا عن هذه (النظرة) وننهي هذا البحث، رغم ما يمكننا أن نكتبه من الملاحظات الأُخرى حول بعض الموضوعات المختلفة، راجياً ألّا يكون فيما كتبته (إيقاعاً) خشناً أو (جرساً) ثقيلاً.

والله من وراء القصد.









النظرة الرابعة

نظرة في كتاب (مع أبي العلاء في سجنه)

إنّ النظرة الحقيقيّة في هذا الكتاب[1] تُنتج الاعتقاد بهذه الحقيقة

(١) أي: كتاب (مع أبي العلاء في سجنه) لطه حسين (١٨٨٩م- ١٩٧٣م)، ولد في قرية الكيلو قريبة من مغاغة، إحدى مدن محافظة المنيا في الصعيد الأوسط المصريّ، وما مرَّ على عيني الطفل أربعة من الأعوام حتّى أصيبتا بالرمد، ما أطفا النور فيهما إلى الأبد، وكان والده حسين عليّ موظفاً صغيراً رقيق الحال في شركة السكّر، أدخله أبوه كتّاب القرية للشيخ محمّد جاد الربّ، لتعلّم العربيّة والحساب وتلاوة القرآن الكريم، وحفظه في مدّة قصيرة أذهلت أُستاذه وأترابه ووالده الذي كان يصحبه أحياناً لحضور حلقات الذكر، والاستماع عشاءً إلى قصص عنترة بن شداد، وأبو زيد الهلالي.
في سنة ١٩٠٢م دخل طه حسين الأزهر للدراسة الدينيّة، والاستزادة من العلوم العربيّة، فحصل فيه ما تيسّر من الثقافة، ونال شهادته التي تخوّله التخصّص في الجامعة، لكنّه ضاق ذرعاً فيها، فكانت الأعوام الأربعة التي قضاها فيها- وهذا ما ذكره هو نفسه- وكأنّها أربعون عاماً؛ وذلك بالنظر إلى رتابة الدراسة، وعقم المنهج، وعدم تطوّر الأساتذة والشيوخ وطرق وأساليب التدريس.
في الأزهر تلقّى العلم على يد عددٍ من الأساتذة والمشايخ، أبرزهم حسين المرصفي، والشيخ مصطفى المراغي، والشيخ محمّد بخيت، والشيخ عطا، والشيخ محمّد عبده، وقد أعجب بادئ الأمر كثيراً بآراء هذا الأخير واتّخذه مثالاً في الثورة على القديم والتحرّر من التقاليد.
في الجامعة المصرية تتلمذ على يد كلّ من أحمد زكي في دروس الحضارة الإسلاميّة،



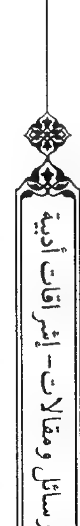
وأحمد كمال باشا في الحضارة المصريّة القديمة، والمستشرق جويدي في التاريخ والجغرافيا. أمّا في الفلك فتتلمذ على كرنك نللينو، وفي اللّغات السامية القديمة على المستشرق ليتمان، وفي الفلسفة الإسلاميّة على سانتلانا، وفي تاريخ الحضارة الشرقيّة القديمة على ميلوني، والفلسفة على ماسينيون، والأدب الفرنسي على كليمانت.

أمّا في جامعة باريس فدرس التاريخ اليوناني على غلوتسس، والتاريخ الروماني على بلوك، والتاريخ الحديث على سيغنوبوس، وعلم الاجتماع على أميل دوركايم، وقد أشرف هذا ومعه بوغليه على أُطروحته عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعيّة، بمشاركة من بلوك وكازانوفا.

لما عاد إلى مصر سنة ١٩١٩م عُيّن طه حسين أُستاذاً للتاريخ اليوناني والروماني في الجامعة المصريّة، وكانت جامعة أهليّة، فلمّا ألحقت بالدولة سنة ١٩٢٥م عيّنته وزارة المعارف أُستاذاً فيها للأدب العربي، فعميداً لكليّة الآداب في الجامعة نفسها، وذلك سنة ١٩٢٨م، لكنّه لم يلبث في العمادة سوى يوم واحد؛ إذ قدّم استقالته من هذا المنصب تحت تأثير الضغط المعنويّ والأدبي الذي مارسه عليه الوفديون، خصوم الأحرار الدستوريّين الذي كان منهم طه حسين.

دعا طه حسين إلى نهضة أدبيّة، وعمل على الكتابة بأسلوبٍ سهلٍ واضحٍ مع المحافظة على مفردات اللّغة وقواعدها، ولقد أثارت آراؤه الكثيرين، كما وُجّهت له العديد من الاتّهامات، ولم يبال طه بهذه الثورة ولا بهذه المعارضات القويّة التي تعرّض لها، ولكن استمرّ في دعوته للتجديد والتحديث، فقام بتقديم العديد من الآراء التي تميّزت بالجرأة الشديدة والصراحة، فقد أخذ على المحيطين به ومن الأسلاف من المفكّرين والأدباء طرقهم التقليديّة في تدريس الأدب العربي، وضعف مستوى التدريس في المدارس الحكوميّة، ومدرسة القضاء وغيرها.

أُخذ على طه حسين دعوته إلى الأَوْرَبة، كما أُخذ عليه قوله بانعدام وجود دليل على وجود النبيّين إبراهيم وإسماعيل فضلاً عن زيارتهما الحجاز ورفعهم الكعبة، سالكاً بذلك المنهج الديكارتي في التشكيك، ويقول في هذا الصدد: للتوراة أن تحدّثنا عن





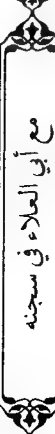
الناصعة، وهي أنَّ مؤلِّفه لغزٌ يحاول حلّ لغزٍ، وفيلسوفٌ يحاول فهم فيلسوفٍ، وأديبٌ يحاول نقد أديبٍ، ولكن فلسفتهما من جنسٍ خاصّ، وأدبهما من جنسٍ خاصّ أيضاً. والإنسان لا يمكنه أن يتذرَّع بما تذرَّعا به من أدبٍ وفلسفةٍ إلَّا أن يكون مثلهما أعمى، منصرفاً إلى نفسه، يملي على صاحبه حرفاً حرفاً وكلمةً كلمةً بدون أن يعلم ماذا يكتب صاحبه على الورق.

وهذه الفلسفة التي أشرت قبل قليل إلى أنَّهما يشتركان بها بأحد وجوه الاشتراك، لا تَـمُتُّ إلى ما يتدارسه الناس من الإلهيّات والطبيعيّات أو البحث عن حقائق الأشياء الذاتيّة، وإنَّما هي منبثقةٌ من صميمهما مُشَعَّةٌ من نفسيهما، وذلك باشتراكهما بآفةٍ واحدة، وأنَّهما لم يريا من عالم المُبصرين ما يقوّمان به فلسفتهما في الحياة. ولكنّهما لم يشتركا بأسلوب هذه الفلسفة وماهيّتها؛ على ما يظهر من الكتاب.

فنحن نتمتّع في أوّل فصلٍ من فصول هذا الكتاب بأديب القرن العشرين وأديب القرن العاشر، ونقضي معهما دقائق لذيذةً نشوى، وهما يتناجيان ويتطارحان الحديث حول آفتهما المشتركة وما تركته من أثرٍ بليغ في فلسفتهما في الحياة. فنجد أنَّ فيلسوف القرن العاشر عابسٌ مُكفَهِرّ، يجد الدنيا شرّاً في شرّ، والحياة فيها ثقلٌ على ثقل، وينظر إلى الدنيا من خلال سجونه

إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدّثنا عنهما، ولكن هذا لا يكفي لصحّة وجودهما التاريخيّ.

كما انتُقد لمساندته عبد الحميد بخيت إمام الأزهر في فتوى جواز الإفطار في نهار رمضان لمَن يجد أدنى مشقّة. واتُّهم بالكفر والإلحاد. راجع كتاب: طه حسين العقل والدين (لعبد الرزاق عبد).

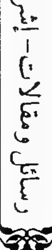


الثلاثة، متجهّمةً له عابسةً بوجهه، هذه السجون الثلاثة التي عَبَّر عنها بقوله[1]:

أَرَانِي فِي الثَّلَاثَةِ مِنْ سُجُونِي فَلَا تَسْأَلْ عَنِ الْخَبَرِ النَّبِيثِ
لِفَقْدِي نَاظِرِي وَلُزُومِ بَيْتِي وَكَوْنِ النَّفْسِ فِي الْجِسْمِ الْخَبِيثِ

أمّا فيلسوف القرن العشرين، فنجده ضاحكاً مستبشراً تتّسع ابتسامته كلّما سمع صوت ذلك الشيخ في بيتٍ أو قصيدةٍ من (اللزوميّات)[2]، أو فقرةٍ من (الفصول والغايات)[3]، وينفتح قلبه للنسيم الرطب، والهواء العذب، والأغاريد الجميلة، والعرف اللطيف.

والواقع أنَّ الدكتور طه حسين بوصفه بطلاً من أبطال الأدب العربي المعاصر، وبوصفه مشتركاً مع أبي العلاء المعرّي[4] في آفةٍ واحدة، فهو إذن



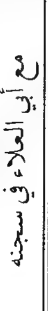
(١) اللزوميّات ١: ١٨٨، فصل الثاء. وفيه: «وكونِ النفْسِ في الجسدِ الخبيثِ».
(٢) وهو ديوان شعريّ ضخم للمعرّي.
(٣) للمعرّي أيضاً. وهو عبارة عن مجموعةٍ من المواعظ. وهو من أكثر كتبه إثارةً للجدل. ويفترض بعض العلماء أنَّ المعرّي كتبها لإثبات أنَّ لغة القرآن ليست معجزة، إلَّا أنّه ليس كلّ العلماء يتّفقون مع هذا التفسير.
(٤) أبو العلاء المعرّي (٣٦٣- ٤٤٩ هـ = ٩٧٣- ١٠٥٧م)، أحمد بن عبد الله بن سليمان، التنوخيّ المعرّي: شاعرٌ فيلسوف. وُلد ومات في معرّة النعمان. كان نحيف الجسم، أصيب بالجدريّ صغيراً فعمي في السنة الرابعة من عمره. وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. ورحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ هـ، فأقام بها سنةً وسبعة أشهر. وهو من بيت علمٍ كبير في بلده. ولمّا مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه. وكان يحرّم إيلام الحيوان، ولم يأكل اللّحم خمساً وأربعين سنة. وكان يلبس خشن الثياب. أمّا شعره وهو ديوان حكمته وفلسفته، فثلاثة أقسام: (لزوم ما لا يلزم)، ويعرف

الأديب الوحيد الذي يمكن أن نعدُّه أهلاً لدراسة أبي العلاء ومعرفة نفسيّته ونظرته إلى الحياة.

وهو الوحيد أيضاً الذي يمكن أن يجعل حلّه لهذا اللغز حلاً مقبولاً ومصيباً كبدَ الحقيقة إلى حدٍّ كبير.

والكتاب لمَن تعمَّق به ليس إلَّا دراسة نفسيّة للخواطر والمشاعر والآلام والآمال التي تدور في رأس ذلك الشيخ المسكين متناقضةً صاخبة، دراسةً صادرة (عن القلب الذي يحبُّ ويرحم، ويعطف لا عن العقل الذي يُمَحِّص ويُحلّل، ويقسو في التمحيص والتحليل)[1].

ثُمَّ يفترض الدكتور على ضوء الحقائق التأريخيّة الواردة عنه، مبرّراتٍ



باللزوميّات، و(سقط الزند)، و(ضوء السقط)، وقد تُرجم كثيرٌ من شعره إلى غير العربيّة، وأمّا كتبه فكثيرةٌ وفهرسها في معجم الأدباء.

وقال ابن خلكان: من تصانيفه كتاب (الأيك والغصون) في الأدب يربى على مئة جزء. وله (تاج الحرّة) في النساء وأخلاقهن وعظاتهن، أربع مئة كرّاس، و(عبث الوليد) شرح به ونقد ديوان البحتري، و(رسالة الملائكة) صغيرة، وهي مقدّمتها، ثُمَّ نشر المجمع العلمي الرسالة كاملةً، و(شرح ديوان المتنبّي) جزآن، تمَّ نسخهما سنة ١٠٥٩هـ، في خزانة الشيخ محمّد طاهر بن عاشور بتونس. و(رسالة الغفران) من أشهر كتبه، و(ملقى السبيل) رسالة، و(مجموع رسائله)، و(خطبة الفصيح) ضمّنها كلّ ما حواه فصيح ثعلب، و(الرسائل الإغريقيّة)، و(الرسالة المنبجية)، و(الفصول والغايات) الجزء الأوّل منه، و(اللامع العزيزي)، في مخطوطات جامعة الرياض، وهو شرح لديوان المتنبّي، ألّفه لعزيز الدولة فاتك بن عبد الله (٢٤٠ ورقة)، ولكثير من الباحثين تصانيف في آراء المعرّي وفلسفته. راجع الأعلام (للزركليّ) ١: ١٥٧، ومعجم المؤلّفين ١: ٢٩٠.

(١) مع أبي العلاء في سجنه: ٢٥.

لأوضاعه الشاذّة وفلسفاته المتناقضة، ولكنّه يتحدّث إلينا (عن صديقٍ لا يُرجى نفعه ولا يُتَّقَى شَرُّه)[1].

ولكن هل اهتدى الدكتور في سبر أغوار ذلك اللغز أم أنّه تاه وضلّت به السبيل؟ والظاهر أنّه عرف شيئاً وغابت عنه أشياء كثيرة، فهو يفترض في عدّة مواضع افتراضاتٍ تدور حول مختلف أُمور ذلك الشيخ، ولكنّه يهمل حتّى الافتراض في أشياء أُخرى كثيرة.

وممّا يحضرني من افتراضاته في أبي العلاء: الكلام الطويل العريض الذي برهن به على (أنَّ اللزوميّات ليست نتيجة العمل، وإنَّما هي نتيجة الفراغ)[2]. وافتراضه أنَّه يُنكِر العلّة الغائيّة في خلق هذا العالم، على ضوء كلامٍ لأبي العلاء يقرِّر فيه أنَّ في إمكان خالق هذا الكون أن يركِّب الإنسانَ والطبيعة بشكلٍ آخر، فربط بينه وبين الفلسفة الأبيقوريّة قسراً.

ولكنَّنا لا نكاد نجد في مطاوي الكتاب ذكر أيّ مبرّرٍ على نحو الحقيقة أو الافتراض لجانب من الجوانب المهمّة في الفلسفة العلائيّة، وهو تناقض أفكاره وتضارب آرائه في أقواله وأشعاره.

ولعلّي أتوفّق الآن إلى شرح نظريّةٍ من رأيي الخاصّ، تفسِّر تناقض فلسفة أبي العلاء المعرّي واعتراضه على الأنبياء، بما يدلُّ على الشكِّ بأقوالهم وتعاليمهم، بل على اليقين بالعدم في بعض الأحيان.

فالفلسفة العلائيّة حول المعتقدات الدينيّة إنَّما نشأت وترعرعت بين آراء المذاهب المختلفة والأقوال المتضاربة حول أيِّ أمرٍ من أُمور الكلام أو الفلسفة أو أُصول الدين وفروعه، وكلّ هذه الآراء لا يَمُتُّ إلى الحقّ والصواب

(١) مع أبي العلاء في سجنه: ٣١.
(٢) مع أبي العلاء في سجنه: ١٠١.

بطريقٍ مُبهم ولا لاحب، وإنّما هي آراءٌ وأفكارٌ استحدثها العقل الإنسانيّ القـاصر، بعد أن قطـع نفسه عـن مـصدر الـوحي والتنـزيل وعـن خلفـاء الله في أرضـه، وحججه على خلقه، استحدثها لإرضاء عصبيّاته، وإشباع شـهواته، وإغـراء البسطاء، والتمويه على العامّة لتفريقهم عن مصدر سعادتهم وخيرهم.

وهذه الآراء المتضاربة والمذاهب المتحاربة لا تُوَرِّثُ لمَـن اطّلع عليها إلّا الشكّ والشبهة، وإلّا الانغماس بالحيرة والضلال؛ وذلك لاحتشادها بالأقوال الباطلة والحقائق المزيّفة التي تُهلِكُ سالكها وتُضِلُّ طارقها.

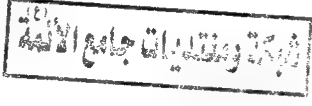
وكانت هذه المذاهب المتعدّدة والأفكار المـشتّتة لا يغفلهـا الحـرب فـيما بينها عن مقارعة الحقّ ومصارعة الوحي والتنـزيل، وتشويه آرائه عند العامّـة والخاصّة والبسطاء والمفكّرين، فكانت الدعاية المغرضة والإشاعات المسمومة لا تزال تنطلق من تلك المدافع الناريّة على أنَّ دين العترة الطاهرة ومذهب مَن تمسّك بهم ولجأ إليهم، مليءٌ بالأباطيل محشوٌّ بالمفتريات ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُـورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1].

فكان من الحقِّ أن تتيه الفلسفة العلائيّة بين الخِضَمِّ الأكبر من الأباطيـل والضلال، ولا تعلم أيّ طريقٍ تسلك، ولا من أيّ سبيلٍ تنجو، وهي لم تطّلـع عـلى الحـقِّ الـصريح والحقيقـة المجـرّدة وأقـوال الله ورسـولهﷺ بـصورةٍ واضحة؛ لأنّها كانت أمامه مطموسة المعالم من جرّاء الـدعايات التـي يطلقهـا أهل الضلال والفساد[2].

---

(١) سورة الصف، الآية: ٨.

(٢) وهو يحسبهم – كلّهم – على حقٍّ فيما يدّعون من المذاهب التي يدينون بها أو الدعايات التي يطلقونها (منهقُدِّسَ سِرُّه).



وكان من الحقِّ ألّا نعجب لفلسفته المتناقضة وآرائه المشتّتة التي يبديها بين حينٍ وآخر شعراً أو نثراً، بل العجب - في الواقع - يجب أن ينصبّ على كيفيّة اتّحاد كميّة من الشعر والنثر في المعنى عنده، بل كان يجب أن يختلف أبو العلاء في كلِّ بيتٍ ينظمه وكلّ فقرةٍ يقولها، فيُبدِي في كلِّ واحدةٍ رأياً من الآراء ومذهباً من المذاهب؛ وذلك لأنَّ الشخص المطَّلع على تلك المذاهب المختلفة بأساليبها المتناقضة وآرائها المتباينة، كلّما كان متعمّقاً فيها بصورةٍ أكبر، مع ابتعاده عن الحقِّ وضلاله عن الحقيقة، كلّما كان طريق الشكّ إلى قلبه أسهل، والحيرة في مذاهبه أدعى.

وكان من الحقِّ أيضاً لأبي العلاء المعري أن يَتَّهم الأنبياء بصورةٍ بذيئة، ويعترض عليهم بصورةٍ منكرة، لا أنَّ الأنبياء هم أهلٌ لذلك ولا أنَّ أبا العلاء صادف الحقيقة فصدف عنها وعافها؛ بل لأنَّ آراء الأنبياء التي يحفظها فكره ويجول بها خاطره، والتي استغنى بها عن حضور الأُستاذ قبل العشرين من عمره، إنَّما هي آراءٌ مبتورة، وأفكارٌ مشوَّهة، لا يمكن أن يعلم حقّها من ضلالها، ولا صدقها من كذبها. فلا المسلمون ولا النصارى ولا اليهود استطاعوا أن يوصلوا إلى أبي العلاء فلسفة أنبيائهم بصورةٍ ناصعة، ولا استطاع أبو العلاء نفسه أن يخترق حجب الضباب الكثيفة ليطَّلِع على النور من مصدره.

ومن الحقِّ أيضاً لفلسفة أبي العلاء الحائرة، ألّا تجد في أيّ دينٍ من الأديان أو أيّ مذهبٍ من المذاهب ما يُرضي فضولها ويجيب على سؤالها ويشفي غليلها بصورةٍ مُقنِعة ومُرضِية.

ومن حقّها إذن أن تعترض على المذاهب والأديان وتستفهم استفهاماً إنكاريّاً من مختلف هذه المذاهب حول أيّ أمرٍ من الأُمور، ساخرةً منها منكرةً عليها.



فكان من الحقِّ – بعد كلِّ ذلك– أن يستخدم أبو العلاء عقله الوحيد وفكره المجرَّد؛ ليَزِنَ به مختلف الآراء ويجيب به على مختلف المسائل، ويعتمد عليه في كلِّ مُعضلةٍ ومُشكلة، وكلّ رأيٍ وفلسفة، ويجعله الموصل الأكبر لطريق الهداية والرشاد.

ومن الحقِّ أيضاً – نتيجةً لذلك– أن يضلّه عقله الإنسانيّ القاصر ضلالاً جديداً، ويفتح أمامه طريقاً آخر يوصله إلى الشكِّ والشبهة والضلال، وإن كانت الفلسفة العلائيّة التي تدور في حلقة مُفرَغَة من الأوهام والأباطيل، إنّما هي فلسفةٌ (لا أدريّة)، فلسفةُ شكٍّ وتردُّد، وليست فلسفةَ يقين وجزم، وفي هذا ما يفتح أمام عين أبي العلاء المغمضة طريقاً آخر نحو الأوهام الـمُخَرِّبة والآراء المضلِّلة.

كلّ هذا إذا أضفناه إلى سخط أبي العلاء على نفسه وحياته وعبوسه بوجه دنياه وإضماره السوء لكلِّ أوضاع هذه الدنيا الوضيعة، وهذه الأعراض الزائلة، فينتج لدينا الرضا والاقتناع بأنَّ أبا العلاء كان من حقّه أن يقول[1]:

وَقَدْ غَلَبَ الأَحْيَاءَ في كِلِّ وِجْهَةٍ ... هَوَاهُمْ وَإِنْ كَانُوا غَطَارِفَةً غُلْبا

كَلابٌ تَغَاوَتْ أَوْ تَعَاوَتْ لِجِيفَةٍ ... وَأَحْسَبُنِي أَصْبَحْتُ أَلأَمَهَا كَلْبا

أَبَيْنا سِوَى غِشِّ الصُّدُورِ وَإِنَّما ... يَنَالُ ثَوَابَ اللهِ أَسْلَمُنا قَلْبا

ومن هذه الأبيات أيضاً نرى أنّه لم يَبْقَ لأبي العلاء من تلك المذاهب المضلِّلة والآراء المختلفة، سوى الاعتراف بالله تعالى؛ لأنّه القدر المشترك الوحيد بين ما اطَّلَعَ عليه من مذاهب وأديان، مع اختلافهم في أُمورٍ كثيرة حول هذا المبدأ الوحيد أيضاً. هذا مع استناد هذا المبدأ إلى الفطرة والعقل

(١) اللزوميّات ١: ٩١، الباء المفتوحة مع اللام.

اللذين يتمتّع أبو العلاء بمسكةٍ منهما.

وكان من الحقِّ أيضاً - نتيجة لكلا العاملين - أن يقبع أبو العلاء في بيته ويضيف إلى سجينه سجناً ثالثاً وإلى نفسه همّاً جديداً ويأساً قاتلاً، وأن يضيق من التعليم والإملاء وجلوسه مجلس المعلّم أمام حفنةٍ من التلاميذ[1]، فيقول[2]:

وَمَـاذَا يَبْتَغِـي الـجُلَـسَاءُ عِنْـدِي ... أَرَادُوا مَنْطِقِـي وَأَرَدْتُ صَـمْتِي

ويقول[3]:

أَمَـا لِـي فِـيمَا أَرَى رَاحَـةً ... مَدَى الـدَّهْرِ مِـنْ هَـذَيَانِ الآمَـالِ

وذلك ليشيح بوجهه عن هذه المذاهب المتضاربة، ويعزف عن الإدلاء برأيه في مضمار الآراء المختلفة، وينجي نفسه من الأخلاق الوضيعة والعادات الدنيئة والحروب الدمويّة التي نتجت عن اختلاف هذه المذاهب وتضاربها.

ولعلّ هذا يبدو واضحاً إذا أضفنا إليه عامل الأنانيّة الشديدة التي كان يتمتّع أبو العلاء بقسطٍ وافرٍ منها، فيما يبدو.

أمّا الدكتور طه حسين فأراد أن يعزو جميع هذه المفارقات إلى سجنه الثالث (السجن الفلسفيّ)، وإلى قوّة إرادته وكثرة اعتماده على عقله، ولعلّ في هذا شيئاً من الحقيقة، إلّا أنَّ هذه العوامل أسبابٌ متفرّعةٌ عن أسبابٍ ونتائج تشعّبت منها نتائج.

ولعلّ بحث الدكتور طه حسين هذا حول أبي العلاء، والذي حاول فيه

---

(١) لأنّه لا يعلم ما يبديه لهم من الآراء؛ حيث إنّه لا يطمئنّ حتّى لأحكام عقله المجرّد (منه قدس سره).

(٢) اللزوميّات ١: ١٧٦، التاء المكسورة مع الميم.

(٣) اللزوميّات ٢: ٢٥٢، اللام المكسورة مع الميم.

أن يصوّر لنا أفكاره وفلسفته ونظرته إلى الحياة، وحاول تبرير كلّ ذلك وتفسيره بصورةٍ مُقنِعَةٍ له مُرضِيَةٍ لفضوله.

لعلّ هذا البحث إنّما يصلح لتصوير نفسيّة أبي العلاء التي نتجت عن العاهة المشتركة بينهما، حيث يشاطره أحاسيسه حولها بشكلٍ من الأشكال. ولكنّه لا يصلح لتصوير فلسفة أبي العلاء الدينيّة والعقائديّة أو رأيه في الناس والمجتمع، وسبب انبثاق هذه الفلسفة عنه. إلَّا إذا لاحظنا الحقائق التأريخيّة والأبيات والفقرات العلائيّة التي ذكرها.

أمّا التعليقات والتخمينات والحواشي التي أضفاها عليه وعاش بها مع أبي العلاء مدّةً من الزمن، فهي لا تعدو حتّى عند الدكتور نفسه إلَّا أن تكون مُحتمِلَةً للواقع ومُقترِبَةً من الصدق والإنصاف، لا أنّها مصيبةٌ كبد الحقيقة ومُستمَدَّةٌ من ضوء الواقع.



وإنّني لا يمكن بدوري أن أزعم لنفسي أو لأيّ أحدٍ من الناس، أنَّ ما ذكرته عن أبي العلاء هو الحقيقة المجرَّدة والواقع الناصع والحقّ الصريح، ولكنّه ترجيح يَقرُبُ في نفسي من اليقين، ورأيٌ أُدليهِ في مضمار الآراء، لعلّه قد أصاب الواقع، ولعلّه قد أخطأه في الحقيقة ونفس الأمر.

الثلاثاء ١٨/ ١/ ١٣٨٠= ١٢/ ٧/ ١٩٦٠م

محمّد الصدر

النجف – العراق

النظرة الخامسة

نظرة في كتاب (ابن الرومي)

كنت أتّهم الدكتور طه حسين بالإسهاب بالكلام والإسفاف إلى الحواشي والتذويق بدون أيّ داعٍ جوهريّ في معناه أو غَرَضِهِ.

وإذا بي أجد العقّاد[1]، وهو ذو فلسفةٍ أعمق، ومقدرةٍ أكثر على التَّطويل

---

(١) عباس محمود العقّاد (١٨٨٩م- ١٩٦٤م) وِلِدَ في مدينة أسوان بصعيد مصر، ونشأ في أُسرةٍ كريمة، وتلقّى تعليمه الابتدائيّ بمدرسة أسوان الأميريّة، وحصل منها على الشهادة الابتدائيّة سنة (١٩٠٣م) وهو في الرابعة عشرة من عمره.

وفي أثناء دراسته كان يتردّد مع أبيه على مجلس الشيخ أحمد الجداوي، وهو من علماء الأزهر الذين لزموا جمال الدين الأفغاني، وكان مجلسه مجلس أدبٍ وعلم، فأحبّ الفتى الصغير القراءة والاطّلاع، فكان ممّا قرأه في هذه الفترة «المسْتَطْرَف في كل فنّ مستظرف» للأبشيهي، و«قصص ألف ليلة وليلة»، وديوان البهاء، وغيرها، وصادف هذا هوى في نفسه، ما زاد إقباله على مطالعة الكتب العربيّة والإفرنجيّة، وبدأ في نظم الشعر.

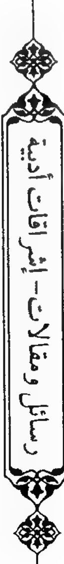
ولم يكمل العقّاد تعليمه بعد حصوله على الشهادة الابتدائيّة، بل عمل موظّفاً في الحكومة بمدينة قنا سنة (١٩٠٥م)، ثُمَّ نُقِلَ إلى الزقازيق سنة (١٩٠٧م) وعمل في القسم المالي بمديريّة الشرقيّة، وفي هذه السنة توفّي أبوه، فانتقل إلى القاهرة واستقرّ بها.

ضاق العقّاد بحياة الوظيفة وقيودها، ولم يكن له أملٌ في الحياة غير صناعة القلم، وهذه الصناعة ميدانها الصحافة، فاتّجه إليها، وكان أوّل اتّصاله بها في سنة (١٩٠٧م) حين عمل مع العلّامة محمّد فريد وجدي في جريدة الدستور اليوميّة التي كان

يصدرها، وتحمّل معه أعباء التحرير والترجمة والتصحيح من العدد الأوّل حتّى العدد الأخير، فلم يكن معهما أحد يساعدهما في التحرير.



وبعد توقّف الجريدة عاد العقاد سنة (١٩١٢م) إلى الوظيفة بديوان الأوقاف، لكنّه ضاق بها، فتركها، واشترك في تحرير جريدة المؤيّد التي كان يصدرها الشيخ علي يوسف، وسرعان ما اصطدم بسياسة الجريدة، التي كانت تؤيّد الخديوي عباس حلمي، فتركها وعمل بالتدريس فترةً مع الكاتب الكبير إبراهيم عبد القادر المازني، ثُمَّ عاد إلى الاشتغال بالصحافة في جريدة الأهالي سنة (١٩١٧م) وكانت تَصْدُر بالإسكندريّة، ثُمَّ تركها وعمل بجريدة الأهرام سنة (١٩١٩م) واشتغل بالحركة الوطنيّة التي اشتغلت بعد ثورة ١٩١٩م، وصار من كُتَّابها الكبار مدافعاً عن حقوق الوطن في الحريّة والاستقلال، وأصبح الكاتب الأوّل لحزب الوفد، المدافع عنه أمام خصومه من الأحزاب الأُخرى، ودخل في معارك حاميةٍ مع منتقدي سعد زغلول زعيم الأُمّة حول سياسة المفاوضات مع الإنجليز بعد الثورة.



وبعد فترة انتقل للعمل مع عبد القادر حمزة سنة (١٩٢٣م) في جريدة البلاغ، وارتبط اسمه بتلك الجريدة، ولمع اسمه، وذاع صيته وانْتُخب عضواً بمجلس النواب، ولن يَنسى له التاريخ وقفته الشجاعة حين أراد الملك فؤاد إسقاط عبارتين من الدستور، تنصّ إحداهما على أنَّ الأُمّة مصدر السلطات، والأُخرى أنَّ الوزارة مسؤولة أمام البرلمان، فارتفع صوت العقّاد من تحت قبّة البرلمان على رؤوس الأشهاد من أعضائه قائلاً: إنَّ الأُمّة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس في البلاد يخون الدستور ولا يصونه. وقد كلّفته هذه الكلمة الشجاعة تسعة أشهر من السجن سنة (١٩٣٠م) بتهمة العيب في الذات الملكيّة.

وظل العقّاد منتمياً لحزب الوفد حتّى اصطدم بسياسته تحت زعامة مصطفى النحاس باشا في سنة (١٩٣٥م) فانسحب من العمل السياسي، وبدأ نشاطُه الصحفي يقلّ بالتدريج وينتقل إلى مجال التأليف، وإن كانت مساهماته بالمقالات لم تنقطع إلى الصحف، فشارك في تحرير صحف روز اليوسف، والهلال، وأخبار اليوم، ومجلّة الأزهر.

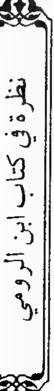
والإسهاب والدوران حول الخطوط الناعمة الصغيرة، والإعراض عن الخطّ العريض في الموضوع. وليس هذا الأُسلوب خالياً من لذَّةٍ في بعض الأحيان، خاصّةً من مثل الدكتور طه حسين والأُستاذ العقّاد؛ حيث تسمو الروح إلى رفيع شأوهم، وتقتبس من ساطع نورهم، وكلّ لفظةٍ من ألفاظهم هي- في الحقيقة والواقع- آيةٌ من آيات الجمال على رغم بساطتها وخِفَّتِها، بل لعلّ هذا

كَتَبَ العقّاد عشرات الكتب في موضوعاتٍ مختلفة، فكتب في الأدب والتاريخ والاجتماع مثل: مطالعات في الكتب والحياة، ومراجعات في الأدب والفنون، وأشتات مجتمعة في اللّغة والأدب، وساعات بين الكتب، وعقائد المفكّرين في القرن العشرين، وجحا الضاحك المضحك، وبين الكتب والناس، والفصول، واليد القويّة في مصر.

ووضع في الدراسات النقديّة واللغوية مؤلّفات كثيرة، أشهرها كتاب: الديوان في النقد والأدب، وكتاب ابن الرومي حياته من شعره، وشعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، ورجعة أبي العلاء، وأبو نواس الحسن بن هانئ، واللّغة الشاعريّة، والتعريف بشكسبير.

وله في السياسة عدّة كتب يأتي في مقدّمتها: الحكم المطلق في القرن العشرين، وهتلر في الميزان، وأفيون الشعوب، وفلاسفة الحكم في العصر الحديث، والشيوعية والإسلام، والنازيّة والأديان، ولا شيوعيّة ولا استعمار.

وهو في هذه الكتب يحارب الشيوعيّة والنظم الاستبداديّة، ويمجّد الديمقراطيّة التي تكفل حريّة الفرد، الذي يشعر بأنّه صاحب رأي في حكومة بلاده، وبغير ذلك لا تتحقّق له مزيّة، وهو يُعِدُّ الشيوعيّة مذهباً هدَّاماً يقضي على جهود الإنسانيّة في تاريخها القديم والحديث، ولا سيما الجهود التي بذلها الإنسان للارتفاع بنفسه من الإباحيّة الحيوانيّة إلى مرتبة المخلوق الذي يعرف حريّة الفكر وحريّة الضمير. راجع كتاب أنا- سيرة قلم (للعقاد نفسه)، المجموعة الكاملة، المجلّد الثالث، السيرة الذاتيّة.





الجمال الرائع إنّما هو مُسبَّبٌ من هذه البساطة وهذه الخِفَّة مع بُعدِ الغَور وعمق المعنى، واستخدام العقل والخيال في وقتٍ واحد.

ولكنّني - بالطبع - أجهل سبب تعلّق جملةٍ من الأدباء بأسلوب التَّطويل والإسهاب، خاصّة ممّن يكون التطويل في كلامهم لا يؤدّي إلّا إلى شيءٍ من السأم والملال.

فمن المحتمل أنّهم إنّما يقصدون إشعار القارئ بهذه اللّذة وإثارة مشاعره وأحاسيسه النفسيّة بالنكتة الظريفة والخاطر العابر.

ولكن الذي لا إشكال فيه أنَّ القارئ عندما يتوجّه بالقراءة إلى أيّ فصلٍ من الفصول أو مقالةٍ من المقالات، إنَّما يقصد منها (الخطّ العريض) والمعنى الجوهريّ. فمن المؤسِف حقّاً أنَّه حينما يأتي إلى آخر الفصل لا يجد بين يديه من المعنى الجوهريّ إلّا شيئاً قليلاً بسيطاً بالنسبة لما صَبَّهُ الأديب في الفصل من المعاني الشعريّة والحواشي الخياليّة.

وهذا إذا أردنا أن نفرِّط في حسن الظنِّ بالأُدباء والمتأدِّبين، ونغالي في تقديرهم. ولكن باستطاعتنا أن ندّعي أنّهم إنَّما يطلبون التَّطويل ويقصدونه بإلحاحٍ وإصرار؛ لأنَّه غاية، لا لأنَّه وسيلة، غاية لتسويد الورق وضخامة الكتاب، وذلك ليحمل الكتاب أكبر كميّةٍ ممكنةٍ من الشأن والأُبّهة في عيون الناظرين.

وهذا قائمٌ على الزعم أنَّ الفخر بضخامة الكتاب وإن كان ملازماً لضحالة المعنى ورداءته، وهذا - مع الأسف - نظريّةٌ شائعةٌ كثيرة الاستعمال. نرى من أثرها أنَّ المؤلِّف إن لم يجد السُّمْك المُرضي من كتابه، أكثَرَ من الفهارس والأوراق البيضاء.

ولعلّ في هذا كمّيّةً كبيرةً من سوء الظنّ والإجحاف بالأُدباء والمتأدّبين،

كما كان في ذلك الرأي مغالاةٌ في حسن الظنّ والتقدير. ولكن باستطاعتنا أن نتحدّى الأُدباء في أن يُثبِتُوا لنا بالدليل الـمُقنِع، بلسانهم أو لسان حالهم أنّهم لم يقصدوا ذلك من التطويل والإسهاب في الكلام.

ولعلّ واقع الأمر أنّ الأديب كلّما كَثُرَ أدبه قويت انفعالاته، كالتاجر كلّما كَثُرَ ماله كَثُرت مشترياته. حتّى ليحار (التاجر الكبير) ماذا يشتري وفي أيّ سوقٍ يدخل، وحتّى أنّه ليتمنّى أن يشتري الأرض وما فيها، و(هَوَس الشراء) إنّما هو تابعٌ لـ (ميزانيّة التاجر) نفسه، فكلّما كَثُرَ ماله كَثُرَ شراؤه.

ولعلّ هذه هي النظرة الواقعيّة التي يجب أن نوجّهها إلى الأُدباء، فهم بحكم غريزتهم الأدبيّة وانفعالاتهم النفسيّة مجبورون جبراً على الإكثار من الكلام والتطويل فيه وتكثير مواضيعه، ليوفّوا هذه الغريزة وليشبعوا هذه الشهوة، حتّى ليخلق الأديب في هذا المضمار أشياء كثيرةً من العدم ويصوغ دُرَراً من التراب.

فـ(ضرورة الصدور) بالنسبة للأديب شيءٌ ضروريّ، بل جوهريٌّ وذاتيٌّ بالنسبة لإنشائه وإنشاده.

فالأديب مهما بلغ من الحذق والبراعة، لا يمكن أن يكتب شيئاً جميلاً، ولا أن يصوغ ذهباً إبريزاً إلّا إذا انكشفت أمام نفسه آفاق الجمال، وشَمَّ (بأنفه) عرف الحبّ والحياة، بحيث يستطيع أن يملأ جوهرته ضوءاً وقصيدته حياةً، وفقراته روحاً ونشاطاً.

(ففي بعض الحالات يكون الانفعال من التَّوهُّج والحرارة والإشراق، بحيث يغمر إحساس الأديب ويجعله في شبه نشوةٍ أو نصف غيبوبة)[1].

(١) النقد الأدبي: ٣٨ (منه قُدِّسَ سِرُّه).

فهذا التوهّج والإشراق مهما قَلّ في نفس الأديب، لابدَّ وأن يأخذ بزمام نفسه إلى حيث يريد لا إلى حيث يريد الأديب بدون أن يشعر أو يختار، فينطلق الأديب على سجيّته كالشهاب الثاقب، وهو رهن خياله وفكره غير مختار، ولا يمكن أن يكون مختاراً فيما يكتبه أو ينظمه. فالطول والقصر إذن رهن خيال الأديب وليس رهن الأديب نفسه.

فنحن نجد العقّاد في هذا الكتاب، وقد انفعل بابن الرومي[1] وشعره انفعالاً قويّاً، مدّعياً أنَّ ديوانه يمثّل حياته وأحاسيسه كلّها؛ لأنَّ ابن الرومي- حسب ما يدّعيه- كان يَنظِمُ شعراً كلّ لحظةٍ يعيشها من حياته.

---

(١) ابن الروميّ (٢٢١- ٢٨٣هـ = ٨٣٦- ٨٩٦ م)، عليّ بن العباس بن جريج، أو جورجيس الروميّ، أبو الحسن: شاعر كبير، من طبقة بشّار والمتنبي، روميّ الأصل، كان جدّه من موالي بني العباس، وُلد ونشأ ببغداد، ومات فيها مسموماً، قيل: دسّ له السمّ القاسم بن عبيد الله (وزير المعتضد)، وكان ابن الروميّ قد هجاه. قال المرزباني: لا أعلم أنّه مدح أحداً من رئيس أو مرؤوس إلّا وعاد إليه فهجاه، ولذلك قلّت فائدته من قول الشعر وتحاماه الرؤساء وكان سبباً لوفاته. وكان ينحل مثقالاً الواسطي أشعاره في هجاء القحطبي وغيره، قال المرزباني أيضاً: وأخطأ محمّد بن داود فيما رواه لمثقال من أشعار ابن الروميّ التي ليس في طاقة مثقال ولا أحد من شعراء زمانه أن يقول مثلها غير ابن الروميّ. له ديوان شعرٍ في ثلاثة أجزاء، وقد بوشر طبعه، واختصره كامل الكيلاني، وسمّى المختصر: ديوان ابن الروميّ، ولأحمد بن عبيد الله الثقفيّ (ت: ٣١٩) كتاب (أخبار ابن الروميّ والاختيارات من شعره)، ولعبّاس محمود العقّاد (حياة ابن الروميّ)، ولعمر فروخ (ابن الروميّ)، ومثله لمدحت عكّاش، ولحنا نمر، وللمستشرق رفون جست (Rhuvon Guest) كتاب (حياة ابن الروميّ) بالإنجليزيّة. الأعلام (للزركليّ) ٤: ٢٩٧.

فهو يمثّل مختلف أدوار هذه الحياة التي عاشها ومختلف مشاعره والحوادث التي صادفها خلال هذه الأدوار، وهو يمثّل أيضاً ذوقه أمام المجتمع وأمام الناس وأمام مجالس اللهو ومساجد العبادة، وأمام كلّ شيء حتّى ذوقه في الطعام.

ولكن هل أصاب العقّاد في دراسته هذه لابن الرومي؟

فنحن نعلم أنَّ الشعراء ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ* وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[1]، وأنَّ الأبيات التي ينظِمها الشاعر لا يمكن أن تكون إلّا فكرةً وردت في مخيّلته أو خاطِرَة مَرَّت على ذهنه في وقت نَظمِهِ. ولهذا يمكن الزعم أنَّ شعر الأديب لا يمثّل حياته الخارجيّة بقليلٍ ولا كثير؛ لأنَّ هذه الفكرة أو الخاطرة إنَّما هي أشياء (ذاتيّة) ولا اتّصال لها بالواقع الخارجيّ (الموضوعيّ)، ولا يمكن أن تَدُلَّ عليه؛ فإنّه حين يصف الموز- مثلاً- ويدَّعي بأنَّ البلع يكاد أن يدفعه إلى القلوب، يحتمل أنّه وصفه وهو يكرهه أشدّ الكره ويشمئزّ منه أكبر اشمئزاز، وهذا المدح إنَّما هو مجرّد فكرة طرأت على فكره الفيّاض بالخيال العبق ونفسه الفوّاحة.

ولكن يمكن أن يُقال - كما قال الأُستاذ العقّاد-: إنّه إنَّما يصف الموز أو السمك؛ لأنّه يحبّه، ولأنَّه يرغب أن يأكله بصورةٍ واقعيّة، وإنَّما ينعى الشباب؛ لأنَّه يشتاق إليه اشتياق آيسٍ من اللقاء، وكذلك غيره من الأُمور.

ويمكننا أيضاً أن نتّخذ بين هذين السبيلين المتضادّين سبيلاً ثالثاً وسطاً، وهو أن يُقال:

إنَّ ما اتّصل من نتاجه الأدبيّ، وما يمثّل انفعالاته النفسيّة شعراً أو نثراً،

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٢٢٥- ٢٢٦.

بقضيّةٍ تأريخيّةٍ أو بذمِّ شخصٍ أو مدحه- بدون الطمع بالعوض- أو أيّ حاجةٍ اعتياديّةٍ من حاجات هذه الحياة، فهو لابدَّ أن يكون صادراً عن هذه الحاجة ومنبثقاً منها وممثّلاً لواقعها الخارجيّ (الموضوعيّ)، بالإضافة إلى انفعاله النفسيّ (الذاتيّ).

أمّا مدح الموز والسمك واللوزينج، ووصف مجالس اللهو ومحراب العبادة، وما ذكر في شعره من أنَّه (يغربل في مشيه)، أو أنَّ أوصافه بالصورة المعيّنة الفلانيّة، أو أنَّ الأحدب الذي يتشاءم منه كمَن صفع في قفاه وهو لا يزال ينتظر الثانية بخوفٍ وارتجاف، وغير ذلك من الخيالات الشعريّة والانفعالات النفسيّة، لا يمكن أن تعدو كونها واحدةً من هذه الخواطر، أو انفعالاً من هذه الانفعالات التي لا تدلّ على ما وراء نفس صاحبها بقليلٍ ولا كثير.

فرضاً عن أنَّ مثل هذا الشعر الذي صاحب كمّيّةً من الانفعال لابدَّ وأن يصاحب معه كمّيّةً كبيرةً من المبالغة والتضخيم للوقائع، وتصغير الكبير وتكبير الصغير، ممّا يجعل الصورة مع ما فيها من لَذَّةٍ وحُسْن (مُشوَّهة) لا تدلُّ على الواقع.

هذا من ناحية ابن الرومي نفسه، أمّا من ناحية المؤلِّف الأُستاذ العقّاد، فإنَّنا نراه وهو ينظر من خلال هذا الكتاب إلى ابن الرومي نظرة الحبّ والشفقة والرحمة، بل نظرة الإجلال والتقدير، كأنَّه يظنّ أنَّه حين قال هذا الشعر، قاله وهو يعني كلّ ما يلازمه ويدلّ عليه. فهو يحاسب شعره العذب وخياله الخصب على كلِّ كلمةٍ يلفظها وكلّ بيتٍ ينظِمُه، في حين إنَّ الأبيات التي قالها لا تخلو إمّا أن تكون عن طمعٍ أو خوفٍ أو خاطرةٍ خياليّةٍ، أو غير



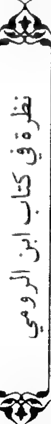
ذلك ممّا يكتنفها من التشبيهات والكنايات، ولا يبقى لدينا من شعره إلّا النزر القليل الذي يمكن لنا أن نزعم أنّه يمثّل حياته ويدلّ على معيشته.

فمن كلّ هذا نرى أنّ الأُستاذ العقّاد لم يُصِب إلّا في هذا النزر القليل من الشعر، ومن أخباره التاريخيّة التي وردت عنه - مع فرض صحّتها- فكان صوابه نزراً قليلاً أيضاً.

وقد يتوجّه السؤال بأنّه: لماذا يُخضِع الأُدباء الجُدُد مَن يَدرُسُونه من قدمائهم لمقاييسهم الجديدة ومناهجهم الحديثة؟

فهذا المنهج الأدبيّ الحديث الذي يقوم على أنّ قيمة الأدب إنّما هو بمقدار ما يحمل من التصوير والإشراق والانفعال النفسيّ، وبمقدار ما تتحمّل ألفاظه من نقل الانفعال من المؤلِّف إلى نفس القارئ. هذا المنهج منهجٌ حديث، ونظامٌ جديد لم يكن ابن الرومي ولا أمثال ابن الرومي، ولا مَن بزغ نجمه بعد عصره، يعرفه أو يمكنه أن يطَّلِعَ عليه، وإنّما هو من بنات أفكار أُدباء القرن العشرين.

ولم يكن في ذلك القرن إلّا أمثال ابن المعتزّ[1] الذي يُنسَب إليه (علم





---

(١) ابن المعتزّ (٢٤٧- ٢٩٦هـ = ٨٦١- ٩٠٩م)، عبد الله بن محمّد المعتزّ بالله ابن المتوكّل ابن المعتصم ابن هارون العباسي، أبو العباس: الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلة. ولد في بغداد، وأولع بالأدب، فكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم. وصنّف كتباً، منها: الزهر والرياض، والبديع، والآداب، والجامع في الغناء، والجوارح والصيد، وفصول التماثيل، وحلي الأخبار، وأشعار الملوك، وطبقات الشعراء. وجاءته النكبة من حيث يسعد الناس، آلت الخلافة في أيّامه إلى المقتدر العباسي، واستصغره القوّاد فخلعوه، وأقبلوا على صاحب الترجمة، فلقّبوه: المرتضي بالله، وبايعوه بالخلافة،

البديع) القائم على التزويق اللفظي المحض، الذي لابدَّ له من أن يُطبَّق في كلام كلّ أديب من معاصريه أو المتأخّرين عنه، وإن كان على حساب الخيال الشعريّ الجميل والانفعال النفسيّ المشرق.

فمن أين لهم إذن إخضاع «ابن الرومي» وأمثاله من الشعراء لهذه المقاييس الجديدة؟ على أساس أنَّ ديوان كلّ شاعرٍ كبير هو نسخةٌ للدنيا والحياة، بل للعالم والكون غير نسخة الشاعر الآخر، إلَّا أنَّ هذه المقاييس الحديثة بديهيّة التطبيق لكلٍّ من الأُدباء قديمهم وحديثهم على السواء.

أم لأنّهم يستطيعون أن يحملوا نتاج أُدبائهم القدماء حملاً على هذا المنهج الجديد.

لا نعلم!

الأربعاء ٢٦/ ١/ ١٣٨٠هـ = ٢٠/ ٧/ ١٩٦٠م

محمّد الصدر

النجف – العراق

وبايعوه بالخلافة، فأقام يوماً وليلة، ووثب عليه غلمان المقتدر فخلعوه. وعاد المقتدر فقبض عليه وسلّمه إلى خادمٍ له اسمه (مؤنس) فخنقه. وللشعراء مراثٍ كثيرة فيه. وله ديوان شعر في جزأين. وممّا كتب في سيرته: «ابن المعتز وتراثه في الأدب» لمحمّد خفاجة، و«عبد الله ابن المعتز أدبه وعلمه» لعبد العزيز سيّد الأهل. الأعلام (للزركليّ) ٤: ١١٨ – ١١٩، ابن المعتز.





نبوءة الإيمان

نبوءة الإيمان[1]

(١)

إنّه مثل... مجرّد مثل... نبع خلال الكلام، وتلاشى بعد برهةٍ من الزمن، ولم يبق له إلّا أثرٌ في الذهن، وصورةٌ في الخطّ.

وهذا هو شأن الأمثال على نحو العموم.

إلّا أنَّ المثل العبقريّ، الذي ارتفع عن مستوى الأمثال العامّ، ذلك المثل الذي حلّق في أجواء الحكمة ونزل إلى أغوار الدقّة والصدق، فكان قوله نوراً، وقراءته هدىً، وفهمه إيماناً.

مثلٌ يفتح أمام الإنسان في أوّل الحديث صورةً لواقعه المؤلم ليراها، وليصدّق أنّها تحكيه، وأنَّ هذا هو واقعه بعينه، واقعه الذي عاشه في غضون حياته، وأثناء معاشراته وتصرّفاته.

والمثل إذ يعرض هذا الواقع يعرضه على أنّه واقعٌ مؤلمٌ فاسدٌ يجب أن يزول، ويجب أن يتحرّر منه الإنسان، وأن يرتفع عن مستواه. إنّه واقعٌ شاذٌّ خطرٌ يجب تحويله.

وهنا، وفي هذه النقطة بالذات، يغلق المثل هذه الصورة المؤلمة، ليفتح أمامك صورةً رائعةً شيّقةً للواقع كما ينبغي أن يكون، وللمجتمع الأفضل المثاليّ في عقائده وأفكاره وأخلاقه، ذلك المجتمع الذي ينبغي أن يسود






(١) [تاريخ كتابة البحث]: ٧/ ذي الحجّة/ ١٣٨٣ = ١٩/ نيسان/ ١٩٦٤ (منه قدّس سرّه).

البشريّة لكي تستطيع أن تحلم حينئذٍ بالوصول إلى الكمال.

وليس على الإنسان بعد استيعابه لكلتا الصورتين، إلَّا أن يُحسن المقارنة والفهم، وإلَّا أن يفكّر وأن يهتدي.

وعندئذٍ ينقضي المثل، ويتلاشى جرسه خلال السطور، إلَّا أنَّ صداه يظلّ يرنّ في الأذن، ويجول في الذهن مرّةً من الزمن، حتّى تهضمه النفس، ويختمه في العقل. وعندئذٍ يثمر الهدى والإيمان والعقيدة الراسخة والإخلاص.

إنَّ هذا هو شأن مَثَل القرآن، بما يستجمعه من إعجازٍ ودقّةٍ في التعبير والتصوير، وفي العرض والتحليل.

(٢)

وهذا الذي سوف نقرأه ليس إلَّا مثلاً من الأمثال؛ فإنَّ القرآن لا يريد أن يُعترف له بأكثر من ذلك، حين يقول لرسول الإسلام العظيم صلى الله عليه وآله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً﴾[1]، إلَّا أنّه مثلٌ قرآنيّ، والمثل القرآني بما فيه من دقّةٍ وحكمة، عبارةٌ عن لوحةٍ رائعة، وقصّةٍ مثيرة تستهوي النفس وتلذّ الخاطر، وتتضمّن إلى جانب ذلك: الهداية إلى الحقّ، وتعيّن نقطة الصواب، تلك النقطة المنوّرة المشرقة التي ما حاد عنها إنسانٌ إلَّا تاه، وما أعرض عنها عقلٌ إلَّا فسد.

فنحن نستطيع أن نتميّز بوضوحٍ في هذا المثل القرآني الكريم، الأثر السيّئ الذي يُحدثه تكدّس المال لدى الإنسان من بطرٍ وشره، ومن كبرياءٍ وغرور، ومن نسيانٍ للعقيدة وإعراضٍ عن الإيمان، تلك الصفات السيّئة التي

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٢.

تجرّ صاحبها إلى هوّة الفساد، وتحرمه من الجمال والنور الذي ينتظره في ذلك الأُفق السامي الذي هبط عنه.

كما نستطيع أن نرى فيه مدى حرارة الإيمان وعمقه، ومدى دقّته وبُعد نظره، وما هي آثاره النفسيّة والعقليّة والخلقيّة على الفرد. ذلك الفرد الذي يرى أنَّ هذا الجوهر الثمين الذي يضمّه قلبه بين جوانحه من العقيدة والإيمان، خيرٌ من ملء الدنيا ذهباً وفضّةً ومغريات، وأنَّ الكمال الروحي العظيم والاطمئنان النفسي الجميل، الذي يقوده إليه الإيمان، أمرٌ لا يمكن أن يقاس بأيّ ثمنٍ معلوم.

كما أنّنا نسمع في هذا المثل بوضوحٍ النغمةَ المعيّنةَ التي يخلفها كلّ من الموقفين في كلام الإنسان، والأُسلوب الخاصّ الذي تعكسه طريقة التفكير والحياة على الكلام، فنجد كيف يتّضع الكلام الصادر عن تلك الصفات السيّئة، على حين يرتفع كلام الإيمان إلى مستوى النور الإلهيّ الفسيح الذي يغمر الكون بإشراقه.



(٣)

إذن، فهيّا معي إلى استعراض هذه القصّة الرائعة والمثَل الحِكمي القرآني الدقيق؛ لعلّنا نستطيع أن نقتبس شيئاً من أنواره، وأن نستشعر طمأنينة الإيمان التي يريد القرآن أن يلقيها بهذا المثَل إلى قلوب ذوي الألباب.

(٤)

يرفع الستار في مفتتح القصّة عن رجلين.

يمثّل هذان الرجلان الإنسان بجميع ما فيه من قوى وملكات، وما تعجّ في ذهنه من أفكار، وما يمكن أن تؤثّر عليه من مؤثّرات؛ فإنَّ حياة



الإنسان بما فيها من ملامح، وبما تتضمّنه من أفكار، وبما تقتضيه من سلوك، وما يصادفه الإنسان في أثنائها من عوائق أو محفّزات، وما يرى من غيره من تصرّفٍ أو يسمع من أفكار، كلّ ذلك له الأثر الكبير في بلورة شخصيّة الإنسان وخلق سلوكه وضغطه بالقالب الذي تقتضيه.

وكذلك كان الرجلان؛ فإنّهما رغم تساويهما في الإنسانيّة، نراهما قد اختلفا اختلافاً كبيراً، وتباينا من حيث التفكير والسلوك، قد مثّل كلٌّ منهم جانباً من جوانب الحياة، راسماً ما يمكن أن تطبعه حوادثها في شخصيّة الإنسان من أثرٍ عميق.

مثّل أحد الرجلين جانب الحياة المادّي، بما فيه من تهالكٍ على اللذّة وعبادةٍ للشهوة وتكالبٍ على المال وعلى بهارج الدنيا وملذّاتها، وبما تستدعيه هذه الأُمور، من تفاهةٍ في الشخصيّة وسطحيّةٍ في التفكير وضعفٍ في العقيدة واغترارٍ بالحياة، وكبرياءٍ فارغةٍ بما يملك من مالٍ وعقارٍ وضياع، إلى آخر هذه القائمة الطويلة، ممّا تسبّبه الحياة المادّيّة المحضة للإنسان من شرٍّ وفساد، وما تلفّ به المادّة قلبه وبصيرته من أغشيةٍ صفيقة، لا يستطيع معها تمييز الأُفق الرحب المليء بالنور الوضّاء، ذلك النور الذي سوف يصافحه محيّياً بمجرّد أن يكسر الغشاء ويتحرّر من هذا الضيق القاتل المقيت.



وبذلك يكون الرجل المادّي مصداقاً واضحاً لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾[1]، فإنّه ليس هذا السدّ ولا ذاك الغشاء إلّا عبارةً عن تأثير الأُفق المادّي على الإنسان ودورانه في بوتقة محسوساته، بحيث لا يمكنه أن يرقى ببصره إلى الكون الروحيّ الرحيب.

---

(١) سورة يس، الآية: ٩.

(٥)

ويبدو هذا الرجل مغروراً متكبّراً، ببستانين نضرين، جعلهما الله له، مليئين بمختلف الزروع والأشجار، وبأنواع الأزهار والأثمار. فالأرض خضراء تطرّزها الورود وتعبق فيها الرياحين وينتشر في أرجائها موسيقى عذبة من أفواه البلابل والعصافير، ويعلوها سقوفٌ خضراء من شجر العنب، تتدلّى منها الثمار ناضرةً شهية. أمّا النخل فإنَّه يحوط الأرض من جوانبها.

فكانت هذه الأرض لوحةً فنيّةً رائعة، أبدعتها يد بارئها العظيم، فيها الرواء للذوق الفنّي، وتفريحٌ للقلب، ونشاطٌ للإنسان، وأُنسٌ للضمير بما تضفيه على النفس من روعةٍ وجمال.

وكان هذان البستانان – بما فيهما من روعةٍ وجمال– متجاورين، يفصل بينهما نهرٌ جارٍ، جعله الله تعالى لكي يزيد الأرض رواءً، والزرع نظرةً وجمالاً. فكان هذان البستانان يمثّلان لوحةً واحدة، هي من أجمل ما خلق الله من جمال الطبيعة الساحر الفتّان.

ولم تكن دنيا هذا الرجل الإقطاعي مقتصرةً على هذين البستانين، وإنَّما كان له إلى جانب ذلك، دارٌ كبيرةٌ تضمّ أُسرةً كبيرةً وأولاداً عديدين، وخدماً وحشماً وأصدقاء ومقرّبين. أولئك الأصدقاء الذين جلبهم رنين المال وأغراهم بريقه، فجاءوا إليه حيث يكون؛ لكي يعيشوا في كنفه ويقضوا حقبةً من أعمارهم في جواره، فهو كعبتهم التي حولها يدورون، وهدفهم الذي إليه يسعون.

فكان هذا الإقطاعي يقضي معهم أوقاتاً مادّية سوداء، يتمتّعون خلالها بقتل الوقت، وباللعب بالقيم، وتحدّي الفضيلة والأخلاق.





(٦)

أمّا الرجل الآخر، فيمثّل جانب الإيمان بما فيه من اطمئنانٍ وسكينةٍ ووقار، ومن تواضعٍ وزهدٍ وصدق، ومن حكمةٍ وسدادٍ ورشاد، ومن توكّلٍ على الله عزّ وجلّ وإيكالِ جميع الأُمور إلى مدبّرها العليّ العظيم. إلى جانب ما يستلزمه الإيمان من رحمةٍ بالإنسان وعطفٍ عليه، وتوقانٍ إلى أن يهتدي ويرشد، وأن يعمّ في ربوعه الصلاح والوفاق.

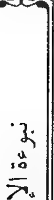
وكان يؤسفه على وجه الخصوص حال أولئك الأغرار الجهلاء المنحرفين، الذين سيطرت على شعورهم بهارج الحياة وأعمتهم عن رؤية الحقّ واستنشاق نسيم الخلود، فقد كان يرى هذا المؤمن أنَّ هؤلاء قومٌ أغرار مخدوعون، نتج حالهم ذلك من الجهل بالقيم العليا والتعاليم الإلهيّة والأخلاق الفاضلة، والتغابي عنها والإعراض عن مقتضياتها. ولا يحتاجون في سبيل إعادتهم إلى الصراط السويّ إلّا إلى إفهامهم حقيقة التعاليم الإلهيّة، ونقاط العدالة والسموّ فيها، ثُمَّ لا حاجة إلى أكثر من ذلك؛ فإنَّ مَن يعرف التعاليم الإلهيّة على واقعها، يُؤمن بها، من دون حاجةٍ إلى مقدّمةٍ أو دليل.

إنَّ دليل ذلك نورٌ موجودٌ في أعماق النفس منبثقٌ من فطرتها وجبلّتها، لا يمكن للإنسان مكابرته وإنكاره، إلّا أنّه قد تحول الحجب المادّية الثقيلة بين الإنسان وبين الاتّصال بفطرته وتلمّس حقيقة وجدانه، تلك الحجب التي أثقله بها الأُفق المادّي الذي انحرف نحوه، وانجرف أمام بهارجه ومغرياته.

ولا يحتاج الداعي في سبيل هدايته إلّا إلى تنبيهه إلى ذلك النور وإفساح المجال أمامه؛ لكي يستطيع أن يشقّ حجابه المادّي، ويتمكّن من الدخول إلى



ذات نفسه، ويتلمّس جذوة الإيمان فيها. وهو بمجرّد أن يلمس هذه الجذوة، فإنّها سوف تطفح إلى الشعور، وتصبح شعلةً وهّاجةً تضيء أرجاء النفس بالعقيدة والإيمان.



(٧)

وقد كان بين هذين الرجلين رابطةٌ مّا ومعرفةٌ خاصّة، لعلّها ناشئةٌ من السكنى في منطقةٍ واحدة، أو كون المؤمن مستأجراً لأحد الدور التي يملكها الإقطاعي.

وكان هذا المؤمن - على عادته في الرحمة بالمنحرفين- يأسف كثيراً على إسراف الإقطاعي على نفسه، وعبادته لشهواته، ودورانه في حلقةٍ مفرغةٍ من أمواله. وكم كان يتمنّى لو عرف طريق الحقّ واتّبع نهج الصواب، واستطاع تحطيم حجابه المادّي الضيّق [و]تلمّس النور الفطري في داخل نفسه.



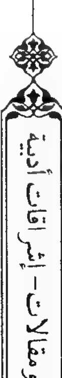
وعليه، فقد كان يرى هذا المؤمن على نفسه واجباً دينيّاً في أن ينتهز أقرب فرصة، لكي يتوجّه بالنصح والإرشاد إليه، لعلّه أن يلتفت إلى واقع حاله وإلى قبيح أعماله، فيرتدع ويثوب إلى الحقّ والرشاد.

ويعتقد هذا المؤمن أنّه بذلك سوف يفوز بمصالح كثيرة، فإنّه سوف يطهّر نفس هذا الشخص من الدنس العالق بها، والصدأ الذي علاها. كما أنّه سوف يخلّص المجتمع من بؤرة الفساد، [التي] قد خلقها هذا الرجل بمجونه وفسقه، ولعلّه يستطيع أن يحوّلها إلى بؤرة إيمانٍ وتقوىً وعقيدة. كما أنّه من ناحيةٍ أُخرى يكون قد خدم عقيدته، ودعا إلى إيمانه بربّه، وإلى تعاليمه العادلة، وأرضى خالقه وضميره.



وفي أيّام الربيع الهانئة الوادعة الجميلة، التي تبهج القلوب وتسرّ النفوس، بما يرسمه الله عزّ وعلا، على الكون من جمالٍ طبيعيٍّ فتّان. في ذلك الفصل الراقص الرائع الذي يمتلئ به الأُفق بالخضرة والقلب بالفتنة، كانت بساتين هذا الإقطاعي قد بلغت أوج الجمال وغاية الزينة والسحر، وقد أخرجت جميع ما تستطيعه من الزرع والنخل والأعناب، والفواكه والأزهار ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾[1]، أي: لم تدع شيئاً من النبات إلَّا أخرجته، ولم تبخس منه شيئاً.

في يومٍ من أيّام هذا الربيع الفاتنة، بدا للإقطاعيِّ أن يتنزّه في الحقول الخضراء، وأن يملأ عينيه من هذا الجمال، وصدره من الهواء العذب العليل. حتى إذا ما وصل بالتمشّي إلى بستانه، جلس فيه بعض الوقت.



إلَّا أنَّه لم يشأ أن تخلو نزهته من رفيقٍ؛ فإنَّ المصاحبة من مميّزات النزهة الرئيسيّة، التي لا توجد لذّتها الحقيقيّة بدونها؛ فإنَّ النفس البشريّة على طبق ما تفهمه من مقاييس اللذّة والجمال، لا ترى في التمشّي المنفرد تلك الفائدة والنشوة التي يجدها الإنسان إذا كان مصاحباً لرفيقٍ صديق.



ومن ثَمَّ عُرضت أمام الإقطاعي مشكلةُ تعيين هذا الرفيق، فهو يعلم بوضوحٍ أنَّ الرفيق المطلوب الذي تستكمل به النزهة متعتها، ينبغي أن يكون على جانبٍ من العقل والفكر، عارفاً بمزايا الأُمور وبطرق الأخذ بالحديث وبأساليب التسلية بمختلف الأفكار، كما أنَّه يعلم بوضوحٍ أن ليس في مَن حوله من الأصحاب والأصدقاء، إلَّا كلّ غبيٍّ وسخيفٍ ومنحرفٍ لا يعرف

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٣.

إلَّا الشهوة ولا يعبد إلَّا المال، خلوٍ من الثقافة والتفكير والشعور النيّر الصحيح.

إذن، فمَن ينبغي أن يكون الرفيق له؟

وفجأة تطفر إلى ذهنه صورة صاحبه المؤمن، إنَّه الشخص الوحيد الذي يعرف اجتماع شرائط النزهة فيه، فقد عهده عاقلاً وقوراً، يوحي منظره بالاطمئنان، وكلامه بقوّة العقيدة والإيمان. ومن ثَمَّ صحّ عزمه على أن يدعو هذا المؤمن ليصاحبه في نزهته المرتقبة.

(٩)

ومن ثَمَّ أرسل عليه فحضر، وعرض عليه الفكرة، فرحّب شاكراً.

وفرح بذلك في سرّه. فقد علم أنَّه سوف ينفرد به في هذه النزهة، وسوف يكون ذلك خير فرصةٍ ثمينةٍ لتنفيذ هدفه فيه، والقيام بواجبه الديني الكبير، لعلّه يستطيع أن يهدي قلبه إلى الإيمان، وأن يتمكّن من إشعال جذوة النور في نفسه، واستئصال جذور الشكّ والفساد.



واستعدّا للخروج... ثُمَّ خرجا... وبدآ بالسير قاصدين بستان الإقطاعي على حسب الخطّة المرسومة. وصارا ينتقلان من جمالٍ طبيعيٍّ، إلى سحرٍ أخّاذ، إلى فتنةٍ رائعة، يتبادلان خلالها طرائف الكلام ولذيذ الحديث.



والكلام - كما هو معروف- عنوان الشخصيّة وصورتها الناطقة، التي تنطبع فيها جهات القوّة والضعف وجوانب النقص والكمال في نفسيّة الإنسان، على طبق الأصل وبشكلٍ موضوعيٍّ مستقيم؛ فإنَّ الإنسان بما يحمل من أفكارٍ وعقائد، وبما يتّصف به من درجةٍ في العاطفة والذكاء، وبما يسير

عليه من أُسلوبٍ في الحياة، ذلك الأُسلوب الذي يميّزه عن غيره ويحدّد معالم شخصيّته المنفردة عن سائر شخصيات البشر، ذلك الأُسلوب الذي يراه بحسب نظره الخاصّ صحيحاً ومستقيماً، ويضفي عليه من غريزة (حبّ الذات) الشيء الكثير .. كلّ ذلك ينطبع في كلامه انطباعاً واضح القسمات.

وعلى طبق هذا القانون كان هذان الرجلان، حيث كان يميل كلٌّ منهما إلى التحدّث عمّا تجيش به نفسه من أفكار، وما تضمّه حياته من أحداث. ومن ثَمَّ كان كلام الرجل المؤمن حاملاً لصفات صاحبه، من الطمأنينة والوقار والعقيدة والإيمان، يضفي على الجوّ مسحةً رائعةً من النور الإلهيّ الشامل، على حين كان حديث الإقطاعي منحصراً في وصف لذائذه وشهواته، ودائراً في فلك عجرفته الفارغة وشخصيّته التافهة.

ولحظ المؤمن بوضوحٍ على لهجة الإقطاعي، ما فيها من تكبّرٍ واغترارٍ بالمال والعقار والأصدقاء. وقد كان صاحبنا يؤمن بعمق، أنَّ الإيمان هو الجوهر الوحيد الذي ينبغي أن يعتزّ به وأن يسمو الفرد على أساسه، وأن تقام القيمة الحقيقيّة للفرد من خلاله، وأنَّ الصداقة على أساس الإيمان والأخوّة في الله هي الأخوّة الخالدة الصادقة، التي لا يمكن أن تقصمها علائق المادّة، أو أن تؤثّر عليها طوارق الحدثان، وأنَّ المال النافع لصاحبِهِ الباعث له على الفخر والاعتزاز، هو المال الذي يُبذَل في سبيل الحقّ والعقيدة وفي سبيل العلم والعمل الصالح؛ دون تلك الصداقة التي تقوم على أساس اللذّة وإطاعة الشهوات وعبادة المال، ودون ذلك المال الذي يُبذل في سبيل ذلك؛ فإنَّ كلّ ذلك يتلاشى بتلاشي اللذائذ المؤقّتة، وينقضي بتصرّم الزمان، ويكون سبباً لضعة الإنسان وانحطاطه، دون عزّته وكرامته.

ومن ثَمَّ حاول هذا المؤمن - وهو في سبيل تطبيق خطّته- أن يُفهم الإقطاعي هذا المعنى الجليل، وأنَّ تكبّره بالمال والنعم المادّية، تكبّرٌ فارغٌ مقيت؛ فإنَّه إنَّما تكون العزّة والكرامة بحقيقة الإيمان والعقيدة.

إلَّا أنَّ هذا المؤمن كان بكلامه ذلك، يطرق على حديدٍ بارد، فليس لدى هذا الإقطاعي عقلٌ يفهم به هذه الأُمور، ولا تفكيرٌ يهضمها، إنَّ ذهنه وأفكاره كلّها منحصرةٌ في أمواله وأولاده وأصدقائه وممتلكاته، ولا شيء غير ذلك، وهذا هو الذي يرى أنَّه ينبغي أن يفتخر به ويعتزّ.

وقد كان هذا الحجاب المادّي الصفيق الذي يحجبه عن منبع النور الإلهي، لا زال قويّاً كثيفاً، لم تقوَ كلمات الإيمان هذه على تحطيمه، أو إحداث ثغرةٍ فيه.



ومن ثَمَّ لم يجد الإقطاعي لكلام صاحبه المؤمن معنىً يفهمه ويعقله، إلَّا كون المؤمن يفتخر عليه، وأنه إنَّما يقرّر هذا القانون العامّ للتقييم، لكي يكون هو بمقتضاه أعظم منه، من حيث كونه مالكاً لجوهر الإيمان دونه.

وقد استنكر الإقطاعي في ذهنه هذه الفكرة واستبشعها، ورأى أنَّها حطٌّ من كرامته، وإهانةٌ موجّهةٌ إليه؛ إذ كيف يجرؤ هذا الشخص الفقير أن يدّعي العلوّ عليه، وهو ما هو عليه من الكبر والعزّة بالأموال والأصحاب والخدم والأعوان، وليت صاحبه يفاخره بأمرٍ معلومٍ لديه، محسوسٍ له، مقنعٍ لضميره، بل إنَّه ليفتخر عليه بشيءٍ فذّ لا يجد له أيّ معنى، ولا يرى له شخصاً أو يسمع صوتاً، إنَّه شيءٌ اسمه الإيمان، ذلك الشيء الذي طالما تردّد على أُذنيه، إلَّا أنَّه رغم إعطائه بعض التفكير لم يستطع أن يعرف له معنىً محدداً في يومٍ من الأيّام. إذن، فكيف يمكن أن يكون مثل ذلك ميزاناً واقعيّاً للتقييم.



ولم يجد الإقطاعي بُدّاً، بعد تلك الطعنة النجلاء على عزّته وكبريائه، من الإفصاح عمّا يجول في ذهنه من أفكار، إفهاماً لصاحبه المؤمن أنّه كان على خطأ في رأيه، وأنَّ المقياس الحقيقي للحياة ليس هو ما ذكره، وإنَّما هو المكاثرة بالأموال والأولاد وبهارج العيش.

ومن ثَمَّ تدحرجت الكلمات من فمه بصفاقةٍ وسخف، فقال لصاحبه وهو يحاوره: أنا أكثر منك مالاً وولداً، وأجدر أن أكون بذلك عزيزاً كريماً.

(١٠)

واستمرّ الرجلان يسيران بين أحضان الطبيعة، يغرقان في جمالها، وينقلبان بين أكنافها، ويستنشقان نسيمها الرطب العليل. حتّى وصلا إلى هدفهما المقصود وهو بستان الإقطاعي، الذي كان أحسن جنّةٍ مرّا بها في هذه النزهة الجميلة.

إلَّا أنَّ انطباع هذه المناظر الطبيعيّة الرائعة، في نفس كلِّ واحد من هذين الرجلين، كان مختلفاً جدّاً، ومبايناً عمّا هو في نفس الآخر؛ فإنَّ الإنسان إنَّما ينظر إلى الواقع الخارجي من خلال نفسه، وبمنظار ذهنه الخاصّ، وعلى مقدار ما يتحمّله أُفق تفكيره وأُسلوب حياته. ويحاول أن يملي على محسوساته أفكاره الخاصّة ويطبع عليها مفاهيمه المعيّنة. وإن كان هذا الأُسلوب من الفهم لا ينفع في أغلب الأحوال إلَّا شخصه، بل قد يضرّه (أحياناً) أيضاً، وقد لا يكون له من المميّزات سوى كونه راضياً به معترفاً بصحّته وصدقه.

وهذا هو الذي حصل بالضبط بالنسبة إلى هذين الشخصين. فقد كان المؤمن – بما يحمل بين جنبيه من عقيدةٍ إلهيّةٍ وإيمانٍ راسخ، وفي حدود ما



انصهرت به نفسه من أفكارٍ، وامتزج مع دمه من معتقدات- كان ينظر إلى الكون من خلال هذا المنظار ويحاول أن يفهمه ضمن هذه الحدود.

إنَّه ليرى الطبيعة بما لها من جمالٍ فاتن، وتنسيقٍ دقيق، إنَّما هي من صنع يدٍ قادرةٍ حكيمة، أحكمت صنعها ودبّرت أمرها وأحسنت خلقها، وأنَّ في كلِّ ورقةٍ ووردةٍ وثمرة، وفي كلِّ عصفورٍ صادح، وبلبلٍ مغرّد، وشجرةٍ مثمرة، ونسيمٍ عليل، أكثر من آيةٍ ودليل، على وجود مبدعها ومكوّنها؛ فإنّها لم تكن لتوجد لولا ما أفاضه عليها من فضلٍ وإحسان، وما رزقها من تدبيرٍ وإحكام.

وبالاختصار: فإنَّ هذه الطبيعة الجميلة التي يعيشها هذا المؤمن، إنَّما هي لوحةٌ فنيّةٌ رائعةٌ رسمتها يد بارئها القدير بدقّةٍ وإتقان.

وعليه، فقد كان هذا المؤمن في نزهةٍ وجدانيّة روحيّة، كما هو في نزهةٍ مادّيّة، يتفكّر في خلق الله عزّ وجلّ طبقاً لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾[1].

أمّا الإقطاعي، ذلك الرجل الذي يحمل بين جنبيه فكراً مادّيّاً، وعقيدةً متفسّخة، ونفساً توّاقة إلى المال والشهوات، فهو ينظر إلى الطبيعة بعينٍ أُخرى، عينٍ تقتصر على الظواهر وعلى ما تحسّه وتلمسه، ولا تستطيع - بما عليها من أثقال وأغشية- أن تغور إلى الحقائق، ولا أن تدقّق في العلل والنتائج.

فهو يرى أنَّ الجمال الطبيعي بما فيه من روعةٍ وسحرٍ باقٍ إلى الأبد، غير قابلٍ للزوال والفناء، فقد كانت الطبيعة هكذا ولا تزال، وستبقى على نفس المنوال أزليّةً أبديّةً بدون أن تحتاج في وجودها إلى خالق، ولا في تدبيرها إلى منظّم.



---

(١) سورة الروم، الآية: ٨.

وقد أيّدت هذه الأفكار في ذلك الحين، وأذكت أوارها، النشوة النفسيّة العارمة التي كان يعيشها في تلك اللحظات السعيدة الحالمة، تلك النشوة التي يضفيها عليه جمال الطبيعة العظيم، بالإضافة إلى إحساسه بأنّه مالكٌ له، مسيطرٌ عليه، قادرٌ على التصرّف فيه وتطويره، وأنَّ له الحقّ الكامل بالأخذ بأكبر قسطٍ من التكبّر والعجرفة على أساسه.

(١١)

وجلس الرجلان في ركنٍ جميلٍ من أركان الجنّة الواسعة، وانطلقت نفساهما تجول بين ما فيها من جمال، وما تحتويه من سحرٍ وجلال.

وفي غمرة ذلك السرور الطاغي والنشوة اللذيذة، جالت في ذهن الإقطاعي أفكارٌ وأفكار. وكانت كلّ أفكاره مؤيدةً لما يملكه من عجرفةٍ جوفاء، وتفاهةٍ في الشخصيّة، وقصورٍ في التفكير، فكّر الإقطاعي في هذا الجمال الطبيعي، وفكّر في أرضه، وفكّر في أمواله وأصدقائه، وفكّر في عقيدته وفي ما سبق أن سمعه من دعاة الدين من كلام. وكانت أفكاره جميعاً تصدر من خلال أُفقٍ ماديّ ضيّقٍ يقيس الأشياء بمصالحه الشخصيّة ومحسوساته المباشرة.

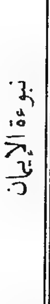
ففي تلك اللحظة التي كانت نفسه طافيةً فوق أُفقٍ أشقر جميل، ذلك الأُفق الذي حبكت سداه اللذّة ولحمته النشوة، ذلك الأُفق الذي يجد فيه المؤمن نعمةً من أنعم بارئه الكريم، ونفحةً من نفحات قدسه الفيّاضة.

في تلك اللحظة كانت الأفكار الماديّة تجول في ذهنه بقوّةٍ وعنف، وتلحّ عليه إلحاحاً شديداً، وكان الإقطاعي مرحّباً بها، فرحاً بوجودها، مطمئنّاً إليها.

عندئذٍ، وفي تلك اللحظات التي يحلو بها جميل الكلام، وتستعذب فيها طرائف الحديث، لم يرَ هذا الإقطاعي بدّاً من أن يصرّح بذات نفسه، ويعرب عمّا في ذهنه لصاحبه المؤمن، علّه يتمكّن من إذلال كبريائه بإيمانه، وترفّعه بعقيدته، تلك الكبرياء وذلك الترفّع الذي لمسهما منه وهو في طريقه إلى جنّته، كما أنّه يستطيع بذلك أن يعزّز كبرياء نفسه، ويستدلّ بدليلٍ جديد، على استحقاقها لما هي فيه من العجرفة الفارغة.

إنّه يعرف أنّ صاحبه مؤمنٌ مخلص، قد تشبّعت نفسه بنور الإيمان واطمأنّتْ إلى اليقين، كما أنّه لم يفتْه تذكّر بعض معتقداته من وجود الخالق جلّ وعلا، وفناء العالم وقيام الساعة، تلك المعتقدات التي لم يفكّر الإقطاعي أن يسمح لها لأن تعرف إلى ذهنه طريقاً أو إلى قلبه سبيلاً، محتجباً ضدّها بأكداس المال وأغشية المادّة الصفيقة التي تمنعه من الوصول إلى هذا المرتقى الرفيع.

وحيث إنّه يعرف أنّ الكلام مع كلِّ شخصٍ ينبغي أن يكون في حدود ما يحمله المخاطب من أُفقٍ ذهنيّ، ومن أُسلوبٍ في التفكير والتعبير. إذن، فقد فكّر بأن يجعل كلامه مناقشةً مباشرةً لمعتقدات صاحبه المؤمن، وأن يحاول الاستدلال جهده على بطلانها، جاعلاً الأفكار المادّية هي البرهان الرئيسيّ على ذلك.



(١٢)

وفي غمرة من السرور، بدا الإقطاعي وكأنّه حالمٌ يبعث بنظره إلى الأُفق البعيد، قد أخذ عليه جمالُ الطبيعة جميعَ جوانب نفسه واستولى على ذهنه، وبدا وكأنّه يفكّر في شيءٍ جديد، شيءٍ يدور على لسانه يريد التصريح به. وأصاغ صاحبه المؤمن إليه ليسمع. عندئذٍ برزت الكلمات تتهادى بين طيّات الهواء بنشوةٍ

وفتور، حتّى إذا ما وصلت إلى أُذن المؤمن سمعه يقول: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾[1].

قالها الإقطاعي ولم يرعَ عواطف صاحبه المؤمن وعقيدته، كما لم يلتفت إلى وجوب مجاملة الجليس وحسن مخالطته، وإنّما ألقاها صخرةً صمّاء لم يفكّر بنتائجها، ولم يعرف مدى تأثيرها.

فهو يرى، بما كان يعيشه في تلك اللحظات من نشوةٍ نفسيّةٍ عارمة، ضيّقت عليه أُفقه المادّي، وأعمته عن الحقيقة، وجعلته يخبط في الظلام، يرى بأنَّ هذا الجمال الطبيعي غير قابلٍ للزوال إلى الأبد، وأنَّ هذه الجنّة الغنّاء بما فيها من روعةٍ طبيعيّةٍ وسحرٍ ستبقى بلا انقطاع.

وهذا في نفسه أمرٌ مضحك، وواضح البطلان، حتّى للشخص المادّيِّ التفكير، الدنيويّ العقيدة، فإنَّه لا أقلّ من الاعتراف بالموت وتقلّبات الزمان وأنَّ هذه الجنّة سوف يمرّ عليها زمان مهما طال، تكون بعده خارجةً عن ملكه أو معدومة النبات بالكليّة. إلّا أنَّ الغفلة وقصور التفكير وتفاهة الشخصيّة، لا يُستغرب منها مثل ذلك.

إلّا أنَّ هذا الأمر المضحك، يحتوي ضمناً على أمرٍ آخر يشترك فيه هذا الإقطاعيّ مع سائر المادّيين، وهو القول بقدم المادّة، والقول بذلك وإن لم يكن يستلزم على الحقيقة نكران الخالق القدير عزّ شأنه، إذا كان الشيء القديم ممكناً أيضاً ومحتاجاً إلى علّةٍ خالقة، ولا يختلف في ذلك عن الحادث في شيء، إلّا أنَّ هذا القول قد أصبح شعاراً مادّياً يتمسّك به ذووه، ويصرّون عليه إصراراً شديداً، فإنّهم بعد أن أنكروا الخالق، لم يجرؤوا على القول بأنَّ الكون وُجد من

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٣٥-٣٦.

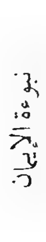
العدم صدفةً دفعةً واحدة على تنظيمه المعهود، لعلمهم أنَّ هـذا ممّـا تـستنكره العقول، فالتجأوا إلى فرض أزليّة المادّة وعـدم قابليّتهـا للفنـاء؛ لكـي يـبرّروا وجود الكون من العدم، ولم يعلموا أنّهم بذلك وقعوا في عدّة محاذير، فليست هذه الأزليّة في المادّة ممّا يخضع لمعمل العـالم الطبيعـي ولا لإحـساسه، فكيـف يستطيع دعوى ذلك، وهو إنَّما أنكر الخالق لنفس هذا السبب.

إذن، فليعترف بالخالق إلى جانب اعترافه بقدم المـادّة؛ فإنَّـه لـيس أبعـد منها عن الحسّ وعن مدركات الحياة المعهودة.

كما أنَّ هذا القول لا يفيدهم في الإنكار، بعد أن كان القـديم محتاجـاً إلى العلّة كالحادث، بعد اشتراكهما في صفة الإمكان. كما أنَّ هذا القول من ناحيـةٍ ثالثة، وقوعٌ بالمحذور نفسه، ورجوعٌ إلى ما حاولوا الهرب منه في دائرةٍ مفرغة. فإنَّه لم يبقَ بعد الاعتراف بقـدم مبـدأ الموجـودات إلَّا معرفـة صـفات المبـدأ، والبرهنة على أنَّه يجب أن يكون حكيماً قادراً عالمـاً حيّـاً مريـداً مختـاراً، ولـيس ذلك على أهل الحقّ بعزيز.

فالإقطاعي، وإن لم يكن يعرف هذه التفاصيل، إلَّا أنَّه يتخيّـل أنَّ قولـه بقدم المادّة ملازمٌ لإنكار الخالق عزّ وعلا، وكفر نعمتـه، وأنَّـه مـلازمٌ لإنكـار البعث في يوم القيامة وإنكار الحساب والعقاب والثواب، لذا فقد استنتج مـن مقدّمته المادّية القائلة بخلود الجمال الطبيعي، بأنَّه لا يظنّ الساعة قائمة.

ولوازم هذه المقدّمة، ليست أحـسن منهـا حظّـاً في الانحطـاط وضـيق النظر، فإنَّه إنَّما يتفوّه بها مَن اقتصر على النظر إلى حدوده الضيّقة ودار في فلكه المادّيّ المقيت، ولم ينظر إلى النور المشرق في الكون الرحيب، ذلك النور الإلهيّ الذي تنطق به كلّ ورقةٍ في هذه الجنّة وكلّ ثمرةٍ وكلّ طير.





ثُمَّ أردف الإقطاعي المتعجرف، وكأنَّه في موقف جدلٍ عنيف: إنَّـه عـلى تقدير التنازل عمّا قاله، وافتراض قول المؤمنين بوجود الخـالق وقيـام الـساعة صحيحاً، فإنَّ هذا الإقطاعي لن يجد على ما يعتقـده - إذا رجـع إلى ربّـه يـوم القيامة- إلّا كلّ خير، وسوف يتوفّر لديه هناك ما هو خيرٌ من جنّته هـذه عـلى كلِّ حال.

وكأنَّ الإقطاعي يريد أن يستنتج من هذا الكلام، أنَّه سعيدٌ ولن يرى إلَّا الخير على كلِّ حال، سواء كان معتقد المؤمنين صـادقاً أو كاذبـاً، فإنَّـه إذا كـان كاذباً، كما هو يراه، وإذا كانت المادّة خالدةً والنعيم الـدنيوي أزليّ البقـاء، إذن فسوف يبقى متمتّعاً به متقلّباً في أكنافه إلى الأبد، وإذا كان قولهم صـادقاً فهـو لن يرى يوم القيامة من خالقه العظيم إلَّا الخير.

ولعلّ اعتقاده هذا ناشئٌ من اعتقاده - ولـو بـشكلٍ لا شـعوري- بـأنَّ الله تعالى خيرٌ محض، ولا يمكن أن يصدر منه إلَّا الخير، ويـستحيل صـدور العقـاب منه، غافلاً عن أنَّ معنى كونه خـيراً محـضاً، أنَّـه حكـيمٌ ومريـدٌ، وأنَّـه عـادلٌ يستحيل عليه الظلم، وليس من العدل ولا الخير أن يثيب المذنب الكـافر بـه، المتمرّد على تعاليمه، ومن هنا كان جعل العقاب أحد الحكم الإلهيّة العميقة في الدقّة والإتقان.

(١٣)

اندهش المؤمن واستاء وتكدّر عليه صفو نفسه، عنـد سـماعه هـذا الكـلام المنحرف من هذا الإقطاعي العنيد. إنّه المؤمن الذي يعيش الآن في نـشوةٍ روحيّـةٍ غامرة، كما يعيش في النشوة المادّيّة، إنَّه يرى في كلِّ نفسٍ من أنفاس الطبيعة، وكـلّ ورقةٍ من أوراقها وزهرةٍ من أزهارها، دلائل وبراهين على صدق معتقده وإيمانه.

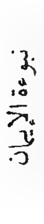
هذا المؤمن يجد نفسه الآن يجابه مثل هـذا القـول الحـادّ القـارس الـذي يقابل معتقده وجهاً لوجه، ويحاول أن يستدلّ ضدّه.

إنَّه ليعلم بوضوحٍ أنَّ كلّ ما قاله الإقطاعي لـيس إلَّا مكـابرةً واضـحةً على الوجدان والضمير، وليس ناتجاً إلَّا عن الاقتصار في التطلّع إلى الكون من خلال المنظار المادّي الضيّق الذي وضعه الإقطاعي على عينيـه، بإسرافـه عـلى نفسه وإغراقه بالفساد والرذيلة، كما أنَّ هذا القول مصداقٌ واضحٌ لكفر العبد لنعمة مولاه وتمرّده عليه، مع أنَّ المولى - عزّ وعـلا- هـو المـنعم عليـه، وهـو مستحقّ لكلِّ شكرٍ وثناء، وكلّ إخلاصٍ وإيمان.

ومن هنا رأى المؤمن أنَّ فرصته الذهبيّة قـد حانـت، وأنَّـه لا يمكنـه أن يضيّعها بحال، فإنَّه قد لا يجد مثلها بعدئذٍ.

فإنَّه وجد أنَّ واجبه الديني يقتضي عليه بإصرارٍ ووضوح، أن يـردّ عـلى هذا الافتراء الفاضح، بعد أن أفصح هذا الإقطاعيُّ عن مكنون سرّه، وأعلـن الكفر والجحود، ولم يكتفِ بالإشارة والتلميح وفحوى الخطـاب الـذي كـان يكتفي به قبل ذلك. إذن، فلا ينبغي أن يكتفـى معـه بالإشـارة والتلمـيح بـل ينبغي أن يقـوم المـؤمن بواجـب التوجيـه الـديني والإرشـاد بـصراحةٍ وقـوّةٍ ووضوح، ويجب أن يلقم هذا الإقطاعيَّ المتعجرف حجـراً لا يعـود بعـده إلى مثل هذا الكلام.

ومن هنا اندفع المؤمن بحرارةٍ وقوّة نحو الجواب على كلام الإقطـاعيّ، غير مبالٍ بما يمكن أن يترتّب على ذلك من ضررٍ قد يمسّه منه؛ فـإنَّ الواجـب الديني فوق كلّ اعتبار، كما أنَّ الصدمة التي أصابت ضـمير هـذا المـؤمن مـن هذا الكلام الجارح، أغفلته عن التفكير في مثل هذه العواقب، بل وحتّى عـلى





فرض عقاب الإقطاعيّ له، فإنّه سوف يرى عليه من ربّه العليّ العظيم من الثواب الشيء الكثير.

و﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾[1].

فقد رأى المؤمن أن يلفت نظر الإقطاعي أوّلاً إلى أقرب شيءٍ إليه وألصقه بنفسه، هو نفسه بالذات وكيانه ووجوده، كرجلٍ من الرجال يفكّر ويعمل ويملك المال والعقار والأصدقاء، ويستنشق نسيم الحياة، ويستطيع أن يتمتّع بكلِّ ذلك وأن يجني ثمراته كما يريد.

إنَّ كلَّ هذا متوقّفٌ على وجوده الشخصي في الخارج، ذلك الوجود الذي هو من فيض الله وإحسانه وفضله، ذلك الوجود الذي يدلّ بكلِّ جزءٍ من أجزائه وبجميع معالمه وتفاصيله، على قدرة خالقه العظيم وحكمته البالغة.

وما رأيك بهذا الذي أفاض على الشخص نفسه ووهبه ذاته، وجعله شاعراً بوجوده متمتّعاً بكيانه، إنّها أعظم النعم على الإطلاق في هذا الكون الفسيح، فإذا كان قد وهبه إلى جانب ذلك فكراً ثاقباً أو مالاً جسيماً أو حياة سعيدة، فذلك مزيد فضلٍ وإحسان.

ما رأيك في هذا المنعم العظيم كيف ينبغي أن يطاع وكيف ينبغي أن يزجى له أقصى الشكر وغاية الحمد والثناء، فضلاً عن أن يعترف به أو يصدّق بوجوده. بل إنَّ هذا المؤمن ليرى أنّه من حقّ خالق النفس على النفس، أن تفنى هذه النفس في سبيله، وأن تكرّس حياتها على طاعته ومرضاته.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٧.

إذن ما أفظع هذا الكفر والجحود الذي صدر من هذا الإقطاعي، وهـذا الإنكار المباشر لربّه ولتعاليمه وإرشاداته، ذلك الـربّ القـادر العظـيم الـذي خلقه من ترابٍ ثُمَّ من نطفةٍ ثُمَّ سوّاه رجلاً.

والمقصود من خلق الإنسان من الـتراب: أنَّ الجسم مكـوّنٌ مـن نفـس الموادّ التي تتكوّن منها القشرة الأرضية، كما أنَّ نموّه وصحّته منوطةٌ بما يخـرج من الأرض من النبات وما ينمو عليه من حيوان.

فالإنسان من التراب وإلى التراب؛ ولذا صحّ جعل التراب المرحلـة الأُولى من مراحل خلق الفرد، على أساس كونه المادّة الأساسيّة في تكوين جسمه.

وأمّا المرحلة الثانية للخلق، فهي النطفة واعتبار النطفـة مرحلـةً ثانيـة، مـع أنّها المبدأ الأوّل لخلق الإنسان، يعود إلى أنّها بدورها مكوّنةٌ مـن الـتراب ومخلوقـةٌ منه بطريقٍ غير مباشر، ذلك التراب الذي اعتبر المرحلة الأُولى في الخلق.

والنطفة، ذلك الماء اللزج المهين، الذي لا يزيد في نفسه شرفـاً، عـلى أيّ من فضلات الإنسان، نراه يتطوّر ويتطوّر، ويعبر المراحل إثر المراحل، فيصبح جنيناً ثُمَّ طفلاً، ثُمَّ صبيّاً ثُمَّ رجلاً، حاملاً لجميع صفات الإنـسانيّة مـن قلـبٍ وفكرٍ وعمل، مفتوحةٌ أمامه باب الآمال ومدارج الطموح.

كلّ هذه المراحل - بما فيها من تطوّراتٍ دقيقة وتفاصيل- إنّـما هـي آيـةٌ من أوضح الآيات على قدرة خالقها وحكمته، وعلى صواب تـدبيره وحـسن اختياره؛ كما قال الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1]. فما كانت كلّ هذه المراحل لتوجد وكلّ هذه الدقّـة لتكـونَ، نتيجـةً للصدفة العمياء، وبشكلٍ عفويّ لا أثر للقدرة والاختيار فيه.

(١) سورة التين، الآية: ٤.

إذن، فما أولى الخالق العظيم بالشكر والامتنان، وبالعقيدة والإيمان.

ومن هنا نرى هذا المؤمن يعنّف الإقطاعي على كفره بخالقه، وجحوده لنعمته عليه بنفسه ووجوده، وبما يحفّ هذا الوجود من مالٍ وعقار، وأصدقاء وأعوان، وقدرةٍ على التمتّع بكلّ هذه الأُمور، وتفكيره بتدبيرها وتطويرها.

(١٤)

ويستنتج هذا المؤمن من دليله هذا، برهاناً جديداً على صدق معتقده وصواب إيمانه، وأنّه لا يمكنه أن يوافق الإقطاعي على هذا الكفر والجحود الذي بدر منه، وإنّما هو يقف على النقيض منه في الإخلاص لله والتوجّه إليه والتوكّل عليه.

ولذا نراه قد أردف قائلاً: ﴿لَكِنَّا﴾ أي: لكن أنا ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾، وهذه هي النتيجة الطبيعة للدليل الذي أقامه ﴿وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾.

وهذه أيضاً نتيجة طبيعيّة أُخرى لذلك الدليل بعينه، فإنّه لا يمكن كما تحكم به فطرة العقل، أن يصدر ذلك الخلق المنظّم الدقيق من خالقين، وأن يقوم بتدبير الكون قوّتان، وإلّا آل إلى الخراب والفساد؛ لأنّهما إن كانا مستقلّين بالإرادة، كما هو مقتضى فرض كونهما إلهين، فسوف يختلفان في الرأي؛ حيث يريد أحدهما إيجاد شيء، ويريد الآخر عدمه، فيلزم اجتماع النقيضين، أي: اجتماع الوجود والعدم في شيءٍ واحدٍ في عين الوقت، وهو من المحالات العقليّة البديهيّة، كما أنّه عند اختلاف الرأي وانشقاق عصا الاتّفاق يتبعثر الكون ويسوء النظام ويستحيل أن يبقى بهذا الكمال وهذه الدقّة في التنظيم والترتب.

كما أنّ هذا القول من المؤمن يحتوي على إشارةٍ واضحة، إلى تعنيف

الإقطاعي من ناحيةٍ أُخرى، هي كون الإقطاعي قد أشرك في كلامه السابق بالله عزّ وجلّ، على حين قد أقام المؤمن دليلاً على بطلان الشرك وصحّة التوحيد.

وإنّما كان الإقطاعي مشركاً؛ لأنّه مخلصٌ للمادّة متهالكٌ عليها، جاعلٌ إيّاها هدفه الأسمى ومثَلَه الأعلى، يعبدها ويقدّسها ويقوم بخدمتها بحرارةٍ وإخلاص. بالإضافة إلى أنّه اعتبر هذا الموجود المقدّس عنده أمراً أزليّاً أبديّاً غير قابلٍ للزوال.

وهذا الأُسلوب من النظر إلى المادّة، يجعل الفرد مشركاً للمادّة مع الله تعالى في العبادة والتقديس والإخلاص، وهذا هو عين الشرك بالله العليّ العظيم، تماماً كما قال في كتابه الكريم: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[1].

فإنَّ مرتبة الحبّ الإلهي ينبغي أن تبقى في قلب المؤمن محفوظة، لا يشاركها في مرتبتها شيءٌ، وذلك هو التوحيد الإلهيّ الصحيح. أمّا إذا ضعف الحبّ الإلهيّ في النفس أو انعدم، وبرز أمرٌ آخر من داخل النفس يحاول أن يسيطر على إحساسها ويستولي على حبّها وتقديسها، ممّا لا يمتّ إلى الجانب الإلهيّ بصلة، فإنْ رَضِيَ الفرد بذلك فقد أشرك الله تعالى في إخلاصه وحبّه مع أمرٍ آخر، الذي هو لا يعدو أن يكون أحد مخلوقاته، وأمراً متواضعاً حقيراً إذا نسب إلى الوجود اللانهائيّ العظيم، سواء كان هذا الأمر هو المادّة أو الشهوات أو الأغراض المنحرفة، أو غير ذلك من الأُمور.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(١٥)

إذن، فهذا المؤمن المخلص ليرى بوضوح، متفرّعاً على ما قاله: أنَّ هذا الإقطاعي لا ينبغي له أن يكفر بالله العليّ العظيم، ولا أن يجحد نعمته، ولا أن يشرك به شيئاً في الإخلاص والإيمان والحبّ؛ فإنَّ جميع هذه النعم التي يتقلّب خلالها ليست إلَّا من رزق الله تعالى وإفاضته وحسن توفيقه له.

إذن، فينبغي أن يشكر الله ويحمده، ويتوجّه إليه ويتوكّل عليه، ويذكره عند رؤية أيّ نعمةٍ من نعمه، أو تذكّر أيّ فضل من آلائه.

لذا نرى صاحبنا المؤمن يعقّب كلامه مع الإقطاعي قائلاً: ﴿وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾[1] كان؛ فإنَّ هذه الجنّة إنَّما وُجدت بفضل الله ومشيئته، ولم تكن لتوجد لولا إرادته وفضله ﴿لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾[2] أمام طوارق الحدثان وحوادث الزمان.

فإنَّ هذا هو الأجدر بك - يا إقطاعيّ - أن تكونه، أمام نعم الله عليك وحسن توفيقه لك.

(١٦)

كما أنَّ صاحبنا المؤمن يرى بعمق، أنَّ المادّة لا يمكن أن تكون هي الضابط الكلّي للتكبّر والعزّة، فإنَّ الموازين الروحيّة والعقليّة هي الأجدر بأن تكون كذلك؛ فإنَّ هذه الموازين هي الأطول بقاءً والأعمق أثراً، إنَّها هي الموازين الحقيقيّة الخالدة التي لا يمكن أن تتغيّر إلَّا نحو السموّ والارتفاع.

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٣٩.



أمَّا المادّة، فهي بالرغم ممّا فيها من جمالٍ وسحر، وما تتضمّنه من بهارج ومغريات، وما تسبّبه من لـذّةٍ ونـشوة، فإنّهـا فانيـةٌ زائلـة، غـير قابلـةٍ للبقـاء الطويل، فضلاً عن أن تكون أمراً أزليّاً أبديّاً. فإنّه حتّى على تقدير القول بقـدم المادّة، إلّا أنَّ الأمر الذي يفتخر به الإقطاعي ويتكبّر على أساسه - وهـو المـال والجمال- أمرٌ زائل لا محالة بالوجدان، ومتصرّمٌ بانقضاء الزمان.

فكيـف يمكـن أن يكـون هـذا الأمـر المتحـوّل الزائـل ميزانـاً حقيقيّـاً صحيحاً، لشرف المرء وعزّته وكرامته.

بل يمكن أن يُقال أكثر من ذلك، فـإنَّ النعمـة قـد تـزول عـن الغنـيّ، ويتلبّس بها الفقير، فيتّضع الأوّل ويصعد الثاني، بهذا المقياس الضيّق المقيـت. فإذا تبدّل الحال مرّةً أُخرى، انعكس الميزان ... وهلمّ جرّا. إذن، فألف سـلام على الأذواق والعقول.

لذا نرى هذا المؤمن يعقّب كلامه للإقطاعي قائلاً: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾[1]، أي: بالرغم من أنّك تراني الآن أقلّ منك مالاً وولـداً ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾[2]، وهـذا أمـرٌ محتمـلٌ، ولـيس عـلى قـدرة الله وحسن توفيقه بعزيز، وحينئذٍ فأكون خيراً منك، لو أخذنا بمقياسـك المـادّي الضيّق.

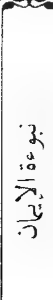
أمَّا أرضك العامرة، بما فيها من جمالٍ طبيعيٍّ فاتن، فإنّه يهلكهـا ويفنيهـا بقدرته جلّ وعلا ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا﴾ آفةً ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾[3] كالـصاعقة أو

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٠.



الإعصار، والمقصود من إرساله من السماء كونه يأتي من جهة العلوّ في قبال كونه نابعاً من باطن الأرض، كالبركان أو حادثاً على سطحها كالفيضان والحريق ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾[1]، أي: أرضاً ملساء يزلق عليها الإنسان، وهو كناية عن انعدام أيّ شيءٍ من النبات فيها.

وعندئذٍ سوف تكون أنت أحطّ منّي بحسب مقياسك، وسوف لن تستطيع أن تفخر عليّ بأيّ شيء.

وهذا أيضاً محتمل الوقوع، بل مؤكّده. فإنَّ هذا المؤمن يعتقد بما عنده من عقيدةٍ وإيمانٍ إلهيّ، وبما يعلمه من تجارب السابقين في تاريخ البشريّة الطويل، بأنَّ الجحود إذا بلغ إلى هذه المرتبة العظمى من الصلابة والرسوخ ومن العناد والتمرّد، فإنَّ الله تعالى لا يمكن أن يبقي صاحبه على حاله سادراً في غيّه، وإنّما لا محالة يسلب نعمته منه ويقتطعها من يده، وبذلك فإنَّ الجاحد يرى عقابه في الدنيا قبل الآخرة.

وما ذلك إلّا لأنَّ مثل هذا الشخص المعاند، لم يعد أهلاً لتلقّي النعمة والتقلّب بالفضل الإلهي؛ فإنَّ الشخص الذي هو أهلٌ لبقاء النعمة وزيادتها، إنّما هو من تعهّدها بالشكر والثناء على المنعم المتفضّل عزّ وعلا، طبقاً للقانون الذي قرّره عزّ وجلّ في قوله في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[2].

وفي الحقيقة أنَّ الإقطاعي كان بحاجةٍ - في سبيل التفاته إلى نفسه،

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

ومعرفته لربّه، وخروجه عن غيّه- إلى مثل هذه الرجّة العنيفة. فقد كان بالغاً مبلغاً من التحجّر والجمود، بحيث لا يمكن أن يؤثّر فيه الكلام ولا الوعظ والإرشاد مهما كان بالغ التأثير قويّ النبرة، فإنَّ للكلام مرتبةً من التأثير يقف عند نهايتها، ولا يمكنه أن يؤثّر في مثل هذا الشخص أو أن يكسر حجابه المادّي الصفيق، بعد أن استحال هذا الحجاب إلى عمىً في عينيه وصمم في أُذنيه عن رؤية الحقّ وسماع صوته، فكان مصداقاً واضحاً لقوله عزّ من قائل: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[1].

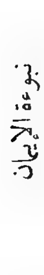
وإنَّما يحتاج مثل هذا الشخص إلى صدمةٍ قويّة، تصيب مصالحه الشخصيّة بالضرر، وشهواته وأمواله بالتلف والانحطاط، صدمة تأتي بعد الوعظ والإرشاد والإنذار، وتكون كنتيجةٍ لها وأثرٍ من آثارها، بحيث يعلم الجاحد بوضوح أنَّه إنَّما أُصيب بها لأجل جحوده وكفره.

إنَّ مثل هذه الصدمة فقط يمكنها أن تعيد هذا الجاحد إلى رشده والصواب إلى ذهنه، وتكون له دليلاً على سوء مسلكه السابق وقبح عقيدته، كما تبرهن له على صحّة الإيمان وصدق عقيدة المؤمنين.

(١٧)

لذا فإنَّ الإقطاعي لم يعر - وهو في غمرة تلك النشوة والسرور- إذناً صاغيةً لحديث صاحبه المؤمن، على ما فيه من حكمةٍ بالغةٍ وتهديدٍ شديد، ولم يفكّر أن يسمح لها أن تدخل في ذهنه لحظةً من الزمان، بل لعلّه أنال صاحبه

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧١.



المؤمن بعض المكروه نتيجة هذا الكلام الصريح معه.

إلّا أنّ الحكمة الإلهيّة التي كانت تستعرض حال هذين الرجلين ومحاورتهما عن كثب، رأت لزوم تطبيق هذا القانون الذي أدركه المؤمن وأعرب عنه، وأنّه قد حان الوقت لإنزال العقاب على هذا الإقطاعيّ المتعجرف، وخاصّة بعد أن سمع الموعظة البالغة ولم يعر لها أذناً صاغية.

(١٨)

ولم يمضِ بعد انفضاض تلك الجلسة زمانٌ طويل إلّا ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾، فقد تناهى إلى سمع ذلك الإقطاعي احتراق نباته وتلف أرضه، وتكدّس الزرع فوق الأرض ذابلاً مصفرّاً.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أسفاً ﴿عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾[1] من المال والعناية؛ فإنّ كلّ ذلك يبدو الآن ولا أهمّية له ولا أثر، بعد أن هلك نباته وأصبحت أرضه ﴿خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾[2] أي: سقطت عروش العنب بما تحمل من كروم على وجه الأرض.

وقد أثّرت هذه الحادثة على شعوره تأثيراً عظيماً، وأخذت مصيبته بمجامع نفسه. وفي غمرةٍ من تلك الحال فقط اضطرّ الإقطاعيّ أن يسمح لفكره بأن يجول، ولعقله بأن يفكّر، فإنّ هذه الحادثة لم تذهب سدىً، وإنّما قد أنتجت نتيجتها المطلوبة، وهي حمله على التدبّر والتفكير، بعد أن كسرت أُفقه المادّي وحطّمت حجابه الصفيق.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٢.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٢.



وفكّر الإقطاعي في كلِّ شيء، فكّر في أرضه وفيما كانت عليه من روعةٍ وجمال، وفي حاله، وفيما كانت تتّصف به من كفرٍ وجحود، وفي صاحبه وما صدر عنه من وعظٍ وإرشاد، وفي نبوءته نبوءة الإيمان التي تحقّقت، وكأنّه كان يقرأ القدر من وراء الغيب.

إنَّه لم يكن قبل ذلك ليسمح لنفسه حينئذٍ أن تتفهّم وأن تُدرك، أمّا الآن فينبغي له أن ينظر فيمعن النظر، وأن يفكّر فيحسن التفكير: أنَّ هذه الحادثة - بما تحمل في طيّاتها من ألمٍ، وما تتّصف به من خسران- لم تكن لتقع لولا جحوده لأنعم ربّه، وإعراضه عن ذكره والتوكل عليه، فلو كان شخصاً مؤمناً شاكراً -كما نصحه صاحبه أن يكون- لكان الآن متمتّعاً بأرضه، مسروراً بجمالها.

إذن ينبغي له أن يصغي إلى الوعظ والإرشاد، وأن يحاول أن يتفهّمه وأن يتّعظ به، قبل أن ينزل به عقابٌ أشدُّ من ذلك وأدهى، وينبغي له أن يتوب ويثوب، وأن يحاسب نفسه ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾[1].

عندئذٍ أطلق في الهواء زفرةً طويلة، تحمل من المعاني الشيء الكثير، وهو يتمتم بحرقةٍ وأسف: ﴿وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾[2].

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ﴾[3] في تلك الحادثة المؤلمة ﴿فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[4] ويدفعون مصيبته عنه؛ فإنَّ إرادة الله فوق كلّ إرادة، وهي حكمٌ تكوينيٌّ

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٢.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٣.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٤٣.



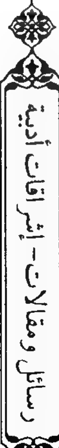
واجب التنفيذ، ولا حيلة لأحدٍ في دفعه ﴿وَمَا كَانَ﴾[١] هو نفسه في تلك الحادثة ضدّ إرادة الله ﴿مُنتَصِرًا﴾[٢].

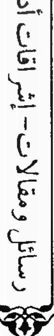
﴿هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾[٣][٤].

محمّد الصدر

النجف – العراق





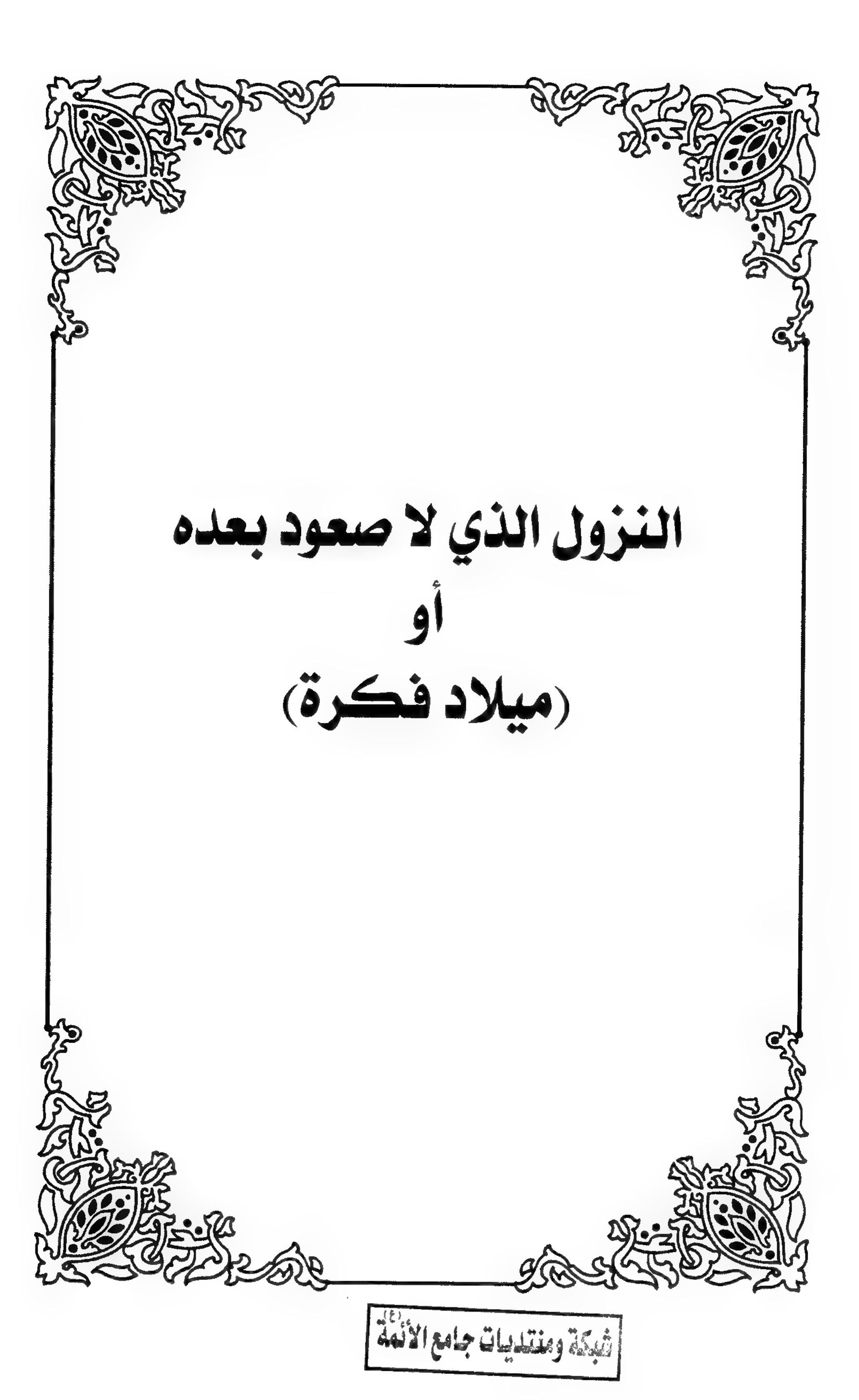


(١) سورة الكهف، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٣.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٤.

(٤) نشر هذا البحث في مجلّة النجف، العدد الخامس، من السنة السادسة، بتاريخ: ١٩٦٦م.



النزول الذي لا صعود بعده
أو
(ميلاد فكرة)

النزول الذي لا صعود بعده

أو

(ميلاد فكرة)[1]

أراني أُمسك القلم وأحاول الكتابة؛ لأنَّ فكرةً تجول الآن في ذهني، وآسف عليها إن أهملتها أن تذهب أدراج الرياح.

ربّما كانت هذه الفكرة وليدة ساعةٍ أو وليدة بضع دقائق، وقد تكون فكرةً حدثت في ذهني منذ أمس، وبقيت أقلّبها على وجوهها حتّى الآن. وقد تكون الفكرة لها جذورٌ عميقةٌ في الشعور أو في اللاشعور منذ أُسبوع أو منذ شهر. لكن لا تهمّنا مدّة الحمل وإنَّما تهمّنا ساعة الميلاد.

تبدأ الفكرة في رأسي بظلّ لا شعورٍ خفيفٍ ينتشر في كياني، يستحيل أن أتميّزه على التفصيل من أوّل وهلة، أراها على الرغم من هذا الغموض تملأ عليّ نفسي وتملك مجامع ذهني، حتّى لأبدو شارد الذهن وكأنّي لا أرى ما أمامي.

ثُمَّ تبدأ الفكرة بالظهور شيئاً قليلاً، من تأثير بعض العوامل المجهولة، فأستطيع حينئذٍ أن أرى شيئاً من خطوطها العريضة، أرى عينيها اللتين تبرقان في الظلام، ولا أستطيع أن أتميّز جسمها على الإطلاق. إنَّني حينئذٍ أدرك أنَّ هذه فكرةٌ شاعريّةٌ أو فكرةٌ دينيّة، أو فكرةٌ اجتماعيّة، وهي شاعريّةٌ في أغلب الأحوال، وإن كانت تتّسم بغير ذلك من السمات؛ لأنَّ عواطف الوجدان شاعريّةٌ بذاتها، ولا يمكن أن يهزّها غير الشعر. وعلى كلِّ حال فإنَّني أدرك أنَّها

(١) [تاريخ كتابة البحث] الأحد: ١٢/ ٢/ ١٣٨٢هـ = ١٥/ ٧/ ١٩٦٢م (منه قدس سره).

فكرةٌ محترمةٌ جديرة بالبقاء، يعزّ عليّ جدّاً أن تتلاشى في نفسي وتبتلعها أمواج ذهني، وبخاصّة إذا كنتُ أنا الذي وأدتُها بيدي المجرمة. وهي فكرةٌ إن كتبتها على الورق فستبقى دهراً طويلاً، ستبقى ليرى الناس مدى فكري واتّساع أُفق ذهني ومقدار ثقافتي ومميّزات إنتاجي، ثُمَّ يهزؤون منيّ، أو يُعجبون بي، أو يترحّمون عليّ.

إذن، فلابدَّ لهذه الفكرة أن تظهرَ وأن تتبلورَ أكثر فأكثر، لأستطيع تسجيلها، وإلّا فإنّني الآن لست بمستطيعٍ ذلك، وهي لا زالت على هذه الدرجة من الغموض.

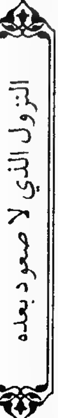
ويقبض ذهني على رأس الخيط، هذا الجزء الضئيل الذي طفا على الشعور، ويحاول جرّ الخيط إلى الهواء الطلق ليستطيع أن يجني من ثماره. وهنا تختلف الأفكار المتولّدة بعضها عن بعض، فربّما تكون الفكرة من الغموض والإبهام والإيغال في اللاشعور، بحيث يصعب جرّها وقد يستحيل. وربّما تكون متشعّبة الأطراف كثيرة الأغصان والأوراق، بحيث لا يمكن للعين أن تلمّ بأطرافها، أو أنّها لا تكون عند الكتابة فكرةً واضحةً محدّدة، أو أن تكون كتابتها من الطول، بحيث إنَّ هناك احتمالاً راجحاً أن تفلت هذه الفكرة في أثناء السباق من يد الذهن وتغرق مرّةً أُخرى في اللاشعور (مكمنها الأمين)، ومن ثَمَّ لا أستطيع الاستمرار في الكتابة مرّةً أُخرى.

وتحدث هذه الظاهرة تحت تأثير بعض العوامل، منها سأم الكاتب من طول ما يكتب أو عدم رضائه التامّ على الفكرة أو على الألفاظ التي صُبّت بها، أو عدم رضائه على كمال نضجها ووضوحها، أو اعتقاد الكاتب أنّها سوف لن تكون له أثراً مشرّفاً، أو أنّها تحدث تحت تأثير بعض العوامل الخارجية، وعلى

كلِّ حال فإنّي أضطرّ إلى أن أهملها إهمالاً.

وقد تكون الفكرة من ناحيةٍ ثالثة، سهلة الانقياد، جميلة المنظر، يحرص عليها الذهن حرصاً شديداً، ويبدأ على اسم الله تعالى بجرّها شيئاً فشيئاً إلى مرحلة الشعور.

ومن الملاحظ أنّه لا توجد هناك فكرةٌ تقفز على أثر هذا السحب فجأةً من اللاشعور إلى الشعور، وإذا بها واضحةً للعيان بجميع تفاصيلها، بل يختلف الحال في الأفكار، فربّما انقادت الفكرة بسهولة، واستطاع ذهني أن يمليها على قلمي إملاءً، وربّما كانت الفكرة صعبة الانقياد غامضة التفاصيل، يحتاج الفكر في تفصيلها وتحليلها إلى جولاتٍ وجولات.



وعلى كلِّ حال، فإنَّ الذهن يبدأ بإدخال أصابعه فيما استطاع إخراجه من اللاشعور، ليستطيع تحليله وتصنيفه، وهو في نفس الوقت لا يزال يسحب ما تبقّى من الفكرة في اللاشعور بأصابعه الأُخرى. ويبدأ بالتبويب والتفصيل ووضع كلّ قسمٍ في موضعه الخاصّ من القالب العامّ للفكرة.

ومن الملاحظ أن ليس كلّ فكرة تقبل التقسيم الواضح المركّز، وحينئذٍ يعمل الذهن غاية ما يستطيع عمله من ذلك، ويبقى ما تخلّف من الفكرة غامضاً، يضفي على الفكرة الشاعريّة روعةً وجمالاً، وعلى الفكرة الخطابيّة سوءاً وتعقيداً. كما أنَّ من الملاحظ أنَّ من الأفكار ما لا يرضى أن يخرج جميعه من اللاشعور، بل يعمل الذهن جهده لسحب الفكر، فتنسحب أوّلاً، ثُمَّ إذا بها قد وقفت عند حدٍّ يعلم الذهن أنّه ليس نهاية المطاف، وعندئذٍ ينظر الذهن، فإن كان فيما خرج إلى اللاشعور كمّيةٌ صالحةٌ للتسجيل، أملاها على القلم، وإلّا أرخى قبضته عنها لتقفز إلى اللاشعور قفزاً.

ثُمَّ يبدأ الذهن بتمييز نوعيّة الفكرة ليرى ما إذا كانت شاعريّةً أم خطابيّة، فرحةً أم حزينة، رقيقةً أم خشنة، وما إن يتمّ الذهن هذه المهمّة إلى أقصى حدٍّ مستطاع، [حتّى] يبدأ بتخيّر القالب الذي ينبغي أن تُصبّ فيه هذه الفكرة، هل هو الشعر أو النثر. فإن كان الشعر، فأيّ بحرٍ تكون به أجمل ولها أنسب، وإن كان نثراً فأيّ أُسلوبٍ بها أليق، وتتمّ هذه العمليّة بلحظاتٍ قصار، بحيث إنّني بمجرّد أن أجد الفكرة قد ظهرت في مرحلة الشعور أجد معها ما يناسبها من الأساليب، كأنّها كانت تحملها معها عندما برزت إلى الوجود.

ومن الملاحظ أنَّ بعض الأفكار تكون من القوّة والفعاليّة بحيث إنّها تخرج إلى الشعور بنفسها لا تحتاج إلى مَن يسحبها من مكمنها، كما أنّها هي التي تبوّب نفسها وتختار الأُسلوب الذي ينبغي أن توضع فيه، والأُسلوب في مثل هذه الحالة يغلب أن يكون شعراً، ثُمَّ هي تملي على صاحبها الألفاظ إملاءً، وتصبح يد الكاتب آلة طيّعةً وكأنّها مُسيّرةٌ بقوّةٍ خفيّةٍ من وراء الغيب.

ثُمَّ يبدأ الذهن - بعد تلك المراحل التي سردناها آنفاً- بتخيّر الألفاظ، فأحسُّ وكأنَّ شخصاً يضع في ذهني عبارةً تلو عبارة، وجملةً إثر جملة، ومقطعاً بعد مقطع، وغالباً ما تكون هذه الجمل مبعثرة التنظيم، تحتوي على بعض المعاني من أوّل الفكرة، وعلى شيءٍ من الملاحظات من وسطها، وعلى شيءٍ من الأفكار من آخرها - مثلاً- كما أنّها تختلط بما لم يصبّ في قالب الألفاظ بعدُ، بحيث يصعب تمييزها عن بعضها في بعض الأحيان.

وأرى في بعض الأحيان أنَّ الذهن يلجأ إلى الألفاظ في المواضع المعقّدة من الفكرة، أو في المواضع الغامضة التي يختلط فيها الشعور باللاشعور، فمن

هذه الأفكار الغامضة ما يقبل الإظهار بالألفاظ، وتكون هذه الألفاظ في أغلب الأحيان غامضةً أيضاً، ومنها ما لا يقبل الإظهار بالألفاظ، بحيث قد يوجب ذلك القضاء على الفكرة نهائيّاً؛ لأنَّ الذهن يحسّ أنَّ الفكرة لن تكون مستقيمةً بدون هذه الأفكار، وما دامت هذه الأفكار تأبى الخروج إلى عالم الواقع، إذن فالأولى إهمال الفكرة.

وبعد تلك المراحل، وبعد أن تكون الفكرة قد كمل نضجها، وتخيّرت بعض ألفاظها، واتّضحت إلى أكبر حدٍّ مستطاع، أجد نفسي مندفعاً نحو الورق والقلم لأُسجّل ما يدور في خلدي، ثُمَّ ليبقى معرفةً معروضةً أمام الناظرين مدى الدهر، وتذكاراً لهذا المسكين، بعد أن يكون هشيماً تذروه الرياح.

وتبدأ مرحلةٌ جديدة، وكأنّها منقطعةٌ تمام الانقطاع عن تلك المراحل السابقة كلّها؛ لأنّني أبدأ - حين أبدأ بالكتابة- باستعراض الفكرة جزءاً جزءاً، فأنظر إلى أُمورٍ فيها لم أكن شاهدتها من قبل، كما أنظر إلى ألفاظ لم أكن أتوقّعها، ولا يفوتني في بدء الكتابة أن أتميّز رأسها ليكون هو أوّل ما يكتب على الورقة، وما أن أطرح رأسها على الورق حتّى يبدأ الجزء الشعوري بالنزول، هذا النزول الذي لا صعود بعده. وفجأة وفي الوقت المناسب جدّاً، أرى أجزاءً من الفكرة كانت لا تزال متحصّنةً باللاشعور ضدّ الهجوم الذهني عليها، أراها تنزل إلى الورق طيّعةً مختارة، وكأنّها تطلب العفو عن العناد الذي سلف، وتشيع في نفسي لكلِّ هذه المفاجآت دهشةً مختلطةً بسرورٍ خفيّ، وبنشوة نصرٍ أخفى، وأستمرّ في الكتابة.

وربّما، وفي مطاوي انهماكي في الكتابة، تأتي إلى ذهني أفكارٌ من اليمين

والشمال، تمتّ إلى الفكرة الأصلية بسببٍ قريبٍ أو بعيدٍ، وهذه الأفكار قد تكون صادرةً من الذاكرة تبعاً لقانون تداعي المعاني، أو من المخيلة أو الواهمة، أو صادرةً من الذهن نفسه على سبيل الاستطراد. وعلى كلٍّ حال فإنّي أنظر إليها، فإن وجدتها جميلةً تزيد روعةً وجمالاً كتبتها، وإلّا أهملتها.

وما إن أصل إلى نهاية المقال حتّى يكون ذهني قد نضب من الفكرة تماماً، كأنَّ كلّ جزء يُكتب منها يتبخّر من الذهن ليذهب إلى مكانٍ مجهول، ولا وسيلة إلى استعادته إلّا قراءة المكتوب.

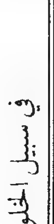
ثُمَّ أبدأ بقراءة المقال أو الشعر، فأجد أمامي ثمرةً يانعةً جديدة، قد استقبلت الهواء في أوّل أيّامها، ثمرةً هي جزءٌ من نفسي، نابعةٌ عنها نتيجة لكدّ يمينها وعرق جبينها. واستمرّ في القراءة، فأجد كلّ ما كتبته صحيحاً وجميلاً، وأجد نفسي أفهمه فهماً دقيقاً، بحيث إنّي أعرف بالضبط لماذا وضعت هذا اللفظ هنا بدل غيره، ولماذا جئت بهذه العبارة، مع أنّي كنتُ مستطيعاً أن أكتب غيرها، وهذا فهمٌ يفوق - على ما اعتقده حينئذٍ - أيّ فهمٍ يتوجّه إلى هذا النتاج من أيّ فردٍ من البشر مهما كان متبحّراً في الموضوع ذاته، وحتّى هو أقوى من فهمي له، بعد أن تتلاشى الفكرة من ذهني وتدخل عالم العدم.

وبعد هنيئة تكون الكتابة قد سجّلت في الدفتر وقلبي مطمئنٌّ إليها، يجد أنّه قد أثمر ثمرةً طيّبة، وأضاف إلى هذا الوجود شيئاً جديداً.

محمّد الصدر



في سبيل الخلود





في سبيل الخلود[1]

إيهٍ يا محمّد الصدر ...

أيُّها الجسم الضئيل الذي أضناه الزمان، واللون الحائل الذي ذهبت بجدّته شمس الظهر المحرقة، والأُفق الضيّق الذي أدهشته الألوان المتراقصة.

أيُّها الحشرة الصغيرة المتراقصة على أنغام الأوهام، الدائرة حول شعلة السراج الضئيل، المتلصّصة للبريق الخافت الذي يلوح من الأُفق البعيد.

أيُّها القارب الصغير الملقى في غمار مياه البحر العاتية، المُساق إلى شاطئٍ بعيد المنال، لم يره ولا يريد الوصول إليه.

أيُّها الإنسان المضني عمره في لهيب النار المتأجّجة، والمذيب نفسه في تيّار الظلام المتدفّق من بين براثن الوحوش الكاسرة.

أيُّها القطرة الضئيلة الواقفة على أعتاب الأبديّة، المتطّلعة إلى أُفق الخلود، الناظرة إلى النور اللامع الذي يشرق به وجه اللانهاية.

إيهٍ، يا محمّد الصدر ...

كم كنت أرجو وأنت تحبو في أحضان الأيّام، وتتقاذفك أمواج الزمان إلى حيث تريد وحيث لا تريد، وتجرّك حبال المقادير إلى حيث العمق السحيق، أن أنشر فوق رباك بعض الظلال؛ لتقيك حرّ الشمس المحرقة، وأن أسقط في فمك اللاهث قطراتٍ من نور؛ لتروي شيئاً من غليلك، لعلّي أصل إلى بعض



---

(١) [تاريخ كتابة البحث] السبت: ١٥/ ٤/ ١٣٨٢ = ١٥/ ٩/ ١٩٦٢م (منهقُدِّسَ سِرُّهُ).

خدمتك فأحيل أرضك خضراء، وسماءك زرقاء، وسحابك أبيض ناصعاً.

كم كنتُ أرجو وأنت تسعى بملء رجليك إلى الكمال، وتلتفت بصفحة وجهك إلى نور الأبديّة الوهّاج، وتشير بكلتا يديك إلى المثل الأعلى القابع على قمّة الوجود، لعلّك تنال شيئاً من ثماره، وأن تشرب قطعةً من مائه، أن أمهّد لك الطريق، وأن أكنس من تحت قدميك العوائق والأشواك، وأن أكون لك ناقةً هادئةً وادعة، تحملك بِدَعَةٍ وأمان، من حضيضك السافل إلى هدفك المنشود، لتقابل ذلك الضوء الباهر، بروحك وعقلك وجنانك، وجهاً لوجه، وتقطف من أزهاره وتقبس من لهيبه، ما شاء لك قلبك من القطف والاقتباس.

ولكنّني عندما أنظر إلى ذلك الطريق الطويل المليء بالمتاعب والمصاعب، الشديد القسوة والوعورة، ذلك الطريق الذي تعزف بين جنباته الجنّ وترنّ الشياطين، وتتراكض العفاريت، وتتصارع فيه قوى الضوء والظلام، وتتحارب فيما بينها حرباً سجالاً تزهق فيها النفوس وتسيل فيها الدماء.

عندما أتميّز خطورة الطريق ووعورته الشديدة، وعندما أعرف أنَّه طريقٌ قد ابتلع ملايين الضحايا، وأضنى ملايين النفوس، وأبلى كثيراً من الأفكار والأجساد، أجد أنَّني أقصر من أن أقوم بهذه المهمّة، وأضعف من أن أحمل هذا العبء الثقيل، وعندئذٍ فقط أرفع يدي إلى السماء لاتّصل مباشرة بالمنبع الفيّاض، رافعاً صوتي بالدعاء.

وكم كنتُ أرجو يا محمّد الصدر وأنت حائرٌ بين أبدٍ لا أوّل له، وبين أزلٍ لا نهاية له، قابعٌ خلال ذلك بين يدي الفناء، تعتصر ضرعه الجافّ،

وتأكل من ثمارِه المرّة، وتتحرّك في سجنه المظلم الضيّق، أن أحملك على كتفَي الفضاء، وأضعك بين يدي النور الأبديّ، حيث الحريّة المطلقة، وحيث السعادة والخلود.

وإذ أجد أنَّ لهذا السجن الصغير المظلم قفلاً لا يفتح، وجداراً لا يهدم، وظلاماً يصعب أن يدخله بصيص ضوء، وأن يوصل بينه وبين الفضاء الرحب الفسيح؛ لأنّه مقيّدٌ بقوانين صارمةٍ مفروضةٍ عليه من قبل الأبديّة فرضاً، فهو يرزح في نيرها دهراً طويلاً، ولن يستطيع الإنسان الخلاص منه بدون أن يهبه شيئاً ليشتري به مآربه، ذلك أنّه لا يستطيع هذا السجن أن يضيّق الخناق إلّا على هذا الجسد البالي، فإن كان لك ذلك الكرم الحاتمي فضع بين يديه هذه الهديّة المتواضعة ليصبّ عليها من سياطه ما يشاء، واذهب متحرّراً إلى حيث تريد.



كم كنتُ أرجو حين أراك طامحاً إلى اقتطاف ثمار الأفكار، متولّهاً بارتشاف قطراتٍ من البحر العظيم، بحر المعرفة الفيّاض، مشتاقاً إلى الغوص فيه، والذهاب مع أمواجه المتلاطمة إلى حيث ما تحملك الأمواج، وحين أراك في سبيل ذلك تعتصر ذهنك اعتصاراً، وتختلس الوقت من بين يديك اختلاساً، وتحدّق في أسطر الكتاب بعينٍ حائرة فاغرة، قد أضناها التأمّل وأجهدها التفكير.

وحين تفوز بمعرفةِ ما قرأت، وينقشع عن نفسك بعض ظلام الجهل، وتسري في أعصابك نشوة النصر، وفي ذهنك لذّة المعرفة، وفي نفسك فرحٌ راقصٌ مضيءٌ لهذا النصر المبين، ثُمَّ تلتفت حولك بشراهةٍ متزايدةٍ تطلب المزيد، لعلّك أن ترى كتاباً تقرأه أو فكراً تمتصّه، ولكنّك تصطدم بحجرٍ صلدٍ

سميك، حين لا ترى حولك إلَّا الفضاء، كم كنتُ أرجو أن أكون لك سفينة الأمان تحملك إلى الشاطئ البعيد.

ولكنّني عندما أجد أنَّ هذا البحر الذي تطمح إليه لا ساحل له ولا قعر، وأنّني لن أستطيع أن أبلغ بك إلى النهاية، أبذل جهدي في الابتعاد بك في عرض البحر ما أمكنني الابتعاد، ولا أملك في البقيّة إلَّا الدعاء.

كم كنتُ أرجو حين أراك تكافح أمواج الحياة بيدين خائرتين، وتعالجها بقدمين مجهدتين، وتنظر في يأسٍ إلى نهاية البحر وكأنّك تنظر إلى المستحيل، وحين أرى الأمواج العاتية تنقلك فوقها من موجةٍ إلى موجة، ومن صورةٍ إلى صورة، وتتراقص فوق رأسك المياه، ويتضاحك استهزاءً بك وجه البحر، وحين أراك تجمع أوصال ذهنك المتعب؛ لعلّك تعتصر منه قطرة ماءٍ زلال، وحين تحفّز همّتك تريد الوثوب؛ لعلّك تجد منفذاً للخلاص. عندئذٍ أتمنّى أن أكون لك قربةً منفوخةً تمنع عنك الغرق، وسفينةً هادئةً تحملك إلى شاطئ الأمان.

ولكنّني عندما أرى قوّة الأمواج، أجد أنّها تُغرق أيّ سفينةٍ تمخرها، وتتحدّى أيّ قوّةٍ تصارعها، مهما كانت من العزم والثبات، إلَّا أن تكون قوّةً مقتبسةً من الأزل القديم، فأبتهلُ عندئذٍ ضارعاً إلى الله بالدعاء العريض.

إيهٍ، يا محمّد الصدر ...

أيُّها المسكين المناضل، وحيداً وسط الظلام الكثيف، المكلّف نفسه بثقب الجدار السميك، أرجو وقد مضت حقبٌ من الأعوام، وتصرّمت حزمةٌ من الأيّام، وسقطت منك إلى الأبد السحيق قطرةٌ لن تعود، أرجو أن أكون قد ساعدتُك في هذا الجهاد الطويل، وخفّفتُ عنك هذا العبء الثقيل، وإلَّا

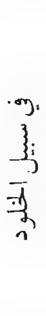


فإنّني أرفع كلتا يديّ إليك، أستميح منك العفو والغفران.

ما أراني إلّا وقد أجرمتُ في حقّك جرماً لا يُغتفر وذنباً لا ينمحي، ولا تذهب بجدّته الأيّام؛ لأنّني وبعد هذه الحقب الطويلة من الزمان، والعمل المضني في سبيل المثل الأعلى، أنظر فأجد نفسك لا تزال ملفوفةً بتلك الحجب القاتمة، ولا تزال راكدةً في ذلك القعر المظلم العميق الذي حاولتُ أن أنتشلها منه.

إذن - ويالالأسف الشديد- قد فني الزمان دون الفائدة المرجوّة، وتوالت الأيّام قبل أن نصل إلى الأمل الكبير.

عفواً، فما أراني قد بذلتُ خلال تلك الأيّام غاية مجهودي في الوصول بك إلى حيث تريد، بل تجاهلتُ وتباطأتُ وغرّني الأمل وبرقتْ أمام عيني الأماني، وملك على كياني التسويف؛ لأنّني لا أزال في أوّل الطريق، ولم أصل بعدُ إلى الأُفق الرحيب، الذي تنطفئ فيه هذه الشموع أمام شمس النهار المشرقة الحنون.



ولكنّني كنتُ أعمل جاهداً متقلّباً بين هذه الأمواج، لا أملك عنها منصرفاً، ولا فيها ناصراً، حتّى توالت الأيّام وتصرّمت زمر الأعوام، وبدأت اليقظة تدبّ في الهشيم، والعين تتفتّح بعد نوم عميق، والأماني والأوهام تقذف تباعاً في بئرٍ عميق، وحين فتحتُ عيني لم أجد إلّا الخسارة والاضمحلال، فلا أنا ملكتُ الأماني واستضأت بنورها الخافت الضئيل، ولا أنا قد وصلت إلى الهدف المنشود واتّصلت باللانهائيّة المطلقة الكاملة من جميع جهات الكمال.

فإن تعفُ عنّي وتغفر لي، فذلك نبع زلالٍ نابعٍ من عينك الثرّة السمحة،

وإن تجدّد عتبك وتأنيبك، فمن حقّك القول ما شاء لك قلبك أن تقول، ولنجدّد العزم في السير على الطريق الطويل، فلا زالت أقدامنا سليمة، وقوانا موفورة، وسأبقى عوناً لك حتّى آخر نفسٍ في حياتي، أجاهد في سبيل خيرك وسعادتك.

ونحن في هذا النضال المرير لن نحصل إلّا على إحدى الحسنيين، فإمّا أن نحيى حياةً طيّبةً تظلّها لذّة العمل وتشيع بها بهجة الأمل، ونأكل فيها من ثمار جهودنا المتواصلة، أو نسلم الروح معاً في هدوءٍ ودعة، فنذهب شهيدين متحدّيين قوى الطغيان وعناصر الزمان وأهواء الشيطان، ونكون في ذمّة الله متحرّرين منطلقين من القيد الثقيل الذي فرضته علينا الأيّام، مجدّدين العزم في السير إلى كمالنا المنشود.

محمّد الصدر





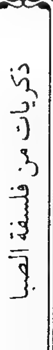
ذكريات من فلسفة الصبا

ذكريات من فلسفة الصبا[1]

مضت على تلك الأيّام سنون، وانقضت دهور، وتبدّلت أرضي غير أرضي وسماواتي. لقد أصبحتُ شخصاً آخر لا يحمل من ملامح ذلك الشخص الغضّة الطريّة شيئاً قليلاً ولا كثيراً، ولا يفكّر على طريقة تفكيره، ولا يتصرّف بالشكل الذي كان يتصرّف، فهو لا يحمل منه إلّا الروح، ذلك الأساس الراسخ العميق الذي يرافق الإنسان من مبدأ وجوده إلى عدمه، والذي به يتشخّص الشخص ويشار إليه على أنّه كائنٌ إنسانيٌّ منظّم، فهذا الشخص الحالي يحمل بين جنبيه تلك الروح الوثّابة التي بقيت خطوطها الرئيسيّة راسخةً لم يستطع أن ينالها الزمن بمسّه القاسي، وإن كان جزءاً كبيراً من هذه الروح قد تحوّل وتبدّل، ولم يبق منه إلّا أطلالٌ تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد.

تلك أيّام قضيناها بين يدي الدهر، بعد أن ألقت بنا المقادير في أحضانه الفضفاضة، وكان جبراً علينا أن نبقى نواكب الزمن أيّامه ولياليه وشهوره وأعوامه، لكي نصل معه إلى حيث يريد، فلا الزمن يفتر عن المسير أو يملّ أو يتعب، ولا نحن نستطيع الترجّل لحظةً عن ظهر هذه الدابّة الدؤوب. وبذلك فقد قضينا مرغمين ما يجب أن نقضيه في مثل هذه السنين المتطاولة.

لقد سبق أن دخلنا الدنيا لا نحمل إلّا القابليّة والاستعداد، ولا نحمل



(١) [تاريخ كتابة البحث] الجمعة: ٢٦/ ١٠/ ١٣٨٢ = ٢٣/ ٣/ ١٩٦٢ (منه قدّس سرّه).

إلَّا البراءة والإخلاص، ولكن وبمجرّد أن لاقينا مسّ الزمان الأليم انطلقنا ننشج نشيجاً مرّاً كأنّنا نعلم ما نحن مقدمون عليه من الدنيا والآخرة. ثُمَّ وفي لحظاتٍ قصار، أصبحنا بين قطعتي رحى الزمان، وتحت ثقل قوانينه الصارمة التي لا تغفر ولا تتجاوز ولا ترحم ولا تحابي، فانتقلنا بين الأيّام والشهور، من حادثةٍ إلى حادثة، وعجيب إلى أعجب، وهكذا بدأ القدر يغلي إيذاناً بنضج الطعام.

لم يكن باستطاعتي أن أصل إلى هذا الوقت إلَّا بعد أن أقضي هذه السنوات، ولم يكن باختياري أن أمرّ بهذه السنوات ولا بالحوادث التي رأيتها فيها، ولكنني الآن وبعد أن خسرت هذه المجموعة المهمّة من السنين، أقابل هذه الورقة وأجرّ قلمي فوق وجهها الشاحب، لعلّي استطيع أن أجترّ بعض ذكريات تلك الأيّام الحالمة التي قضيتها - حسبما أدّعي لنفسي في الوقت الحاضر - بين رَوح وريحان وجنة نعيم.

حين كنتُ أسمع من تغريد الطيور صوتاً موسيقيّاً مطرباً، ومن حفيف الأشجار وخرير المياه لحناً جميلاً جذّاباً، وأرى في الأزهار والأثمار والنجوم والبساتين وحتّى السحاب وحتّى البراري، حياةً كونيّةً متراقصةً لا يكدّرها شرٌّ ولا قبح، وحين كنتُ أرى في مرّ النسيم وضوء القمر وفي ضوء الشمس وبريق السحاب عناصر للخير والجمال ولنشر النور والسعادة ...

حين كانت نفسي صافيةً من الأحزان، وضميري خالياً من الأحقاد، وعقلي خالياً من اعتبارات الناس ومن تعقيدات العلوم والفلسفة، وكياني مخلوقٌ نوريٌّ ملائكيٌّ لا تحيط به الأوهام ولا تدرك سرّه العقول...

حين كنتُ أطير مع نسيم الخيال إلى أجواز الفضاء فأجمع من هذه

الأصقاع اللامتناهية أشخاصاً وحوادث وعجائب وغرائب، أقضي في تخيّلها الساعات، فأبني لنفسي قصوراً وأنبت أشجاراً وأشرق شمساً وقمراً، ثُمَّ إذا بلغتُ من ذلك أربي، نزلت من ذلك الفضاء الرحب، فودّعني بسلامٍ عاطرٍ فوّاح، وسلّمني إلى عالم الواقع، ولم يكن الواقع بأخفّ وأعذب - في أكثر الأحيان- من عالم الخيال، إنَّه خيال بشكلٍ من الأشكال.

ولكن هل من الصحيح أنَّ عهد الطفولة عهد براءةٍ وبساطة، وعهد صفاءٍ وجمال، كما يريد الكبار أن يصوّروه. إنَّ الكبار عندما يتحدّثون عنه فإنَّهم ينسبونه إلى حياتهم الحاضرة، فيبدو برّاقاً جميلاً، ولكنّ الحزن على مراتب، وأنَّ الألم شيءٌ نسبيٌّ في هذا العالم، ولقد غفلوا على أنَّ للطفل آلامه وآماله وغضبه ورضاه الذي يهتمّ به ويأخذ عليه مجامع نفسه، تماماً كما يأخذ على الكبار غضبهم ورضاهم، عليهم مجامع أنفسهم.

إنَّني أُريد أن أتحدّث عن ذلك الزمان حديث منصفٍ واقعيٍّ لا يحابي ولا يجامل، ولا يقدّم عهد الكبر على عهد الصبا بالأفضليّة والاحترام، فلكلٍّ من العهدين محاسنه ومساوئه، ولكلٍّ هفواته وأخطاؤه. ولئن كان الطفل يخطئ جهلاً فإنَّ الرجل يخطئ وهو عالم، ولئن أخطأ عن جهلٍ وغفلة فهو طفل، وإن كان في الكهولة أو ريعان الشباب.

أُريد أن أتحدّث عن ذلك العهد الجميل، ولكنّي لا أعلم عن أيّ جزءٍ منه أتحدّث؛ لأنَّه عهدٌ طويلٌ مترامي الأطراف، وكلّ جزءٍ منه في زمان، ورأت كلّ سنةٍ منه حوادث وعواطف لم تعهدها في السنين السابقة. ولقد مرّ الزمان وازدادت كثافة هذا الحاجز الصفيق الذي يفصلني عن تلك العهود، وصرت أنظر إليها وكأنَّها عهدٌ واحد، بل وكأنَّها لحظةٌ من زمان، وحتّى كأنَّها لم تمرّ بي



في يومٍ من الأيّام. فلولا هذه الذكريات الضعيفة المتداخلة المختلطة لشككت أنّني كنتُ طفلاً.

سلام الله عليك يا مَن كنتَ تعيش في تلك العهود الزاهرة وتلك السنين الغابرة، فإنَّك وإن لم تكن تشعر بذلك، كنتَ أسعد منّي حالاً وأخفّ عبئاً، وأقلّ مسؤوليّاتٍ وأكثر مرحاً وانطلاقاً. لقد كنتَ بجهلك الرقيق وعقلك الصغير تحسّ وكأنَّ جميع هذا الكون بيتك، وجميع ما فيه مخلوقٌ لك، وموجودٌ لإسعادك والترفيه عنك، لقد كنت ترى في هذا الكون جوهراً إلهيّاً منوّراً يملأ نفسك بالسعادة، ويغرقها انشراحاً وانطلاقاً، وما تلاشى هذا الجوهر ولكنّك أنتَ الذي تلاشيت.

لقد كنتَ تملك عمراً هو عبارةٌ عن عددٍ من السنين قد ضاعت الآن وذهبت إلى غير رجعة، ولقد كان بإمكانك أن تستغلّ هذا العمر الثمين بالعمل والعلم المثمرين، لترتقي نفسك في درجات الكمال ولتخدم مجتمعك خير ما تستطيع من خدمات، ولكن لا، لم تكن تستطيع ذلك، فتلك حدودك وذلك مقدار عقلك وفهمك، وتلك هي الحياة التي عشتها حتّى أفنيتها وأفنتك، والحمد لله ربِّ العالمين.

وسأسرد للقارئ بعض جوانب تفكيري في تلك العهود، ليعرف أنّي كنتُ حتّى في ذلك الحين فيلسوفاً مفكّراً، وأنَّ هذه الفلسفة لم تزل بخطوطها العريضة موجودةً إلى الآن، وإن كان الزمان قد عاث في معالمها طويلاً، بل إنَّ هذه الفلسفة هي التي كانت عندي يوم كنتُ في طريق التكوين، فهي التي نمت عليه نفسي، واكتمل في كنفه تفكيري وعقلي. ولئن كنت والقارئ أشترك في الاعتقاد بأنّها فلسفةٌ صبيانيّة، ولكنّها كانت في وقتها هي الفلسفة



التي أعرف بها الكون وأفسّر بها الوجود، ولقد كانت صادقةً كلّ الصدق بالنسبة إلى تكويني وعقلي، وبالنسبة إلى ظروفي ومجتمعي.

أُنظر لترى عجباً، فما أظنّك قبل اليوم سمعت بطفلٍ فيلسوف، ولكن ما عشتَ أراكَ الدهرُ عجباً. أُنظر لترى آرائي ومدى انسجامها ومقدار تناقضها وارتباكها، ومدى ارتباطها بالحياة، ومدى حكايتها عن الواقع الملموس.

لقد كنتُ وأنا طفلٌ شخصاً يشعر بوجوده، ويحسّ بكيانه على أساس أنَّه شخصٌ محترمٌ، له رأيه وله وجهة نظره، وله أُسلوبه وطريقته في الحياة. فلئن كان للكبار مثل ذلك، فإنَّه لا يمنع على الإطلاق أن يكون للصغار مثله، ومن ثَمَّ كنتُ أقوم بما أقوم به باطمئنانٍ وعزمٍ أكيد، واعتقادٍ راسخٍ بصواب الفعل ووجهة النظر.

إنَّها وجهة نظرٍ محترمةٌ لا يحقّ للكبار على الإطلاق مناقشتها أو الاعتراض عليها. ألستُ قد توصّلت إليها بعد تفكير وتأمّل، وبعد أن أكون قد ألمت بالمسألة من جميع أطرافها، ونظرتُ إلى مصلحتي في ضمن هذه الأطراف؟ فلماذا يشعر الكبار بأنَّ لهم حقّ الاعتراض على مخططات الصغار، وحقٌّ هدم ما يبنون من الأعمال؟ ولقد يصادف أن أرى ضغطاً من الكبار على تركي أو فعلي لبعض الشؤون، فإنّي أبدأ بالتوّ بالموازنة بين تحمّلي للضغط وبين مصلحة الفعل الذي أنوي القيام به، وأيُّها وجدتُه راجحاً فعلته. فإنَّني أرى الفعل راجحاً وأحسّ تجاهه من الكبار بضغطٍ شديد أحسّ لقاءه بالضعف وعدم القدرة على المقارعة، فإنَّني حينئذٍ أنصاع مجبوراً مرغماً وفي نفسي الشيءُ الكثير.

أمّا مرجّحات الفعل في نظري، فهي الأُمور التي تكون أقرب إلى راحتي ومتعتي، وأقلّ جهداً وكلفةً بالنسبة إليّ، أو تكون مقدّمةً وتمهيداً لبعض الأعمال المهمّة التي أنوي القيام بها، أو يكون العمل ممّا أشعر به في أثنائه قلّة سيطرة الأب على حياتي لحظةً من الزمن.

لقد كنتُ أرى للصغار شأنهم ومنزلتهم واستحقاقهم للاحترام والتبجيل، لماذا يُحتقرون ويُهانون، ويخاطبون بشكلٍ مختلف عمّا يخاطب به الكبار، ويرى الكبار الحقّ في توجيه الأوامر والنواهي إليهم ولو كان الشخص غريباً طارئاً على الأُسرة، في حين إنّني أرى الكبار يحترم بعضهم بعضاً ويتحدّث بعضهم إلى بعضٍ بسكونٍ وهدوء، وبكلّ جدٍّ وإخلاص، لا يجرؤ أن يوجّه أحدهم إلى الآخر أمراً قاسياً أو أن يصيح في وجهه مهدّداً.

وكنتُ أرى تلك المعاملة المحاباتيّة التي يعامَل بها الصغار، إحساساً من الكبار بالعظمة أكثر ممّا ينبغي لهم، وخروجاً بالتكبّر عن أطوارهم، وعليه فطالما كنتُ أفكّر أن كم يكون جميلاً لو احتُرم الناس على حدٍّ سواء بدون تفضيلٍ في العمر ولا في العلم ولا في المنزلة الاجتماعيّة، فالناس كلّهم سواء، فيجب أن يعاملوا بصورةٍ متساوية.

كنتُ أرى أنَّ للأطفال رأيهم ونظريّاتهم في الحياة، ووجهات نظرهم في الأُمور، وأنّها لتستحقّ أن تكون نظريّاتٍ محترمةً ونافذة المفعول، ولم أكن أرى ما يرى الكبار من حقٍّ لأنفسهم من احتقارها والنيل منها. ولقد كنتُ أعجب لماذا لا يعير الكبار الاهتمام الكافي إلى نظريات الصغار [مثل] اهتمامهم بنظريّاتهم الخاصّة، مع أنَّ كلتا النظريّتين نابعةٌ عن إمعان تفكيرٍ وطول تدبير.

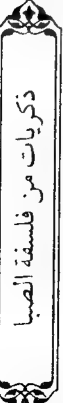
وكنت أنسب ذلك أيضاً إلى جنون العظمة الذي ابتلي به الكبار تجاه

الصغار المساكين المظلومين، ولطالما فكّرتُ - وربّما قلته أكثر من مرّة- أنَّ النظريّة الواحدة التي يراها الشخص، لن يقيم لها الناس وزناً إذا عرضها عليهم وهو صغير السنّ حديثاً، وسوف يرفضونها ويهملونها ظلماً وعدواناً، ولكنَّهم - ويالحماقتهم وسفاهتهم- سوف يقبلون نفس النظريّة بمجرّد أن ينشرها الشخص بعد أن يكبر، وسوف يتلقّونها منه بكلِّ سرورٍ وارتياح، وليس ذلك إلَّا لمجرّد هذا العمر الذي أُضيف إليه، بحيث أصبح فرداً من هؤلاء الكبار.

لقد كنتُ أفكّر، وكنتُ أستنتج، وكنت أتوصّل في تفكيري إلى أشياء كثيرة، أحسبها صحيحةً كلّ الصحّة، وعميقةً كلّ العمق، وقد يصادف أن أكتب بعضها ويضيع أكثرها في طيّات اللاشعور. وكم كنتُ أتمنّى أن أنشر هذه الأفكار تحت ضوء الشمس ليقرأها الناس وليصبح اسمي معروفاً بينهم يشار إليه بالبنان، ولكن كنتُ أقرأ في بعض المطبوعات التي لا أتذكّر الآن نوعها ولا كاتبها، أنَّ الأديب والكاتب والعالم في بلادنا المتخلّفة يصعب عليه النشر وبثّ أفكاره النافعة المفيدة، لمصاعب الطباعة ولقلّة المال، ولعدم وجود شركة منظّمة للنشر والتوزيع، إلى آخر هذه الأسباب المسطّرة.

ومن ثَمَّ يضطرّ الأديب والشاعر، ويضطرّ الكاتب والعالم، إلى تكديس نتاجات تفكيره وزبدة عقله على الرفّ بدون أن ترى الشمس وبدون أن يعرف من خبرها أحد.

حينئذٍ أقول لنفسي: إنَّني أعيش مع هؤلاء الأُدباء البؤساء في هذه البلاد المتخلّفة، ولي أُسوةٌ حسنةٌ بهم في بقاء نتاجي الفكري والأدبي على الرفّ بدون طباعة أو نشر، أليسوا هم - على ما يعتقد بهم الكبار من رجاحة تفكيرٍ



وحسن نظر- لم يستطيعوا ذلك، فإنّي على ما أرى من الأزدراء والاحتقار أولى منهم وأجدر بالضياع.

ولكنّني رغم ما كنتُ أشعر به نحو الكبار من حقدٍ دفين، بأنّهم مرضى بجنون العظمة تجاه الصغار بدون استحقاقٍ وأهليّة، فقد كنت أشاركهم الزعم بأنّهم فعلاً أحسن من الصغار وأبعد نظراً وأدقّ فكراً، وأقبل منهم ادّعاءهم هذا، وأحمل معاملتهم المحاباتيّة للصغار على ما هي عليه من الجدّ، وأنّها لابدَّ أن تكون ناشئةً من سببٍ عميقٍ، هو الأفضليّة الحقيقيّة، والفرق الشاسع بين الصغار والكبار.

وعليه، فقد كنتُ أنظر إليهم على أساس أنّهم أشخاصٌ عقلاءُ مفكّرون، يعلمون كثيراً ممّا لا أعلم، ويحيطون بأُمورٍ أجهلها وأعجز عن إدراك كنهها، ومن هنا كنتُ أتهيّب من الرجال وأخشى الخروج إلى المجتمعات، لئلّا يأخذوا على جسمي الصغير أو رأيي القاصر أو صوتي الضعيف، انتقاداً أو منقصةً على عادتهم من معاملة الصغار ممّا لا أرضاه لنفسي، بالإضافة إلى أنّني في غنىً عن هذه الانتقادات إذا تجنّبتهم وهجرتهم، وكنتُ كذلك فعلاً، ولقد أثّر هذا الهجران في حياتي ولا زال مؤثّراً إلى الآن، رغم تبدّل الجوّ الطفولي القديم.

وعطفاً على هذا الاعتقاد الأكيد في الكبار، وحسن الظنّ بتفكيرهم ووجهة نظرهم، كنتُ اعتقد أنَّ كلَّ ما يطبع من الكتب والمجلّات والصحف، أمرٌ صحيحٌ صادقٌ لا ريب فيه، ولم أكن أتصوّر أنَّ في العالم كتاباً واحداً أو مجلّةً أو جريدةً تحوي زوراً وإفكاً وبهتاناً، أليس الكبار هم الذين أصدروها وقاموا بكتابتها وترتيبها؟

ومن ثَمَّ كنتُ أحترم الكتب احترام تبجيل وتقدير، وأحسّ كأنَّ الكتاب كنزُ علمٍ لا يفنى.

وعليه فقد كنتُ أؤمن بما أقرؤه وأفهمه إيماناً قطعيّاً، مهما كان محتوى ذلك الكلام، وأمّا ما لا أفهمه من الأُمور السياسيّة والاجتماعيّة، فهي أُمورٌ عظمى قام بها نفرٌ من المفكّرين الأفذاذ ممّن لا يُسبر غورهم ولا يُفهم كنههم، ولا يمكن تقدير غاياتهم.

أمّا القصص، فقد كنتُ أقرأها وأتمثّل القائمين بها، وأفترض لهم شخصيّاتٍ ووجوداً. أمّا إذا كانت القصّة مصوّرة، فإنّي لا أتردّد بأن أفترض أنَّ القائم بالقصّة هو بعينه صاحب الصورة، وإن كانت الصورة من رسم القلم، والقصّة من نسج الخيال.

ولكن ومن عجيب الأمر، ولعلّ ذلك من اعتيادي قراءة القصص على أساس أنّها خياليّة، فقد كنتُ لا أعتقد أنَّ للتصاوير - وإن كانت فوتوغرافيّة - واقعاً ملموساً، وأنَّ هذه الصور تحكي أماكن وأشخاصاً موجودين على هذه الأرض فعلاً، وأنّه من الممكن أن نعنون باسمهم خطاباً ونلقيه بالبريد، فإنّه سيصل إليهم حتماً، بل إنَّ شأن أصحاب الصور الفوتوغرافيّة شأن الصور القلميّة في درجة التجسيم والتخيّل، فكلاهما كنتُ أعيشهما في الخيال، ولا أعقل لهما واقعاً على هذه الأرض.

أكتفي الآن بهذا المقدار من آرائي الفلسفيّة التي كنتُ أعتقدها في صغري؛ فإنّني إذا أعانتني ذاكرتي وأردتُ أن أسرد الجميع، فإنّه لن تكفيه المجلدات فإنَّ النفس الإنسانيّة أعمق من أن يسبر غورها قلم، أو أن يحيط بها كلام، مهما كانت صغيرةً وقاصرة.



ولابدَّ أنَّك لمحت من مجموع هذه الأفكار أنَّها أفكار شخصٍ كان يستطيع القراءة والكتابة على الأقلّ. إذن، فهي أفكارٌ مبعثرةٌ كانت تدور في ذهني وأنا في أغلب الظنّ في السابعة إلى الرابعة عشرة من عمري، أردتُ أن أعرضها عليك لأعتبر منها وتعتبر، ولترى الجوّ الذي كنتُ أعيشه، ولتعرف أنَّ من الأطفال مَن هو فيلسوف، بل إنَّ الفلسفة بهذا المعنى ترافق كلّ إنسان في جميع أطواره وأحواله، فما في الإنسانيّة شخصٌ لا فكر له ولا وجهة نظر عنده، حتّى الأطفال وحتّى المجانين.

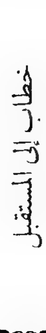
ولئن كنّا نعتقد أنَّ وجهات نظرنا أصوب وأقرب إلى الحقيقة، فإنَّ لهم آلامهم وآمالهم ورضاهم وسخطهم وراحتهم وتعبهم وحزنهم وفرحهم، تلك العواطف المختلفة التي تمرّ بهم كما تمرّ بنا، وتملأ عليهم كيانهم كما تملأ علينا كياننا، وتكون موضوع اهتمامهم كما تكون موضوع اهتمامنا، ولكنّ الذنب الوحيد لهم أنّهم مختلفون عنّا، فلماذا لا يكون الذنب لنا أنّنا مختلفون عنهم؟!!

محمّد الصدر





خطاب إلى المستقبل



خطاب إلى المستقبل[1]

السلام عليك يا محمّد الصدر ورحمة الله وبركاته.

إليك يا محمّد الصدر أوجّه خطابي هذا، عسى أن ينال قسطاً من رضاك وقسطاً من تفكيرك، وعسى أن يوقظ في نفسك شيئاً من الذكريات الجميلة الباسمة، وشيئاً [من] الآلام الحادّة اللاذعة، وشيئاً آخر من العبرة والعظة.

لست أدري بِمَ أُلقّبك وبِمَ أُثني عليك؛ لأنّني لا أعلم مقدارك الاجتماعي أو العلمي أو النفسي أو العقلي عند قراءتك لهذه السطور، بل لستُ أعلم أينبغي منّي ذلك لك أم لا ينبغي، كلّ الذي أعلمه أنّك الآن تقرأ وتجيل النظر في هذه الكتابة المتواضعة التي كتبها شخصٌ أصغر منك سنّاً بقليلٍ أو كثير، ليضفي عليك سمات العالم المجهول والمستقبل المأمول، ليُسمعك كلماتٍ قد تُعدّها غضّاً من قدرك، أو أعلاءً لشأنك، أو وعظاً لك وإرشاداً.

إنّك حرٌّ يا عزيزي بما تحكم به على هذه السطور، وأنا حرٌّ بدوري فيما أكتب لك من الكلام؛ فإنّك مهما تكن قد كبرت، ومهما تكن قد عظمت، ومهما وسع تفكيرك وأُفق نفسك، فلستَ أعزّ منّي قدراً، ولا أكبر شأناً فيما بيني وبينك - لا فيما بيننا وبين الناس- فإنّك من حيث رضيتَ أم أبيتَ: أنا وأنا أنت، رضيتُ أم سخطتُ، ألستُ حاملاً نفس اسمك، ألستُ بذرةً نميتَ منها، وجسراً عبرتَ عليه، ألستَ تتكلّم بنفس نبرتي وبنفس فكرتي؛ فإنّني

(١) [تاريخ كتابته] الاثنين: ٢٢/ ٤/ ١٣٨١ = ٢/ ١٠/ ١٩٦١ (منهقُدِّسَ سِرُّهُ).



أرى لنفسي حقاً في أن أتكلّم معك ما أشاء من الكلام، [و]ليس لك حقّ الاختيار فيه، وإنَّك لتشعر الآن أنّك مسلوب الاختيار حقيقةً بالنسبة إليه؛ لأنّك لا تستطيع أن تصحّح من أغلاطي في هذا الإنشاء، وهذا الإملاء، وإلَّا ارتفعت هذه المعنويّة الجميلة التي تربط حاضرك بماضيك. وأرى من الحقّ لنفسي أن أتكلّم معك كلاماً لم تسمعه من أحدٍ غيري، ولم تعهده من أيّ شخصٍ سواي، ولا يهمّني أن يُرضيك أو يغضبك.

قد يكون من واجبي - يا عزيزي - أن أعتني بإنشائي وأنمّق إملائي ليصل إليك جميلاً منسّقاً، كما أعتني به إذا أردتُ أن أعرضه على أيّ رجلٍ له مثل سنّك ومنزلتك.

ولا أنكرك أنّني سأبذل - وأنّني قد بذلت - بعض الوسع لأعتني بإنشائي وإملائي، ولكن لا لأجلك ولا لأجل أنّه سوف يقع بين يديك؛ لأنّك لا تُخجلني ولن تستطيع أن تُخجلني، بل لأجل الآخرين ولاحتمال أن يقع بيد شخصٍ آخر غيرنا يمكن أن نعدّه ثالثاً، ويمكن أن نعدّه ثانياً إن شئت.



تحيّتي إليك يا محمّد، واحترامي وسلامي، مهما تكن منزلتك، ومهما يكن علوّك أو هبوطك. إنَّ كاتب هذه السطور قد مات وقد ذهب به الدهر إلى غير رجعة، وقد جاء بك بدله لتقوم مقامه، ولترث نفسه وعلمه ومتاعه، ولتعمل عمله على هذه الدنيا البسيطة المترامية الأطراف، بل لتعمل أعمالاً لم يكن مستطيعها على أكثر المظنون. وإنَّك لتدرك هذا الآن بصورةٍ جليّةٍ واضحة، ولكن كاتب هذه السطور أيضاً لا زال حيّاً يُرزق، يشمّ الهواء وينظر الضياء، ويأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ويفكّر ويعتبر؛ وليس أدلّ على ذلك منك وأنت لازلت تقرأ هذه السطور؛ لأنّك نتيجة حياته التي امتلأت

بالحوادث أنواعاً، والجميل والقبيح ألواناً، ومن المرّ والحلو طعوماً مختلفة، ولكنّني على كلّ حال أسعد منك حظّاً؛ لأنّني أحمل معي عمراً قد خسرته راغماً، وأحتفظ بيني وبين أجلي بسنين قد ذهبتْ منك إلى غير رجعة ولا أوبة، فلا أسف عليها، وتعساً لها من سنين غدّارةٍ خائنة. ولكن تأسّ يا عزيزي بغيرك، واعتبر بمَن حولك، فهذه سنّة الله تعالى في خلقه ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[1].

كم أحببت – يا عزيزي محمّد – أن أتحدّث إليك وأن أسمع منك، لأعرف ما صرت إليه من الكدر أو الصفو، أو من الصحّة أو السقم، أو من الغنى والفقر، أو غير هذه من عوارض الزمان وطوارق الحدثان، لولا أنّ حجاباً كثيفاً من الزمن يحول بين رؤية أحدنا صاحبه وسماعه منه. ولا أظنّ أنّك من الشوق مثلي بمكان لتسمع صوتي وترى شخصي كما أشتاق أن أراك وأن أتحدّث إليك، لأنّك مررت بهذه المراحل التي لا زلتُ أمرّ بها، وأنوءُ بثقلها حتّى سئمتها، ولعلّك لا تتمنّى أن تعود إليها أو تسمع عنها خبراً أو ترى لها شبحاً.



ولا أكذبك – ولستُ مستطيعاً أن أكذبك – أنّ هذا منوطٌ بالحال التي تمرّ بها الآن، وأرجو مخلصاً أن تكون أحسن حالاً منّي (ومَن أخلص مِن نفسك إليك)، فإن كانت حالك أحسن مِن حالي، فإنّك لن تتمنّى أن تعود إلى الحال الذي وفّقك الله أن تتخلّص منها ورزقك حياةً أفضل وأجمل، وأمّا إذا كنت أنا أحسن منك حالاً – لا قدّر الله تعالى – فإنّك لابدَّ أن تنشد هذا البيت من الشعر:

ربّ يومٍ بكيت منه فلمّا ... جاءني غيره بكيتُ عليه

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

وتضحك منّي لأنّني كنتُ متبرّماً من حياتي التي تحسب الآن أنّها كانت سعادةً ونعيماً.

عزيزي محمّد الصدر، لعلّ في سماع صوت الماضي شيئاً من التسلية والأنس، وشيئاً من الضيق والسأم، وشيئاً من العبرة والعظة، وهذه الأُمور هي التي دعتني أن أكتب إليك هذا الخطاب لتتذوّقَ هذه العواطف، ولتمرّ نفسك بهذه الأجواء برهةً قصيرة من الزمن، ولتذكر الماضي وتمعن فيه النظر. وليس أحسن من استذكار الماضي واقتداء حسناته واجتناب سيّئاته.

ولا أخفيك أنَّ عندي سبباً غير هذه الأسباب دعاني للكتابة إليك، إنَّه سببٌ ربّما رجع عليك ببعض العبرة، وهو سببٌ يمسّني أكثر ممّا يمسّك، ويعود عليّ بأكثر مما يعود عليك، وهو التخفيف من هذا الحجاب الزمنيّ الكثيف، ومحاولة خرقه أو إزالته، ولا أقلّ من أن أتصوّر أنَّك ستقرأ كتاباً موجّهاً إليك منّي في زمنٍ قادم.

أُريد أن أنصحك بعدّة نصائح، وأن أملي عليك عدداً من المواعظ الواردة من السلف الصالح، ومن غير الواردة، لعلّك تستضيءُ بها في ظلمة حياتك، وإنّي لأعتقد أنَّك لن تعدو إلَّا أن تكون مثلي سامعاً للنصائح غير منتبهٍ إليها، معتبراً بالمواعظ غير عاملٍ بما تتطلّبه من عمل.

ولكن ماذا يمكنني أن أقول وأنت تعرف هذه المواعظ كلّها أو أكثر منها - إن لم تكن ألهتْك الدنيا بزخرفها وجرفتْك بتيّارها، لا سمح الله تعالى ولا قدّر- وتنظر إليها بشكلٍ أعمق وأدقّ، وستهزأ بي إذ أحاول التطاول على مقامك الذي تحسب أنَّه رفيعٌ وعظيم، وسوف تنظر إلى مستوى نفسي وأنا أكتب هذه السطور حقيراً متواضعاً لعلّك تسأم حتّى من إتمام هذا الخطاب.

ولكن يجب عليك أن تستمرّ في قراءته لتقضي مآربي منك ومن إيحاء بعض العواطف - كالعبرة مثلاً- في نفسك، ومن إرغام الدّهر على أن أوصل صوتي إليك، سواءٌ كنت راضياً أم كارهاً. وأستمدّ العون من الله تبارك وتعالى على ذلك؛ فإنّي أرجو أن يكون لك في هذا الخطاب عبرةٌ لا تعدلها عبرة، وعظةٌ ليس مثلها عظة، لعلّ نفسي - وأنا أكتب هذه السطور- لا يمكن أن تتصوّرها أو أن تصل إلى ذروتها.

عزيزي محمّد الصدر، اعتاد الناس في كتابة الخطابات أن يسألوا أحوال المخاطب وأن يطلبوا منه الجواب، فإمّا يكتب إليهم كما كتبوا وإمّا أن يحضر بنفسه عندهم ليراهم ويروه، ولكن - ويا للأسف الشديد- ليس إلى ذلك من سبيل في مثل هذا الخطاب؛ لأنّني أدرك أنّك شخصٌ مجهول من قبلي، وأنّك سوف تحدث في المستقبل، ولا يمكنني أن أسمع لك صوتاً أو أرى لك شخصاً، حتّى أعبر حفنةً من السنين وأخسر جزءاً من العمر. وتدرك أنت الآن أنّني شخص اضمحلّ مع اضمحلال الماضي وزال بزواله، فلا أثر له الآن لتتحدّث إليه أو لتراه، ولا يمكنك ذلك بأيّ حالٍ من الأحوال.

وعلى كلّ حال، فإنّني أرجو أن تكون في صحّةٍ جيّدة وحياةٍ سعيدةٍ، وخفّةٍ من الذنوب، وقلّةٍ من العيوب، وكثرةٍ من العلم والعمل الصالح لله تعالى، وللمجتمع الإسلامي.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

نفسك المخلصة لك

محمّد الصدر





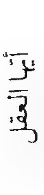
أيها العقل

أيها العقل[1]

أيُّها العقل، أرفع بكلتا يديَّ إلى مقامك السامي العظيم، سلامي الوافر العاطر مشفوعاً بالتبجيل والاحترام.

بك - أيُّها العقل - أحيى وأعيش، ومن مائدتك أتناول، وعلى بابك ألقي رحلي، واعتماداً على فطنتك ألقي بنفسي في خضمّ الحياة، أضرب الأمواج، أسبح مع الأسماك، وأسعى إلى ما تضعه أمامي جميلاً برّاقاً، وأبتعد عمّا تريني إيّاه أسود قبيحاً، بواسطتك متحتُ[2] من بئر المعرفة، ودخلتُ في بطون الكتب، وأكلت من ثمار العلم، ولمحتُ ضوء الحقيقة الوهّاج.

بك اقتبستُ من مختلف العلوم والفنون، وبواسطتك تفتّحتْ نفسي عن مختلف الأزهار والثمار، وبفضل نورك حدّدتُ موقفي في زحمة الآراء، وضبطتُ سلوكي في معترك الحياة. ثُمَّ من أجلك - أيُّها العقل - يدخلني الناس في زمرتهم ويخاطبونني بكلامهم، ويحبونني بالحقوق، ويفرضون عليّ الواجبات، وبك يحترمني محترمهم، ويحتقرني محتقرهم، ويشاطرني الحياة أفرادٌ منهم.



---

(١) [كتب بتاريخ] الجمعة: ٢٩/ ١٠/ ١٣٨١ = ٦/ ٤/ ١٩٦٢ (منه قدّس سرّه).

(٢) في المصباح المنير: المتح: الاستقاء، وهو مصدر (متحت) الدلو، من باب نفعٍ إذا استخرجتها، والفاعل (ماتح) و(متوح). المصباح المنير (للفيومي) ٢: ٥٦٢، مادّة (المتح)، وأُنظر أيضاً: لسان العرب ٢: ٢٧٠، فصل الدال المهملة.



إنّني لستُ شخصاً سواك، إنّني إن أحببتُ حياتي فإيّاك أحبّ، وإن استنشقت هواء الحياة العليل، فمن أجلك أستنشقُ، وإن أكلتُ من طيّبات الفواكه ولفظت حنظلها، فمن أجلك آكل وألفظ، وإن ركبت سفن المعارف وجُبتُ آفاق العلوم، فبك ومن أجل تثقيفك وتوسيع آفاقك، وإن ناضلت في سبيل العيش وغنّيت حول ضوء السراج الضئيل، فمن أجلك أُناضل، ولك أغنّي.

أنت – أيُّها العقل – كنزي الثمين الذي لا يمكن أن يسطو عليه اللصوص أو يعتدي عليه المعتدون، أنت الذي لا تنقصه النفقة ولا يتعبه الاستعمال، ولا يعلوه الصدأ عند الإهمال. صحّتك صحتي، وسقمك سقمي، والمعتدي عليك معتدٍ على حياتي، ومحترمك محترمٌ لي، ومكرمٌ لنفسي وعواطفي.

فلولاك لما شممتُ عبير الحياة، ولا ذقتُ طعم الثمار، ولا رأيتُ نور الحقّ، ولا تجنّبتُ مزالق الأوحال، ولما دارت بي الشمس في فلكها ولا ابتسم لي القمر، ولا عبستْ بوجهي الشياطين. ولولا وجودك لابتلعتني الأمواج وسفتْ على أطلالي الرياح، وانكسر في يدي المحراث، ولداس الناس على جسدي بأقدامهم وابتسامةُ النصر مرتسمةٌ على شفاهم، ولأصبحتُ لقمةً صغيرةً سائغةً لضواري السباع، تأكلني ثُمَّ تلعق شفتيها بنهمٍ ولذّةٍ وسرور.

بك – أيُّها العقل – أسير في طريق الخير والسعادة نحو شاطئ الأبديّة والخلود، وبك أقطع شراك الشياطين وأقف أمام جماح العواطف، وأخنق صرير العواصف. لولاك لبنى الجهل في نفسي بيتاً واسعاً وأثّثه بالسوء والشرّ، وزيّنه بالخطيئة والذنوب، فأنت صاحب الزمام، تُحسِنُ التصرّف وتجيد

التدبير، بعزمٍ وتصميمٍ أكيد.

فمن أجل هذا أهديك إكباري وإعجابي واحترامي وتقديري، فأنا أُكبر مقامك الرفيع الذي أرى به الحقّ حقّاً فأتّبعه، وأرى الباطل باطلاً فأجتنبه، فأتّجه به نحو الله تعالى، وأسير في طريق الحقّ، وأرى به نور الحقيقة. وإنّي لمعجب بقولك السديد ومنطقك السليم ونظرك الثاقب وسيفك الصارم، وإني لأحترم ما تحتويه من جواهر العلوم ولآلئ المعارف، وما تستطيعه من إشراق النور وحرث الأرض وبذر الحبّ وإثمار الفواكه، وما تتحكّم فيه من التذكّر والإدراك والتفكير، وتدبير السلوك وتنظيم الإحساس. وإنّي لأقدّر لك فضلك في نصحي وهدايتي وإضاءة ظلمات الفضاء أمامي، وتوجيهي نحو الخير والسلوك الصحيح، وتجنيبي مزالق الأهواء وعثرات العواطف.

ولكن يعزّ عليّ أن تكون المرآة التي أرى بها وجوه الشياطين، كما أرى بها وجه القمر، أو أن أسمع بواسطتك النواح والبكاء، كما أسمع تغريد البلابل وزغردة الطيور، أو أن أذوق بواسطتك مرارة الشقاء والألم، كما أذوق لذيذ الطعوم. يعزّ عليّ أن تكون مصدر بلائي وشقائي، كما أنّك مصدر سعادتي وسروري.

ولكن الذي يهوّن وخز الأشواك، ويخفّف ألم السياط، أنّك أنت الذي تتحمّلها، وبك أدرك مرارتها، ثُمَّ بك أستطيع حلّ معضلها، والخلاص من شراكها. فأنت الذي تعرف سبيل الخروج وتبسطه أمامي واضحاً واسعاً، وتجعل هذه الآلام حافزاً على الإبداع والتجديد، وتجنّب ما سواها من أنواع الشقاء، وأنت الذي تقتبس من لظى سياطها موعظةً وعبرةً تنفعك في تجنّب مثيلاتها أو تخفيف وطأتها في مستقبل الأيّام.



إلى اللقاء - أيُّها العقل - فإنّني أحاول أن أختم رسالتي هذه عارفاً لفضلك، مقرّاً بجميلك. ولكن الذي يبدو أنّني لا أستطيع فراقك ولا أتمكّنه؛ لأنَّ أزهارك قد نبتت على أرضي، ورسخت جذورها في أعماقي، وستبقى متحدّيةً موج الرياح وطوارق الأيّام، ولا يمكنني أن أُفارقك ولا يمكنك أن تفارقني ما دمتَ صحيحاً معافى تفيض النور والخير، ولن تستطيع وداعي في حياتي ولا عند موتي؛ لأنَّني سأفقد عند المات جسدي ولن أفقد عقلي. إذن، فسأودعك على هذه السطور محتفظاً بك بين جنبيّ، معتزّاً بك، مفاخراً بوجودك.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

ودم لمخلصك الأمين محمّد الصدر



أعشاب صحراوية

أعشاب صحراوية[1]

مقالة رمزيّة ترسم واقع حياتي كما أُريد أن أتصوّره

(يقرأ هذا المقال بصورةٍ متقطّعة وبلهجةٍ توحي بالوحشة)

يا للهول ... ما هذا المكان .. الذي جرّتني إليه قدمي .. من حيث لا أدري ... إنّها صحراء ... صحراء قاحلة ... موحشة .. رهيبة ... أقف فيها وحيداً ... فريداً ... لا أجد فيها .. أمامي.. ولا حين ألتفت حوالي ... أو أحدّ بصري .. إلى الأُفق البعيد ... أحداً أسمع صوته ... أو أرى شكله ... ليشاطرني هذه الوحشة ... الرهيبة ... ويُذهِب عني هذا السأم ... المرّ... ويُخرجني من هذا السكون ... هذا الصمت ... المخيف.

ما لي ... لا أرى إلّا هذه الصخور ... وهذا الحصى ... القابع على هذه الأرض ... الرمليّة الفسيحة ... هذه الصخور .. التي أشبعتها أشعّة الشمس ... من وهجها .... وسقاها المطر .... وهبّت عليها الرياح ... والعواصف ... منذ آلاف السنين ... فلم تزد ... إلّا بريقاً ولمعاناً ... وإلّا حرارة ووهجاً... ولعلّ أحداً ... لم يسبق له ... أن طرق هذه الصحراء... ومشى في هذا الطريق ... المضلّل... فيما سبق من الدهور ... ولكنّي أنا الذي ... صرت فيه ... ولا يمكنني الخروج منه.

إنّها ... وحشةٌ رهيبة ... ومكانٌ مخيف ... يهلع له القلب ... ويطفر منه



(١) [تاريخ كتابتها] الاثنين: ١٥/ ٤/ ١٣٨١ = ٢٥/ ٩/ ١٩٦١م (منه قدس سره).

الفؤاد ... إذ لا يمكن ... أن يرى .... في هذا المكان ... غير الموت ... هذا الموت المحقّق .. الذي لا يمكن الفرار منه ... جوعاً وعطشاً ... إذن فلابدَّ من الخروج .. ولابدَّ من أن أُلاقي ... من أن أُلاقي أحداً .... ليقول لي شيئاً ... مهما كان تافهاً.... ليكون ماءً على جمر وحشتي ... وإطفاءً للظى... خوفي... ورهبتي.

ولعلّني ... التفتُّ الآن .. لأرى... ولكن ما الذي أرى ... لا أدري ... بل الذي أدري .. أنّه ... لا يوجد ... في هذا المكان ... في هذا المكان الموحش .. الفسيح .. شيءٌ يُرى ... شيءٌ يطيب برؤيته ... خاطري... وينعش نفسي ... ولكن... لعلّ هذا الشيء الذي تخيّلت رؤيته ... إنَّما هو وهمٌ من الأوهام ... سوف يذهب أدراج الرياح ... ولكنّني لا زلت أرى ... ماذا أرى ... هذه... ويا للأمل الكبير ... حشائش صحراويّة ... جافّة ... باهتة اللون ... خشنٌ مسّها .. قبيحٌ منظرها ... يكسو فروعها الشوك... ولكنّها ... ويا لصلابة عودها ... تنمو ... في هذه الأرض .. الجافّة ... وبين هذه الصخور ... المتراكمة ... وهذه الرمال .. المنتشرة ... إنَّها قويّة ... لا يمكن أن تقطعها الرياح ... ولا أن ... يجتثّها الأعاصير .. إنّها .. صامدةٌ في هذه الصحراء ... صمود وحدتي ... ووحشتي ... وراسخةٌ ... في هذا المكان الرهيب ... رسوخ هذا الانفراد .. الموحش ... المخيف.



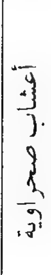
إنَّه ... بصيص نور ... ضعيف .. من الأمل ... بأن أرى هذه الأعشاب... الصحراويّة ... لعلّها تشاطرني الوحدة ... وتشاطرني ... الكلام .. وتعينني على هذا الانفراد ... وتُذهب .. عنّي ... بعض ما أجد في نفسي .. من الهواجس ... والأفكار ... فإنّني وإيّاها ... نرتبط معاً ... برباط

هذه الوحدة ... الموحشة ... ونعيش متجاورين ... في هذه الصحراء .. الواسعة ... وفي هذا ... الصمت الرهيب.

ما لي ... لعلّ الوحدة ... أفقدتني حسن تفكيري ... وأثّرت .. على .. أعصابي ... وأصابتني بذهول .. ووجوم ... وإلّا فلماذا ... أرجو من هذه الأعشاب ... الشوكيّة اليابسة ... أن ترفّه عن وحدتي ... وتُذهب عنّي ... هذه الوحشة ... وهذا السأم الطويل ... وإنّما هي مخلوق .. مثلي.. لا يملك لنفسه .. نفعاً .. ولا ضرّاً ... ولكن .. ما العمل .. وما هو وجه التفكير ... وهذا هو كلّ ما يمكنني أن أقوم به ... وأن أتشبّث به ... في هذه الصحراء .. الموحشة ... وبين وهج الرمال .. وأصوات .. الرياح؟

بلّ لعلّها ... تنفعني ... لأنّه ... ويا للخطب الفضيع .. لابدَّ للجوع ... أن يمرّ بي ... فلا يخرج منّي ... إلّا بعد أن يأخذ ... مُبتغاه ... أو حياتي .. ولابدَّ .. أن يعصر بطني ... ويقضّ مضجعي .. وفي سورة هذا ... الجوع ... العارمة ... لابدَّ لي ... أن أذهب ... إلى هذه النباتات ... الشوكيّة ... لأحاول .. أن أجد فيها .. .. قوتي ... وأن .. آخذ منها ... طعامي ... إذ لا يوجد ... في هذه الصحراء ... الواسعة ... الموحشة .. شيءٌ غيرها ... ولكن .. هل ستجود عليّ ... بحاجتي ... أو تسخو لي ... بمرادي ... أم أنّها ... سوف تتمرّد ... عليَّ ... وسوف ... تغلي الثمن في وجهي ... في وجه هذا المحتاج ... الفقير ... وتشحّ بالسلعة ... لنفسها ... دون القيمة ... المطلوبة؟

ولكن .. هل ستنتهي ... حاجتي ... بعد الانتهاء ... من هذه الأكلة الشهيّة .. المليئة باللذّة ... والنشوة؟ ... إنّني سأظمأ... وسأحتاج ... إلى الماء ... ليبلّ غلتي ... ويروي عطشي ... ويهضم طعامي ... ولكن أين؟



أين أجد هذا الماء ... أين يمكن ... أن أجد الماء ... أفي هـذه الـصحراء ... الجافّة ... القاحلة ... أم في .. هذه الصخور ... الملتهبة ... أم ... من هذه الأعشاب ... الشوكيّة ... التي أشرفـت عـلى نهايتهـا ... بعـدما بـسطت ... عليها مائدتي ... ولكن ... لعلّني... أتمكّن أن أصـبر ... أن أتريّـث ... حتّـى يأتي الشتاء ... وتنزل الأمطار ... وتبتـلّ الأرض ... ويخـرج ... الحـشيش .. فآكل ما أشاء ... وأشرب ... ما أشاء .. ولكن ... ويا للحلـم الجميـل ... لا يمكنني ذلك ... لأنّني في حاجـة ... ملحّـة إلى المـاء ... والعطـشُ ... آخـذٌ بخناقي ... وقابضٌ عليَّ ... أَزمّة قلبي ... وإن لم أشرب ... الماء ... في الوقت القريب ... جفّ حلقومي ... وتقطّعت أمعائي ... وزهقت حياتي ... إنَّ هذا العطش هذا ... العطش الممضّ ... مثل ذلك الجوع ... لابدَّ بعد أن استقرّ في جوفي ... وأخذ مكانه ... من بطني ... أن يأخذ ... ما يطلبـه ... منّـي ... أو يخرج ... ولكن .. بحياتي.

إذن ... أين المهرب ... أين المفرّ ... أيّ طريـق يمكننـي أن أسـلك ... وإلى أيّ جهة ... أذهب ... لأجد الريّ ... ولترتفع عنّي ... هذه الوحشة ... القاتلة .. ليذهب العطش .. الذي يُلهب جوفي ... ولعـلّي أتخلّـص مـن هـذا السكون ... الرهيب الذي ... يصفر في أذني ... فأجد لصفيره ... وقعاً مؤلمـاً ... على نفسي ... والتفت رأسي ... واسـتدار بـدني ... إلى كـلّ النـواحي ... ونحو كلّ الجهات ... أيـن يمكننـي ... أن أجـد ... هـذا الأمـل العظـيم ... الجميل ... الذي ما زال ... يراودني ... وإذا ببصري يقع ... يقع ... على شيءٍ ... شيءٍ رقصتْ له نفسي ... وهلّلت ... له أسارير وجهي ... إنَّه ... الماء ... نعم ... هناك ماء ... ولكن ... ويا للأسف ... موجودٌ في الأُفق البعيد ... لا

يمكن الوصول ... إليه ... إلّا بعد رحلةٍ ... شاقّة ... متعبة ... قد أرتمي خلالها ... صريعاً ... من العطش ... أو من التعب ... ولكن ... لابدَّ من الذهاب ... لأشرب الماء.

ولكن ... ويا للهول ... ويا للبؤس والشقاء ... وبعد كلّ هذا الجهد ... المتواصل ... أرى الماء ... أرى الماء يبتعد ... كلّما تقدّمت إليه ... ويهرب ... أمامي ... كلّما أحثّ الخطى ... كي أدنو منه ... فهل ... يمكنني ... بعد هذا العطش الشديد ... والتعب ... الممضّ ... أن أصل إليه ... وأروي به ... قلبي الملتهب ... أو أن أصل ... إلى شخص ... يدلّني على ... الماء ... ويخفّف عنّي ... ألم هذه الوحدة ... القاسي ... أم ... أنَّ قدمي ... سوف يقودني ... في نهاية هذا الطريق ... الطويل ... إلى تلك الحفرة ... الحفرة المظلمة ... المقفلة الأبواب ... وسأسقط فيها ... من حيث أدري ... ولا أدري ... هذه الحفرة ... التي تفقد شيئاً كثيراً ... من مميّزات هذه الصحراء ... مع اشتراكهما ... بالوحشة والرهبة ... والسكون ...

محمّد الصدر





شفتان من الماء

(شفتان من الماء)[1]

قصة رمزية تمثل الاختلاف بين رئيسين

كان مركب الصيد الشراعي يتهادى في اطمئنانٍ وهدوء، على صفحة البحر الجميل الهادئ، في جوٍّ رائقٍ صافٍ، والأمواج تعبث بأسفله عبثاً رفيفاً يزيده اطمئناناً وثقةً بنفسه، وأشعّة الشمس الناصعة تصافح الماء، فتُحدث فيه بريقاً رائعاً جميلاً يزيد من جمال هذا الجوّ وحسنه.

وفجأةً أخذ الموج يتدافع ويتلاطم، ويرتفع الماء وينخفض بشكلٍ يعوق المركب عن السير، وظهر الغضب على وجه البحر، واحمرّت عيناه، وتطاولت ألسنة الماء الغليظة، شامخةً في الهواء، قائلةً: يبدو أنّك أيُّها الهواء تتحدّاني، وتريد أن تدّعي لنفسك فضل تسيير المركب دوني. ولكنّ الحقيقة هي أنّني أنا الذي أسير بالمركب و أوجّهه، وأنا الذي أحمله على ظهري فيسير هادئاً سعيداً.

وإذا بوجه الهواء يحمرّ ويبدو عليه الغضب، وتسرع أرجله راكضةً في الجوّ، ويُطلق صفير التهديد حنقاً من ذلك الضدّ المنافس. وقال: ما لك أيُّها البحر تعتدي على جارك وتتطاول على صاحبك، فتغمط حقّه وتكذب عليه، وإنّي لأرجو ألّا تكرّر مثل هذا الزور من القول؛ فإنّني أنا الذي أسير بالمركب إلى حيث يريد، وأوجّهه الوجهة التي يقصدها فيصل إليها آمناً سالماً، وليس لك في هذا العمل نصيب.



---

(١) [تاريخ كتابتها] السبت: ٢٠/ ٤/ ١٣٨١ = ٣٠/ ٩/ ١٩٦١ (منه قدس سره).

فعبس البحر، وتجهّم وجهه، وارتفعت أيديه تضرب الهواء بقوّةٍ وعنف، وقال: لستُ معتدياً ولا مزوّراً، وإنَّما أنت الذي تتحدّاني وتعتدي عليّ لتدّعي لنفسك ما لا تتّصف به، إنَّني مقتنعٌ بصواب قولي وسداد منطقي.

فازداد غضب الهواء وحنقه، واستمرّ يصفر بصوتٍ أعلى ممّا كان عليه من قبل، وتطاير الشرر من عينيه، وصاح بالبحر: أتتحدّاني أيّها البحر اللئيم، وتنكر فضلي؟! إنَّك أهون من ذلك وأحقر؛ لأنَّني أستطيع أن أُقيم دليلاً حاسماً على صدق قولي من شهادة سكّاني، فهل تقبل بهذه الشهادة؟

فاربدّ وجه البحر وازداد تلاطم أمواجه، وارتفعت أيديه تضرب الهواء ضرباً مبرحاً، واندلعت ألسنته قائلة: افعل ما بدا لك، أقم ما شئت من شهودك، إنَّني لن أصدّق لك دعواك؛ لأنَّ عندي من سكّاني شهوداً يدحضون حجّتك، ويردّون دعواك عليك.

فركضتْ أرجلُ الهواء يميناً وشمالاً، وصعدت ونزلت، ودارت دوراناً اجتمع خلالها عددٌ من طيور البحر، واقتربت الطيور من هذا البحر الهائج المتلاطم؛ ليؤدّوا شهادتهم بقربه.



ثُمَّ صفر الهواء وزمجر وقال بكبرياءٍ وحدّة: هؤلاء هم شهودي، فسلهم أيُّها البحر لينبئوك بالصواب، ويثبتوا لك صدق قولي، وكذب دعواك، وظلم اعتدائك.

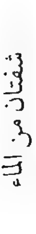
فعضّ البحر شفتيه، وقارب بين حاجبيه، ونظر إلى الهواء وشهوده نظرة احتقار وازدراء، وقال: بل اطلب أنت الكلام منها، فإنَّني أعلم أنَّني على حقٍّ من أمري، وأنَّك أنت المحتال المخادع.

فازدادت عيني الهواء جحوظاً، وازداد وجهه عبوساً واكفهراراً، وصاح

بالطيور: تكلّمي أيّتُهَا الطيور، أثبتي حقّي الصحيح الواضح، وصفي لهذا البحر المجنون كيف أنّني أنا الذي أسير بالسفن وأدفع المراكب، ولولاي ما استطاع البحر نقلها قدماً واحداً.

فاضطربت الطيور في هذا الجوّ المكفهرّ العابس، وهذا البحر المتلاطم، وقالت بذلّة واستسلام: إنَّ كلّ الذي نعلمه يا سيّدي أنَّ هذا المركب ينفعنا بمروره في هذا المكان بما نستطيع التقاطه من مخلّفات موائد راكبيه، ولكنّه يحرمنا من كمّيةٍ كبيرة من السمك بما يصطاده منه عند مروره.

وعندئذٍ اشتدّ عبوس البحر وأرعد وأزبد، وتوالت ضرباته القويّة لخصمه العنيد، وصاح في وجهه: أُنظر أيُّها الخبيث إلى شهود الزور الذين أقمتهم، إنَّها لا تعرف ما تقوله، إنَّ لديّ شهوداً عدولاً صادقين، يعلمون الحقيقة على وجهها، ويعلمون ثبوت حقّي وبطلان دعواك.





وركضت الأمواج وتلاطمت، وهاج البحر وماج، وإذا كثيرٌ من السمك يجتمع تحت سطح الماء ويرسل فقاعاتٍ متتابعةً سرعان ما تختفي تحت هذا الموج الهادر.

ثُمَّ التفت البحر بوجهه العابس المكفهرّ إلى خصمه وقال له بغلظةٍ وكبرياء: هؤلاء هم شهودي، فسَلْ عن حقّي الذي تُحاول إنكاره وتريد الاعتداء عليه، سلهم ليوضّحوا لك: كيف أنَّ الصدق إنَّما هو في قولي، وأنَّ الحقّ في جانبي، وأنَّك معتدٍ أثيم.



فضرب الهواء صفحةَ وجه خصمه ضرباتٍ قويّةً متتابعة، وازدادت سرعة جريه واحمرار وجهه، وقال بحنَق وجفاء: سَلْهم أنت فإنَّني أعلم صدق قولي وأنَّك كاذبٌ خادعٌ محتال.

فتلاطم البحر، وهـدر المـوج، وقـال للـسمك: اذكـري أيّتهـا الـشهود العادلة الصادقة لهذا الخصم السفيه العنيد، صدق قولي وثبوت حقّي، وألقمي فاه حجراً لئلّا يعود بعدها إلى الكلام، بيّني كيف أنّني أنا الذي أحمل المراكـب وأنقلها إلى حيث تريد.

فأرسلت الأسماك وهي تعلو وتهبط وتتدافع في طيّات الأمـواج العاتيـة فقاعاتٍ تحتوي على صوتٍ يحمل الجواب. وصعدت هـذه الفقاعـات بطيئـةً متثاقلةً لتـصل إلى سـطح المـاء. فـضربها البحـر بيـدٍ قويّـة، فـانفجرت هـذه الفقاعات، وإذا بالصوت الذي تحتويه ينتشر في الهواء قائلاً: كلّ الذي نعلمـه أنَّ هذا المركب يأخذ منّا عندما يأتي إلى هذه المنطقة آلافاً من الضحايا، ولكنّنـا لا نعدم منه بعض الطعام الذي يلقيه إلينا ركّابه.

وعندئذٍ زمجر الهواء وعربد وجحظت عيناه من الغضب وصاح بالبحر محنقاً:

أبهذه الشهود التي لا تعرف ما تقول، أبهذيان هذه الشهود تهدّدني وتفتخـر عليّ وتريد أن تُثبت حقّـك أيُّهـا الكـذّاب الحقـير، إنَّ دعـواك واضـحة التزويـر والبهتان، وإنَّني أنا الصادق، والحقّ ثابتٌ لي بدون أيّ جدلٍ وأيّ شكّ.

فهاج البحر هياجاً عنيفاً واكفهرّ وجهه اكفهراراً وتدافعت أمواجه بقوّةٍ وعنف. وازدادت ضرباته لخصمه، بأيديه العريضة قوّةً وعنفاً، وقال بـصوت الحانق المعتزّ بنفسه: إنَّ حقّي ثابتٌ لا يمكن الشكّ فيه على رغم ما تزعم ومـا تدّعي، وليس أدلّ على ذلك من أنّني أستطيع ابتلاع هذا المركب بمَن فيه، فلا تستطيع نقله شبراً واحداً.

وارتفعت الأمواج المتلاطمة في الهواء، ثُمَّ انخفضت، وإذا بالبحر يفـتح فمه الواسع الكبير وتتباعد شـفتاه الغليظتـان فيتـدحرج بيـنهما هـذا المركـب

الشراعي البائس. ثُمَّ انطبقت الشفتان وظهرت على وجه البحر علائـم اللـذّة والانشراح ودلائل نشوة النصر.

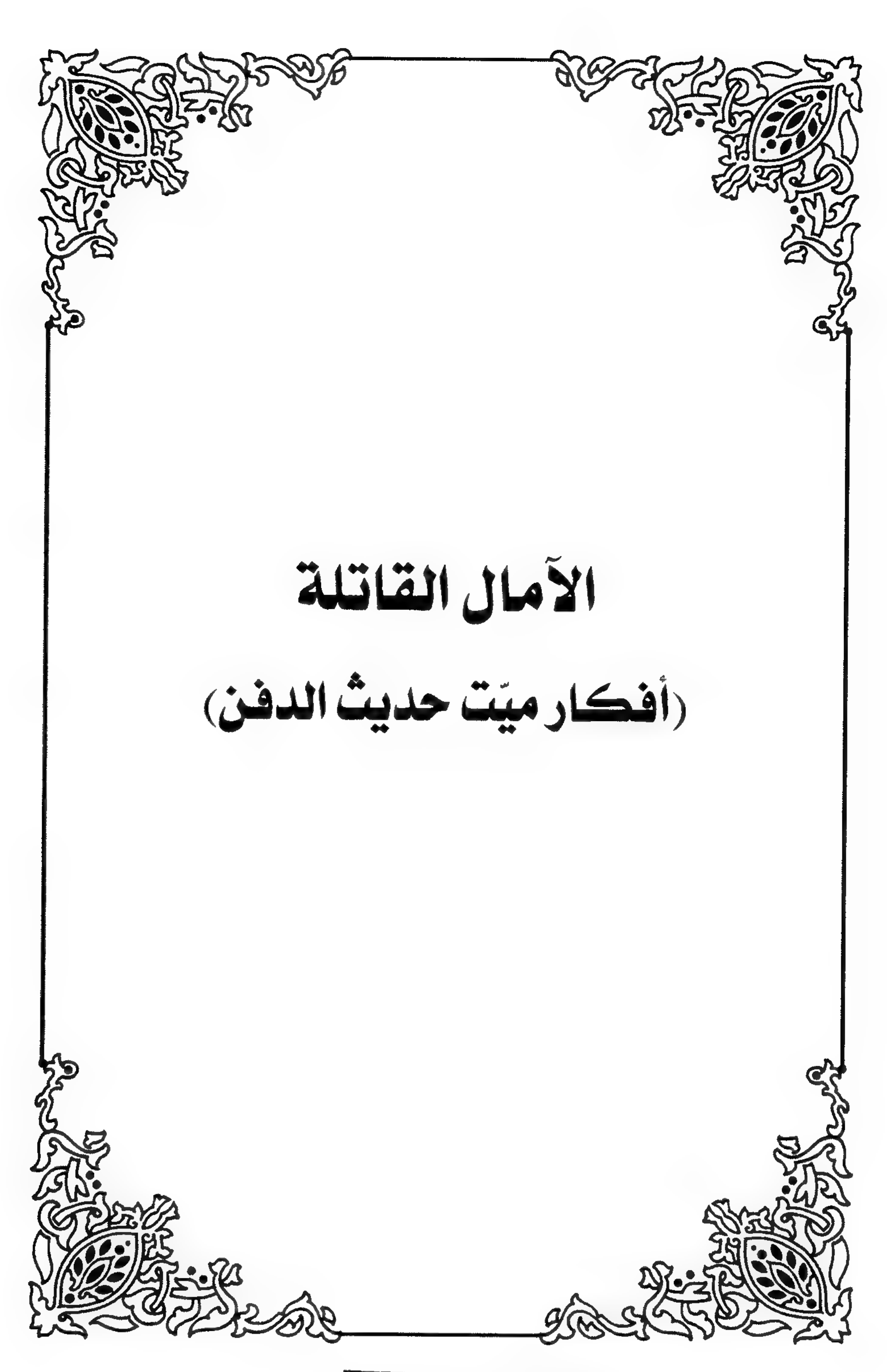
محمّد الصدر

النجف – العراق







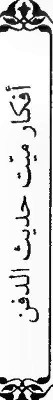


الآمال القاتلة

(أفكار ميّت حديث الدفن)

الآمال القاتلة(1)

(أفكار ميت حديث الدفن)



... آه.. آه... مَن أنا... وأين أنا ... ما هذا المكان الذي أنا فيه الآن ... ولماذا أنا مستلقٍ في هذا المكان الموحش المظلم، وحيداً، فريداً؟ كيف جرّتني إليه قدمي .. ومن أين أتيت إليه .. وما هذا القماش الخشن الملفوف حولي .. وما هذا الحجر الموضوع تحت خدّي.. وما هذه الروح الضئيلة الرقيقة التي تنبض بين جنبيّ يكاد التراب أن يعصرها والظلمة أن تأخذ بخناقها؟

... آه ... بدأتُ أشعر شيئاً فشيئاً ... بدأتُ أستردّ وعيي وذاكرتي كما تسري النار في الهشيم أو الروح في العود اليابس.. إنَّني كنتُ قبل لحظاتٍ مريضاً ملقىً على الفراش يكابد من سكرات الموت وآلامه أمراً عظيماً... وكان أهلي ... وكانت زوجتي ... وكان أولادي وبناتي حولي أجمعين ساهرين ... قد انطفأ في قلوبهم الأمل في حياتي، وعرفوا أنَّ حيني قد حان، وأنَّني سأفارقهم وسأفارق الدنيا كلّها عمّا قليل ... فكانوا يكفكفون عن أعينهم دموعاً تكاد تسيل؛ لئلا يحزنني منظر بكائهم، ولأجل أن أُفارق الحياة وأنا أحسبهم سعداء، لا يكدّر دهرهم سوءٌ أو حزن.

وقد كنت قبل هذا الوقت بقليلٍ، أعتصر الألفاظ من روحي اعتصاراً، وأكابد في إخراجها آلاماً ... لكي أنصح أهلي وأوصيهم بما أراه خيراً لهم في

(1) [تاريخ كتابتها] الأربعاء: ٢/ ٥/ ١٣٨١ = ١١/ ١٠/ ١٩٦١ (منه قدس سره).

حياتهم بعدي، وكانوا هم يعانون في سماعها عناءً شديداً .. كنتُ أعرفه من وجوههم. وكان واضحاً أنَّ قلوبهم لا تفكّر في الألفاظ التي يقذفها فيَّ، وإنَّما تفكّر في هذا الشبح الملقى أمامهم وهو ينازع سكرات الموت، وكنت ألاحظ أنَّ صوتي المتقطّع الخافت لا يمكنه أن يدخل في آذانهم، بل إنَّ أقصى ما يمكنه من العمل هو أن يقرع ظاهر آذانهم ويرتدّ.

كنتُ أتكلّف الكلام لأجل أن يتمّم أولادي الأعمال التي بدأتها، وأن يحصلوا على الآمال التي طمعتُ فيها، وأن يجنوا ثمرات ما أتممتُ صنعه من عملٍ في غضون حياتي الطويلة ... ولأجل أن يسعدوا في مستقبل حياتهم لئلّا يضيق بهم العيش ويستبدّ بهم الشقاء.

... ولكن ... ورغم ما بذلتُ لهم من النصح، وما أجهدتُ نفسي به من أجلهم من أعمال .. أراهم ألقوا بي في هذا القبر الضيّق وتركوني فوق هذا التراب، وفي هذا الظلام والوحشة، بعد أن وجدوني جثّةً لا تسمن ولا تغني من جوع.

قذفوني بعيداً حين أيسوا من خيري، وأمنوا من شرّي، وانقطع عنهم حسني وقبيحي ... تركوني هنا وذهبوا بعد أن أهالوا التراب عليّ بظهور أكفّهم مسترجعين ... وهل تنفعني الحولقة أو الاسترجاع ... ذهبوا ليمخروا عباب هذه الحياة التي كنتُ أحياها، وليناضلوا من أجل الآمال التي كنتُ أناضل من أجلها، وليقصدوا نحو السراب الذي قتلني السعي إليه.

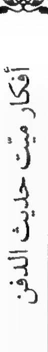
... آه ... ما أضيق هذا القبر! وما أقسى هذه الوحشة! وما أدكن هذه الظلمات المتراكمة! ... وما أخشن هذا الملبس والمسكن! ... إنَّهم نقلوني إلى هذا القبر المملوء بالتراب دون طعامٍ أو شرابٍ أو هواءٍ، أو شخصٍ آنس معه،



أو عملٍ أقوم به .. تركوني هنا وحدي لأقتات عند جوعي من هذا التراب، وأشرب عند ظمئي من الظلام، وأتنفّس من وحدتي ووحشتي وانفرادي، وذهبوا ليتقلّبوا بأنواعٍ من نعيم العيش ولذيذ الحياة ... فما أشدّ القسوة في قلوبهم! وما أضعف الرحمة في نفوسهم!

ما أجمل تلك الحياة التي كنتُ أعيشها! وما أطيب ذلك الهواء الذي كنت أتنفّسه! وما ألذّ ذلك الطعام الذي كنتُ آكله! وما أحلى تلك الآمال التي كنت أسعى نحوها وأبذل لها من مالي وعمري الشيء الكثير! .. وما أطيب الحزن الذي كان يمتلك عليّ قلبي، إن أنا عجزت عن نيل بعض تلك الآمال! ... إنّني استطيع الآن أن أتميّز - بصورةٍ أوضح وأجلى - السعادة التي كنتُ أعيش في ربوعها في الحياة ... فقد كنتُ أستطيع أن أتنفّس وأن أتكلّم وأن أقرأ وأكتب، وأن أفرح وأحزن، وقد كنتُ أستطيع أن أعتدي على كلِّ من يقف حجر عثرةٍ أمام آمالي وأحلامي، وأن أحبّ وأرحم مَن أشاء؛ لأنّه أسدى إليَّ في سبيل آمالي ما يقرّبني نحوها خطوةً أو خطوات، كنتُ أضحك وكنتُ أتكلّم هازلاً حيناً وجادّاً أحياناً، وربّما كنتُ أُحاول قتل الوقت في بعض الأحيان، غافلاً عن أنَّ هذا الوقت الذي أقتله عن طيب قلبٍ لن يعود إليّ، وأنّني سوف أخسره إلى الأبد.

لعلّني قد أسرفت في الشوق إلى الحياة التي كنتُ فيها، فهل كانت من الأهمّيّة بهذا المحلّ الذي أُريد أن أضعها فيه .. إنّها لم تكن إلّا أحلاماً باهتة، وآمالاً ضيّقة، وظلالاً متنقّلة، وسعادةً زائلة، قد تخلّصتُ منها عندما دبّتْ في نفسي اليقظة واطّلعتُ على الحقيقة، وجرى فوق أعصابي دبيب اليقين. صحيح أنّها كانت نعمةً زالت عنّي، وسعادة حُرمتُ منها، ولكنني لا أحسبها



إلَّا أهلاً لهذا الزوال، ولا أحسبني إلَّا أهلاً لأن أُحرم منها، وأن أُسجن في هذا القبر الرهيب.

فما كانت أيّامي إلَّا أوهاماً وخيالاً، وآمالاً عراضاً، لا يمكنني أن أصل أو أن أحقّق إلَّا الشيء القليل ممّا تتطلّبه .. كانت نفسي ترجو وتلحّ في الرجاء، وتطلب وتلحف في الطلب، وكنتُ أمتطي جناح الآمال إلى الآفاق البعيدة والنجوم النائية، وكنتُ أركب في سبيل تنفيذ هذه الآمال المكاره، وأتجشّم الأهوال، وأحاول تذليل المصاعب مهما كلّفني ذلك جهداً أو مالاً أو عمراً، ومهما ألزمني ذلك بأن أعتدي على من يقف سدّاً أمام آمالي، أو أن اختلس الأموال وأزوّر الكلام وأغمط حقوق الناس وأذكّرهم بما لا يحبّون، حتّى إذا ما تمكّنت من تحقيقها أو الاقتراب منها، عشتُ لحظاتٍ جميلات، في الحلم الذي تحقّق بعد ذلك الجهد الطويل، والذي كان يراودني مُنذ زمنٍ بعيد، ثُمَّ أجد أنَّ الوضع الذي كافحت من أجل الوصول إليه ناقصٌ محتاجٌ إلى التغيير والتطوير، ومحتاجٌ إلى عددٍ ضخم آخر من الآمال والأحلام؛ لأملأ بها قاموسي مرّةً أُخرى، ولأبذل في سبيلها جهداً ومالاً آخر، ولأخسر عمراً؛ لعلّها أن تسدّ هذا النقص الجديد.



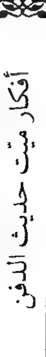
والآن ... وبعد أن انفتحتْ أمامي أبواب الحقيقة واليقين، عرفتُ أنّها كانت آمالاً زائفة وأحلاماً برّاقةً لا تحتوي على شيءٍ يمكنه أن يعود عليّ بالنفع في هذا الوقت الحرج، ولم يكن ذلك منّي إلَّا قصرَ نظر، وغفلةً عن عواقب الأُمور.

وأنَّ هذه الآمال لا يمكن أن تساوي ما كنتُ أتجشّمه في سبيلها من المصاعب، وما كنتُ أنفقه من أجلها من أموال، وما كنتُ أرتكبه لها من

الموبقات ... إذن، فقد أنفقتُ عمري فيما لا خير فيه ... فيا للخسارة .. ويا للندامة ...

وعرفتُ شيئاً آخر أكثر أهمّيّةً وأبعد أثراً في نفسي وأنا سجين هذا القبر الضيّق، وأدعى بأن أدعو منه بالويل والثبور، وأن أستشعر عليه الخسارة والندامة. عرفتُ أنّ آمالي لم تكن فقط آمالاً زائفة ضيّقة، بل كانت على ذلك قاتلةً فتّاكة؛ لأنّها هي التي جرّتني إلى هذا المكان، وهي التي ساقتني إلى هذه الوحدة وهذه الظلمة والوحشة، ولولاها لكنتُ الآن أتنفّس الهواء وأعيش مع الناس. وهي التي ستلاحقني أيضاً بضررها إلى هذا المكان؛ لأنّني سأُحاسَب بعد قليلٍ عن الأعمال التي قمتُ بها في غضون حياتي، وعن الأقوال التي قلتُها، وعن الأموال التي بذلتها. وهل يُوجد عندي من الأعمال غير التعدّي على الآخرين؟ ومن الأقوال غير الكذب والغيبة والنميمة؟ ومن الأموال غير المجلوب بالسرقة والاختلاس؟ ... وهل يمكن الإنكار في هذا المكان الرهيب، وتحت الحساب الدقيق؟ .. وهل يمكن الاعتذار؟ ... آه...

ليتني كنتُ أستطيع الخروج من هذا القبر المظلم الضيّق إلى الحياة الدنيا، لا لأتنفس الهواء، ولا لأتكلّم مع مَن يؤنسني ويُذهب عنّي هذه الوحشة، بل لأجل أن أنصح الأحياء الغافلين في أن يقلّلوا من طموح آمالهم، ويقصروا آمالهم على ما ينفعهم في قبرهم وعند وحشتهم ووحدتهم، وأن لا يذهبوا بآمالهم بعيداً، فهي أقلّ أهمّيّة ممّا يظنّون، وأبسط ممّا يتخيّلون، وأن يتزوّدوا من تقوى الله تعالى، فإنّ خير الزاد التقوى، وأن يخلصوا نيّتهم إليه، فهم فقراء لعفوه ورحمته في هذه العزلة وفي هذه الظلمة. وهذا هو الشيء الوحيد الذي يرجى به النجاة في هذا المأزق، والفوز في الحساب، ولكن لا يمكنني أن أراهم



إلّا بعد أن تقضي عليهم آمالهم وتنقلهم إلى قبورهم ... حينئذٍ يحتمل أن أراهم ولكن بعد أن يقع المحذور، ويفوت زمن النصح والإرشاد.

إنَّ هذه الآمال التي سعيتُ إلى نيلها بخفّةٍ ونشاطٍ، وفرحٍ وابتهاج، هي التي قتلتْني، وهي التي جعلتْني متحمّلاً لمسؤوليتها في هذا المكان المظلم الضيق...

إنَّني الآن في راحةٍ واطمئنان بالقياس إلى ما سوف أُلاقي من المصاعب والأهوال ... آه ... ما هذه الحركة العنيفة؟ وما هذه الأصوات المرعبة؟ .. إنَّ الملكين قد جاءا لمحاسبتي على أعمالي. فويلٌ لي من حسابهم، وويل لي من العذاب.

محمّد الصدر

النجف – العراق





مقاطع شعرية

مما لم تنشر

قلت في تاريخ ولادة (مصطفى) حفظه الله تعالى

بِجَـــذْوَةٍ مِـــنْ ضَرَامِ وَنَغْمَـــةٍ مِـــنْ حَمَـــامِ

وَحُزْمَـــةٍ مِـــنْ ضِـــيَاءٍ تَلُـــوحُ بَـــيْنَ الْغَـــمَامِ

تُـــرَاقِصُ الْقَلْـــبَ سُـــكْراً كَـــسُكْرِ حَـــاسِي الْـــمُدَامِ

وَصَـــفَّقَ الْفِكْـــرُ جَـــذْلَا نَ بِنَـــشْوَةِ الأَنْغَـــامِ

وَأَطْبَـــقَ الْعَـــيْنُ جَفْنَيْـــــهِ فِي عَـــالَمِ الْأَحْـــلَامِ

فَقِيـــلَ مَـــا ذَا التَّـــصَابِي؟ وَمَـــا عَهِـــدْنَاكَ عَـــامِي

لَازِلْـــتَ شَخْـــصاً رَزِينـــاً مُـــبَجَّلاً بِـــاحْتِرَامِ

فَلَـــمْ نَـــرَاكَ خَفِيفـــاً لَمْ تَلْتَـــزِمْ بِـــالْتِزَامِ

فَقُلْـــتُ: هَـــذَا لِأَنِّي قَـــدِ ازْدَهَـــتْ أَيَّـــامِي

قَـــدْ فُـــزْتُ بِالْحُـــبِّ يَوْمـــاً كَـــمَا يُرِيـــدُ مَرَامِـــي

فَهَـــلْ سَـــأَبْقَى رَزِينـــاً وَالْقَلْـــبُ يَـــشْدُو أَمَـــامِي

وَكُـــلُّ جِـــسْمِيَ نُطْـــقٌ يَـــشْدُو بِـــدُونِ كَـــلَامِ

يُـــرَاقِصُ النُّـــورَ دَوْمـــاً عَـــلَى انْهِـــمَالِ الْغَـــمَامِ

وَيَـــزْدَرِي بِتَحَـــدٍّ كُـــلَّ الْهُمُـــومِ الطَّـــوَامِي

فَـــإِنَّ فِيـــهِ لَـــشَأْناً يُغْنِيـــهِ فِي كُـــلِّ عَـــامِ

يَمُـــــــدُّهُ بِحُبُـــــورٍ   عَــــلَى مَـــدَى الْأَيَّـــامِ

وَلَـــيْسَ يَنْــصِبُ عَلَيْـــ   ـــنَا شَعْـــشَعاً بِـــدَوَامِ

فَقِيــــلَ وَالْعُجْــبِ بَـــادٍ   عَــــلَى وُجُــوهِ الْأَنَـــامِ

مَـــاذَا الَّـــذِي جَـــدَّ حَـــالاً   فِي قَلْبِـــكَ الْمُـــسْتَهَامِ

فَقُلْـــتُ وَالـــدَّمْعُ يَجْـــرِي   بِنَـــشْوَةٍ مِـــنْ غَـــرَامِ

مُرَحِّبـــاً بِوَحِيـــدِي: أَرِّخْـــتُ شَـــبَّ غُلَامِـــي

١+ ٣٠٢+١٠٨١=١٣٨٤

وكان نظمه بتاريخ يوم الجمعة ٤/ رمضان/ ١٣٨٤، الموافق ٨/ كانون الثاني/ ١٩٦٥.

وفي أثناء بحثي عن تاريخ آخر لولدي (مصطفى) وجدت تاريخاً لسنة ١٣٦١هـ، وهو يناسب ميلاد ابن عمّي، وخال ولدي الأستاذ السيّد محمّد مهدي الصدر (سلّمه الله) فقلت فيه:

أَيُّ أَبٍ حُـــرٍّ وَأُمٍّ رَئِـــيمْ   قَـدْ أَتْحَفَـا الـدُّنْيَا بِـشَخْصٍ كَـرِيمْ

مُقَـــدَّماً مَـــا بَـــيْنَ أَقْرَانِـــهِ   عِلْـماً وَفِي أَخْلَاقِـهِ مُـسْتَقِيمْ

يَقْـبِسُ مِـنْ شَـمْسِ الْعُـلَا نُـورَهُ   وَفِي مَـدَارِ الْـمَجْدِ فَهْـوَ الـسَّدِيمْ

مُنْحَـدِرٌ مِـنْ نَـسَبٍ وَاضِـحٍ   مُعَـرَّقٍ فِي الْعِـزِّ مُنْـذُ الْقَـدِيمْ

مُحَمَّـدُ الْـمَهْدِيُّ، وَالْفَـضْلُ إِنْ   يُعْـزَ تَكُـنْ فِيـهِ نَظِـيراً عَـدِيمْ

كَرَّسْـتَ لِلْعِلْـمِ مَـسَاعِيكَ فِي   نُـضْرَتِهِ فِي عُمْـرِكَ الْمُـسْتَدِيمْ

فَكُنْـتَ فِي مَيْدَانِـهِ فَارِسـاً   وَفِي خَفَايَـاهُ الْخَبِـيرَ الْعَلِـيمْ

فَكَـــمْ يَـــدٍ أَسْـــدَى عَلَيْنَـــا إِذَنْ	مِـــيلَادُكَ الْفَـــذُّ بِيَـــوْمٍ كَـــرِيمْ
فَكَـــمْ أَرَانَـــا فِيـــكَ مِـــنْ تُحْفَـــةٍ	وَكَـــمْ حَبَانَـــا بَعَطَـــاءٍ جَـــسِيمْ
فَهْـــــوُ إِذَا أَعْدَدْتَـــــهُ نِعْمَـــــةٌ	وَهْـــوَ إِذَا أَرَّخْـــتَ شَـــأْنٌ عَظِـــيمْ

بعثت برقيّاً إلى سماحة الحجّة الشيخ محمّد حسن آل ياسين بمناسبة العمليّة الجراحيّة التي أُجريت له في حنجرته بتاريخ: الثلاثاء ٥/ ١٠/ ١٣٨٩ هـ ١٧/ ١/ ١٩٦٧ هذين البيتين:

صَـــدَحَ الْهُـــدَى بِـــشِفَاكَ صَـــارَ شِـــفَاؤُهُ

(إِذْ كان دَاءَكَ فِي الْحَقِيقَةِ) مِنْ بَعْدِ أَنْ قَـدْ كَـانَ دَاءَكَ دَاؤُهُ

وَتَبَـــاشَرَتْ كُـــلُّ الْقُلُـــوبِ بِلَهْفَـــةٍ

(وَسُرُورُهَـــا) إِخْلَاصُـــهَا لِلـــشَّيْخِ دَامَ بَقَـــاؤُهُ

مقبرة الكلام

شَفَتَايَ تَتَحَرَّكُ بِبُطْءٍ وَتَثَاقُلٍ،
وَتَظَلُّ تَتَحَرَّكَانِ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَنِ،
وَانْتَظَرَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْنِهِما كَلَامٌ،
فَإِذَا هُمَا مَقْبَرَةُ الْكَلَامِ.
وَنَظَرْتُ نَظْرَةً سَاهِمَةً إِلَى مَا حَوْلِي،
لَعَلِّيَ أَنْ أَجِدَ مَوْضُوعاً لِكَلَامِي،
فَمَا رَأَيْتُ إِلَّا أَشْبَاحاً ابْتَلَعَتْهَا أَمْوَاجُ الزَّمَانِ،
وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا الْهَشِيمُ،
وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْمِلَ الْكَلَامُ حَوْلَهَا أَيَّ مَعْنىً.
إِذَنْ مَاذَا أَعْمَلُ؟
لَابُدَّ أَنْ أَتَكَلَّمَ،
بَعْدَ هَذَا الصَّمْتِ الطَّوِيلِ،
وَأَخِيراً جَعَلْتُ مِنْ حَيْرَتِي مَوْضُوعاً لِكَلَامِي
فَهِيَ مِنْ خَيْرِ مَوَاضِيعِ الْكَلَامِ.

محمّد الصدر

النجف الأشرف

الأحد ١/ ٧/ ١٣٨١ = ١٠/ ١٢/ ١٩٦١

قطعة رمزية

أنا إنسان غارق في الضباب

مَنْ أَنَا؟

وَمَا لِعَجَلَةِ الزَّمَانِ تَدُورُ بِي بِدُونِ انْقِطَاعٍ،

وَهَذِهِ أَيَّامِي تَمُرُّ بِي بَطِيئَةً مُمِلَّةً،

ثُمَّ تَذْهَبُ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ،

وَتُتَابِعُ،

حَتَّى تُوصِلَنِي إِلَى الْـمَصِيرِ الْـمَحْتُومِ،

وَمَا هَذِهِ الْأَشْبَاحُ الَّتِي أَرَاهَا تَتَرَاقَصُ،

كَأَنَّهَا لَهَبُ شَمْعَةٍ صَافَحَتْهُ الرِّيحُ،

وَمَا هَذِهِ الْأَنْغَامُ الَّتِي تَطْرُقُ أُذُنِي بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ،

فَأَجِدُ مِنْهَا مَا يُثِيرُ الضِّحْكَ،

وَمِنْهَا مَا يُثِيرُ الْبُكَاءَ؟!

وَأَخِيراً عَرَفْتُ

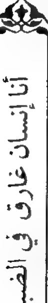
وَيَا هَوْلِ مَا عَرَفْتُهُ!

أَدْرَكْتُ أَنَّنِي إِنْسَانٌ!

غَارِقٌ فِي الضَّبَابِ!

محمّد الصدر

١٣٨١/٧/١ = ١٩٦١/١٢/١٠



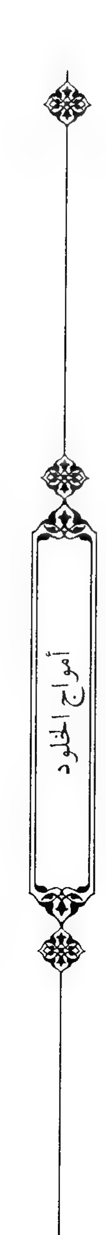
قطعة رمزية

أمواج الخلود

وَأَخِيراً
وَبَعْدَ كُلِّ هَذَا التَّعَبِ الْمُتَوَاصِلِ،
وَقَفْتُ عَلَى السَّاحِلِ:
وَتَطَلَّعْتُ إِلَى هَذَا الْسَمَاءَ اللَّانِهَائِيِّ الْأَطْرَافِ
وَانْتَصَبْتُ أَمَامَ عَيْنَيْ أُمْنِيَتِي،
الَّتِي أَتْعَبْتُ نَفْسِيَ مِنْ أَجْلِهَا،
وَفِي سَبِيلِهَا تَلَطَّخَتْ يَدِي بِدَمِ الزَّمَانِ،
وَمِنْ أَجْلِهَا رَكِبْتُ مَتْنَ السَّحَابِ
وَغُصْتُ فِي أَعْمَاقِ التُّرَابِ
إِنَّنِي أُرِيدُ أَنْ أَغْرَقَ فِي هَذَا الْبَحْرِ،
وَأَن أَسْبَحَ دَاخِلَ هَذَا الْمَاءَ،
وَأَنْ أَتَوَغَّلَ فِي الْبَحْرِ، وَأَبْتَعِدَ عَنِ السَّاحِلِ، مَا وَسِعَنِي التَّوَغُّلُ وَالابْتِعَادُ
فَهَلْ يُمْكِنُ ذَلِكَ؟!
هَلْ يُمْكِنُنِي أَنْ أَكُونَ سَمَكَةً مِنْ أَسْمَاكِهِ
أَعِيشُ عَلَى مَا تَعِيشُ عَلَيْهِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ،

وَأَتَجَوَّلُ مِثْلَهَا فِي أَرْجَاءِ هَذَا الْبَحْرِ الْفَسِيحِ.
أَمْ إِنَّنِي سَوْفَ أَفْقِدُ حَيَاتِي!
فِي سَبِيلِ نَزْوَةٍ طَائِشَةٍ،
وَيَكُونُ مِنْ لَحْمِي الطَّرِيِّ غَذَاءً شَهِيّاً تَقْتَاتُهُ الْأَسْمَاكُ،
وَلَكِنَّنِي لا أَرَى فِي ذَلِكَ مَا يَدْعُو إِلَى الْانْزِعَاجِ.
أَمَّا جَسَدِي، فَهَنِيئاً لِأَسْمَاكِ الْبَحْرِ فِي هَذِه الْوَجْبَةِ الشَّهِيَّةِ.
وَأَمَّا رُوحِي، فَسَتَخْتَلِطُ بِأَمْوَاجِ هَذَا الْبَحْرِ،
وَسَتَذْهَبُ عَلَى مَتْنِ الْأَمْوَاجِ إِلَى حَيْثُ السَّعَادَةُ وْالْخُلُودُ!

الاثنين
١١/ ١٢/ ١٩٦١ = ٢/ ٧/ ١٣٨١
محمّد الصدر






سلاسل من ذهب

حَيَاتِي رَتِيبَةٌ مُمِلَّةٌ

أَدُورُ خِلَالَهَا كَعَقْرَبِ الثَّوَانِي،

مَا أَكَادُ أَنْتَهِي مِنْ دَفْنِ نَهَارٍ،

حَتَّى يَشْغَلَنِي إِرْضَاعُ لَيْلٍ.

وَمَا أَكَادُ أَحْرُثُ الْأَرْضَ

إِلَّا وَيَجِبُ عَلَيَّ بَذْرُ الْحُبُوبِ،

أَسِيرُ عَلَى خُيُوطٍ مُتَسَاوِيَةٍ مِنَ الْأَوْهَامِ

فِي طَرِيقٍ يَزْخَرُ بِالرُّمُوزِ وَالْأَلْغَازِ.

أَسْتَجْدِي الْأَيَّامَ،

وَأَتَمَرَّغُ فِي تُرَابِ الْأَقْدَارِ،

لَعَلَّهَا تَهَبُنِي، حُزْمَةً مِنْ ضَوْءٍ،

أَوْ قَطَرَاتٍ مِنْ عِطْرٍ.

فِي سَبِيلِ الضِّيَاءِ

وَالسِّبَاحَةِ فِي الْهَوَاءِ،

أَقْتُلُ الْبَعُوضَ

وَاصَلْتُ سَيْفِي بِوَجْهِ الذُّبَابِ،

وَلَكِنِّي أَسْمَعُ الْجَعْجَعَةَ وَلَا أَرَى الطَّحِينَ،



فَأَضْطَرُّ إِلَى أَكْلِ التُّرَابِ.
أَعِيشُ بَيْنَ قَطِيعِ الْغُيُومِ
وَأَسْتَضِيءُ بِمِصْبَاحٍ يَنْشُرُ الظَّلَامَ،
وَآكُلُ مَا يُقَدِّمُهُ الزَّمَانُ مِنْ وَجَبَاتٍ،
فَلَا أَجِدُ لَذَّةً فِي الطَّعَامِ،
وَأَقَعُ فِي بَعْضِ مَا يَنْصِبُ مِنْ شِبَاكٍ،
فَلَا أَسْتَطِيعُ الْإِفْلَاتَ، وَأَخِيراً عَرَفْتُ وَيَا لِلْبُؤْسِ وَالشَّقَاءِ
أَنَّنِي سَجِينٌ
فِي زَرِيبَةٍ
مُقَيداً بِسَلَاسِلَ مِنْ ذَهَبٍ.

الأحد
٨/ ٧/ ١٣٨١ = ١٧/ ١٢/ ١٩٦
محمّد الصدر
النجف – عراق

قطعة رمزية

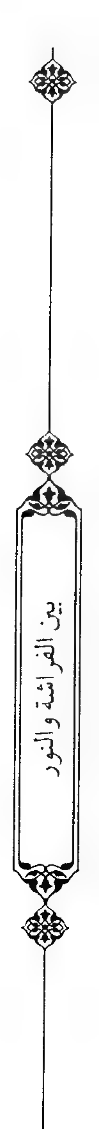
بين الفراشة والنور

وَبدَأَ الظَّلَامُ يَنْشُرُ أَجْنِحَتَهُ عَلَى الْأُفُقِ الْكَبِيرِ،
وَبدَأَ الضَّوْءُ يَنْحَسِرُ شَيْئاً فَشَيْئاً،
وَأَخذَ السَّأَمُ يَتسَلَّلُ إِلَى قَلْبِ هَذِهِ الْفَرَاشَةِ
وَهِيَ وَاقِفَةٌ فِي هَذَا الْـمَوْقِفِ الْحَائِرِ،
تَرْقُبُ ذَهَابَ النَّهَارِ،
وَتُوَدِّعُ بِوَدَاعِهِ الْجَمَالَ وَالْغِبْطَةَ وَالسُّرُورَ،
وَتَسْتَقْبِلُ اللَّيْلَ،
بِقَلْبٍ تَمْلَؤُهُ الْحَسْرَةُ وَالْأَسَى،
إِنَّ الظَّلَامَ يَزْدَادُ،
وَإِنَّ الضَّوْءَ يَتضَاءَلُ،
فَمَاذَا يُمْكِنُهَا أَنْ تَعْمَلَ،
وَهِيَ الْـمَخْلُوقُ الْجَمِيلُ الَّذِي يَحِنُّ بِطَبْعِهِ إِلَى النُّورِ.
وَتَلَفَّتَتْ،
لَعَلَّهَا أَنْ تَجِدَ بَعْضَ مَا يُعَوِّضُهَا عَنِ النَّهَارِ الَّذِي فَقَدَتْهُ
وَتَجَوَّلَتْ فِي أَرْجَاءِ مَكَانِهَا،
ثُمَّ أَغْرَقَتْ فِي الِابْتِعَادِ.

وَبَيْنَمَا كَانَ التَّعَبُ يَدْفَعُ أَصَابِعَهُ الْغَلِيظَةَ فِي إِهَابِهَا الْغَضّ
رَأَتْ! رَأَتْ هَذَا الَّذِي تَتَمَنَّاهُ،
وَمَا زَالَتْ تَحِنُّ إِلَيْهِ مُنْذُ أَنْ انْحَسَرَ الضِّيَاءُ وَجَاءَ الظَّلَامُ.
وَاقْتَرَبَتْ مِنْهُ
وَهِيَ أَشَدُّ مَا تَكُونُ بَهْجَةً وَسُرُوراً،
وَدَارَتْ حَوْلَ الْمِصْبَاحِ تُغَنِّي،
وَمَلأَ الضِّيَاءُ كِيَانَهَا،
وَمَلَكَ عَلَيْهَا قَلْبَهَا،
أَيُّ نَصْرٍ هَذَا الَّذِي أَحْرَزَتْهُ
فِي وَسَطِ الظَّلْمَاءِ الْمُتَرَاكِمَةِ،
وَلَكِنَّهَا لَا زَالَتْ تَطْلُبُ الْمَزِيدَ،
إِنَّهَا لَتَتُوقُ أَنْ تَمْتَزِجَ بِهَذَا الْجِسْمِ الْمُتَأَلِّقِ
الْوَاقِفِ فِي وَسَطِ الْمِصْبَاحِ،
لِكَيْ يَمْلأَ الضَّوْءُ كِيَانَهَا أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ،
فَهُوَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي يُمْكِنُهُ تَعْوِيضُهَا عَمَّا فَقَدَتْهُ
وَلَكِنَّهَا،
وَجَدَتْ الطَّرِيقَ إِلَيْهِ مَسْدُوداً،
إِنَّهَا تَرَاهُ وَلَكِنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَيْهِ
وَبَيْنَمَا هِيَ تُحَاوِلُ
اِرْتَفَعَتْ إِلَى أَعْلَى الْمِصْبَاحِ
فَوَجَدَتْ فُوهَةَ الزُّجَاجَةِ، وَمَا هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ قِصَارٌ،

إِلَّا وَامْتَزَجَتْ رُوحُهَا مَعَ هَذَا النُّورِ،
وَارْتَفَعَتْ فَوْقَ أَجْنِحَتِهِ،
إِلَى حَيْثُ الْأَبَدِيَّةُ وَالْخُلُودُ،
وَهَوَى جِسْمُهَا رَمَاداً
دَاخِلَ الْمِصْبَاحِ.

محمّد الصدر
النجف الأشرف- العراق
الجمعة ١٣/ ٧/ ١٣٨١ هـ = ٢٢/ ١٢/ ١٩٦١م



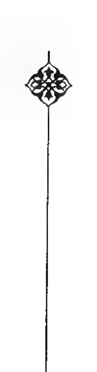
أيها القلم

إِيهٍ أَيُّهَا الْقَلَمُ،
لِمَاذَا أَجِدُنِي أُحِبُّكَ وَأَحْنُو عَلَيْكَ،
وَأُنَاجِيكَ طَوِيلاً؟
وَلِمَاذَا أَجِدُنِي أَضْحَكُ لِبُكَاكَ وَتَبْكِي لِضِحْكِي،
يَبْدُو أَنَّ بَيْنَنَا عِدَاءً فِي ثَوْبِ إِخْلَاصٍ
أَوْ إِخْلَاصاً فِي ثَوْبِ عِدَاءٍ،
إِنَّكَ تَجُولُ بَيْنَ طَيَّاتِ ذِهْنِي
وَتَطَّلِعُ عَلَى سَرَائِرِ فِكْرِي
ثُمَّ إِنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحَدِّدَ أَوْهَامِي
وَأَنْ تُسَجِّلَهَا بِأَمَانَةٍ
فَعَجَباً لَكَ مِنْ مَيِّتٍ خَيْرٍ مِنَ الْأَحْيَاءِ
وَسَاكِنٍ خَيْرٍ مِنَ الْعُقَلَاءِ.
إِيهٍ أَيُّهَا الْقَلَمُ!
إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَبَهاً لَا يُشْبِهُهُ شَبَهٌ،
فَكِلَانَا يُدْخِلُ رَأْسَهُ فِي الْـمَحْبَرَةِ
لِيَتَنَاوَلَ غِذَاءَهُ،
لِأَنَّهُ لَابُدَّ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ،

وَكِلَانَا يَخُطُّ عَلَى الطِّرْسِ كَلِمَاتٍ
تَتْبَعُهَا كَلِمَاتٌ مِنْ دُونِ رَغْبَةٍ أَوْ إِرَادَةٍ
وَكِلَانَا لَا يَكَادُ يَسْتَبِينُ،
مَا جَرَى بِهِ وَمَعَهُ عَلَى سَطْحِ الْوَرَقَةِ،
لِازْدِحَامِ الدَّمْعِ فِي عَيْنَيْهِ.
وَأَخِيراً أَيُّهَا الْقَلَمُ!
كِلَانَا يُفْنِي كِيَانَهُ عَامِلاً لِمَصْلَحَةِ غَيْرِهِ.
وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْفَائِدَةِ إِلَّا الْقَلِيلُ،
فَأَهْلاً بِكَ وَسَهْلاً،
مِنْ صَدِيقٍ مِنْ أَوْفَى الْأَصْدِقَاءِ
وَكَاتِبٍ مِنْ أَضْبَطِ الْكُتَّابِ
وَصَاحِبٍ إِنْ غَابَتِ الْأَصْحَابُ
وَاسْلَمْ.

الثلاثاء ١٧/ ٧/ ١٣٨١ = ٢٦/ ١٢/ ١٩٦١

محمّد الصدر



الدرهم الضائع

خِلَالَ سَاعَاتٍ قَلَائِلَ
وَبَعْدَ أَنْ تَكُونُ السِّبَاحَةُ قَدْ أَنْهَكَتْنَا مِنَ التَّعَبِ
وَلَمْ يَبْقَ مِنَّا إِلَّا الْهَشِيمُ
سَتَلْفُظُ هَذِهِ السَّنَةُ أَنْفَاسَهَا الْأَخِيرَةَ
وَتَدْخُلُ فِي ذِمَّةِ الْخُلُودِ،
وَسَيُغْتَصَبُ مِنْ جَيْبِي آخِرُ فَلْسٍ مِنَ الدِّرْهَمِ،
بَعْدَ أَنْ كُنْتُ أَمْتَلِكُهُ جَمِيعاً فِي زَمَنٍ مَضَى.
فَفِيمَ تَصَرَّفَ هَذَا الدِّرْهَمَ
وَإِلَى أَيْنَ ذَهَبَ؟
وَمَاذَا كَانَ رِبْحِي لِقَاءَ هَذِهِ الْخَسَارَةِ؟
إِنَّنِي أُحَدِّقُ وَلَكِنْ لَا يُمْكِنُ أَنْ أَرَى،
لَا يُمْكِنُ أَنْ أَرَى سِوَى الْأَشْبَاحِ الرَّاقِصَةِ
وَالظِّلَالِ الْبَاهِتَةِ،
إِنَّنِي لَا أَجِدُ سِوَى أَنَّ عَاتِقِي قَدْ ازْدَادَ جُهْداً.
وَعُمْرِي قَدْ ازْدَادَ نُقْصَاناً.
وَعَيْنِي قَدْ أَضْنَاهَا التَّحْدِيقُ!
عَلَى مَ مَرَّتْ هَذِهِ السَّنَةُ الَّتِي لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا الْبَصِيصُ؟
إِنَّنِي أُحِسّ الْآنَ وكَأَنَّهَا لَمْ تَمُرَّ عَلَى شَيْءٍ.





لِأَنَّ مَا مَضَى فَاتَ.
وَلَمْ يَبْقَ لَنَا مِنْهَا إِلَّا صُوَراً مُرْتَعِدَةً وَخَيَالَاتٍ جَوْفَاءَ.
أَمَّا الْخَيْرُ
وَأَمَّا الشَّرُّ
وَأَمَّا فَعَّالِيَّاتُ الْحَيَاةِ الْـمُخْتَلِفَةُ
الَّتِي كُنَّا نَقُومُ بِهَا بِاهْتِمَامٍ صَارِمٍ
فَسَتَصْطَحِبُهَا إِلَى مَرْقَدِهَا الْأَخِيرِ.
لَيْتَنِي!
لَيْتَنِي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَلْتَفِتَ إِلَى الْـمَاضِي الْقَرِيبِ،
فَأَمُدَّ فِيهِ يَدَ الْإِصْلَاحِ؛
وَأَرْتِقَ مَا قَدْ يَكُونُ أَصَابَهُ مِنَ الْفُتُوقِ.
وَأَسْتَرْجِعَ بَعْضَ مَا قَدْ خَسِرْتُهُ مِنَ الدِّرْهَمِ الضَّائِعِ.
وَلَكِنْ! هَيْهَاتَ
فَكُلُّ مَا أَسْتَطِيعُهُ هُوَ أَنْ أَنْتَظِرَ
وَلَكِنْ مَاذَا أَنْتَظِرُ؟
لَعَلِّي أَنْتَظِرُ نِهَايَتِي؟
وَبَعْدَ أَنْ تَنْتَهِي هَذِهِ السَّاعَاتُ مِنْ دَوَرَانِهَا
سَيَبْزُغُ فَجْرٌ جَدِيدٌ
تَهُبُّ عَلَيْنَا أَنْفَاسُهُ الْعَطِرَةُ رَائِقَةً شَيِّقَةً
تُنْعِشُ الْقَلْبَ وَتَفْتَحُ النَّفْسَ
وَسَيَمُدُّ الْأَمَلُ ذِرَاعَيْهِ لِيَحْتَضِنَ الْوَلِيدَ الصَّغِيرَ،
وَسَتَكُونُ الشَّفَتَانِ مُسْتَعِدَّتَانِ لِإِعَادَةِ نَفْسِ الْأَصْوَاتِ مِنْ جَدِيدٍ!



وَالْفِكْرُ مُتَحَفِّزٌ يُرِيدُ الْوُثُوبَ
وَلَكِنْ!
وَالنَّهَارُ بَعْدُ لَمْ يَنْتَصِفْ
نَجِدُ الشَّمْسَ مُرْتَفِعَةً تُرِيدُ أَنْ تَشْوِي الْوُجُوهَ
لِتَتَحَوَّلَ سَوْدَاءَ قَاتِمَةً
وَعِنْدَئِذٍ
يَسْبُلُ الْأَمَلُ يَدَيْهِ
وَيُلْقِي بِالْوَلِيدِ الصَّغِيرِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ
وَيَقِفُ الْفِكْرُ وَاجِماً بَاهِتاً،
يَوَدُّ التَّحَرُّرَ وَالْإِنْطِلَاقَ
وَلَكِنْ وَيَا لِلْأَسَفِ الْعَظِيمِ.
إِنَّهُ لَنْ يَرَى بَرِيقَ هَذَا الْحَجَرِ الْكَرِيمِ
وَلَنْ يَتَنَسَّمَ هَوَاءَ الْحُرِّيَّةِ الْعَلِيلَ
مَا لَمْ يَشْهَدْ مَأْسَاةً
مِنْ أَرْوَعِ الْـمَآسِي الْبَشَرِيَّةِ عَلَيْهِ
يَخْسَرُ فِيهَا نَفْسَهُ فِيمَا يَخْسَرُ
وَعِنْدَئِذٍ تُشْرِقُ عَلَيْهِ شَمْسُ الْأَبَدِيَّةِ وَيَنْقَشِعُ عَنْهُ الْغُبَارُ الثَّقِيلُ.

الأحد: ٣١/ ١٢/ ١٩٦١م = ٢٢/ ٧/ ١٣٨١ هـ

محمّد الصدر

النجف الأشرف

قطعة رمزية

القارب التائه

وَسَرَتْ رِيحٌ بَارِدَةٌ مُظْلِمَةٌ،
فَتَصَبَّبَ ذِهْنِي عَرَقاً،
وَفَغَرَتِ الْأَزْهَارُ أَفْوَاهَهَا.
فَإِنَّنِي بَعْدَ أَنْ رَكِبْتُ مَتْنَ الرِّيَاحِ
وَقَتَلْتُ السِّنِينَ
وَبَعْدَ أَنِ احْتَلَبْتُ ضَرْعَ السَّحَابِ،
وَرَكَضْتُ وَرَاءَ الْـمُسْتَحِيلِ،
حَاوَلْتُ الْوُلُوجَ لِأَرَى الرِّتَاجَ.
كَانَ الرِّتَاجُ[1] بَارِداً بَرْدَ الْأَمْوَاتِ
صَادِئاً، يَلُفُّهُ الظَّلَامُ،
قَابِعاً فِي زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَا الْـمَجْهُولِ.
وَأَخِيراً اِسْتَطَعْتُ فَتْحَ الْبَابِ،
وَعِنْدَئِذٍ غُصْتُ فِي الْأَعْمَاقِ،
وَجُسْتُ خِلَالَ الشَّرَايِينِ وَالْأَعْصَابِ،



(١) الرِّتاج: الباب المغلق. راجع لسان العرب ٢: ٢٧٩، فصل الراء.

أَشُمُّ الرَّوائِحَ،
وَأَذُوقُ الطُّعُومَ.
فَلَمْ أَجِدْ، وَيَا لِلْهَوْلِ وَالشَّقَاءِ،
إِلَّا الْفَضَاءَ
مَنْ يَكُونُ؟
هَذَا الَّذِي أَتْعَبَتْ رِجْلَاهُ التَّرَاقُصَ لِنُورِ الشُّمُوعِ،
وَأَجْهَدَتْ يَدَاهُ مُحَاوَلَةَ لَـمْسِ النُّجُومِ.
مَنْ يَكُونُ؟
هَذَا الَّذِي بَصَقَ فِي وَجْهِ الزَّمَانِ،
وَبَدَا مِنْ كَثْرَةِ مَا شَرِبَ مِنْ كُؤُوسٍ،
كَالسَّكْرَانِ.
إِنَّهُ لَيْسَ سِوَى رَغْوَةٍ مِنَ الصَّابُونِ،
سَتَغْسِلُهُ الْمِيَاهُ،
أَوْ لُقَاحِ زُهُورٍ،
سَتَذْهَبُ بِهِ الرِّيَاحُ.
وَسَتَغْرُبُ الشَّمْسُ فَيَخْتَفِي الْهَبَاءُ.
وَبَيْنَمَا كَانَ الْقَارِبُ التَّائِهُ الصَّغِيرُ،
يُكَافِحُ تَلَاطُمَ الْمِيَاهِ،
وَيَكَادُ يَلْفِظُ نَفَسَهُ الْأَخِيرَ.





إِذْ بَرِقَ السَّحَابُ،

وَنَزَلَتْ بَعْضُ الْقَطَرَاتِ،

فَأَشْرَقَتْ عَلَى الْقَارِبِ شَمْسُ الْوُجُودِ،

وَأَيْنَعَ الْحَقْلُ الْجَدِيبُ.

الجمعة

١٦/ ١٠/ ١٣٨١هـ = ٢٣/ ٣/ ١٩٦٢م

محمّد الصدر

قطعة رمزية

تجربة مرة

وَفِي غَمْرَةٍ مِنْ تَدَفُّقِ الْمِيَاهِ؛
مَدَدْتُ يَدِي لِأَغْتَرِفَ مِنْهُ؛
وَإِذَا بِالتَّجْرِبَةِ تَجِفُّ، ثُمَّ تَسْتَحِيلُ أَشْوَاكاً،
وَتَطْغَى عَاصِفَةٌ مِنَ الْغُبَارِ الثَّقِيلِ،
ثُمَّ يَسُودُ الْكَوْنَ لَفْحٌ دَافِئٌ مِنَ الضَّجِيجِ الصَّامِتِ.
لَقَدِ انْدَاحَ الْقَدَرُ؛
عَنْ جَمْرَةٍ تَذْكُو؛ وَرَمَادٍ يَخْبُو،
وَمَاءٍ يَخْتَلِطُ بِدَمٍ.
انْدَاحَ،
لِأَجِدَ فِيهِ أَشْجَاراً خَضْرَاءَ جَافَّةً؛
وَبَحْراً مَائِجاً يَابِساً.
وَلِأَجِدَ نَهَاراً مُظْلِماً؛
وَلَيْلاً مُضِيئاً،
وَأَزْهَاراً مُرْعِبَةً
وَخَنَازِيرَ جَمِيلَةً.
كَانَتِ السَّاعَةُ تَسِيرُ بِإِصْرَارٍ وَعَزْمٍ؛

كَأَنَّها تُشِيرُ إِلَيَّ بِالْحِقْدِ الدَّفِينِ
وَكَانَتِ الْمِيَاهُ تَتَدَفَّقُ،
وَكَانَ خَيْطُ الضَّوْءِ يُحَاوِلُ التَّخَلُّصَ مِنْ خُيُوط الظَّلَامِ
وَكَانَتِ الْأَشْبَاحُ تَتَرَدَّدُ عَلَى الْـمَسْرَحِ؛
فَتَتَصَارَعُ وَتَتَلَاكَمُ،
ثُمَّ تَتَعَانَقُ وَيَرْتَفِعُ صَوْتُ الْقُبَلِ،
وَسْطَ أَمْوَاجٍ مِنَ الظَّلَامِ،
ثُمَّ تَمُطُّ شَفَتَيْهَا وَتَحُثُّ السَّيْرَ.
وَبَيْنَما كُنْتُ أُحَاوِلُ أَنْ أَجْمَعَ شَظَايَا نَفْسِي
وَقِطَعَ تَفْكِيرِيَ الْـمُحَطَّمِ،
لِأَتَجَنَّبَ الْاصْطِدَامَ بِهَذِهِ الْأَشْبَاحِ،
وَلِأَسْتَطِيعَ تَحَمُّلَ نَظَرَاتِهِمُ الْحَادَّةِ الزَّائِغَةِ؛
وَالرَّكْضَ بِسُرْعَتِهِمُ الْفَائِقَةِ
إِذْ نَطَّتْ نَفْسِي فَوْقَ الْجَبَلِ، ثُمَّ عَبَرْتُ النَّهْرَ
وَأَحْرَزْتُ بِذَلِكَ النَّصْرَ الْـمُبِينَ.

الجمعة

٢٢/ ١١/ ١٣٨١ هـ = ٢٧/ ٤/ ١٩٦٢م

محمّد الصدر



أمانٍ وآهات

بمناسبة انطفاء التيار الكهربائي في مساء هذا اليوم

قَالَ عَقْلِي حَبَّذَا،
أَعْلَم ُعِلْمَ الْأَوَّلِين،
أَمْشِي عَلَى سُطُورِهِ
أَخُوضُ فِي بُحُورِهِ،
أَسْمَعُ صَوْتَ الْغَابِرِين.
لَعَلَّنَا أَنْ نَسْتَبِينَ سِرَّ حَيَاتِنَا الْعَمِيق،
وَنَسْتَطِيعَ السَّيْرَ فَوْقَ خَيْطِهَا الْعَالِي الدَّقِيق،
وَأَجْتَلِي مِنْ أَمْرِهَا مَا كَانَ فِي التُّرْبِ دَفِين.
قُلْتُ لَهُ هَيْهَاتَ!
إِنَّا قَدْ فَقَدْنَا الْكَهْرُبَاء.
قَالَ عَقْلِي حَبَّذَا،
أَنْجُو مِنَ الضَّيْمِ الطَّوِيل،
أَنْجُو مِنَ الظَّلَام
وَالسَّيْرِ فِي الْغَمَام،
بِحِيلَةٍ مِنْ عَقْلِيَ الْحُرِّ الضَّئِيل.
لَعَلَّهُ يَنْجُو الْقَتِيل،







وَيُدْفَنُ الشَّرُّ بِأَعْمَاقِ الْقُبُور
وَيَعْبَقُ الجَوُّ بِأَنْوَاعِ السُّرُور
وَنَسْتَطِيعُ السَّيْرَ فِي لَـمْعٍ مِنَ النُّورِ جَمِيل.
قُلْتُ لَهُ هَيْهَات!
إِنَّا قَد فَقَدْنَا الْكَهْرُبَاء.
قَالَ عَقْلِي حَبَّذَا،
أَعْرِفُ أَسْرَارَ الْحَيَاة،
أَسْمَعُ خَفْقَ قَلْبِهَا،
أَعْلَمُ مَا فِي لُبِّهَا.
لِأَشْعَلَ النُّورَ بِوَجْهِ الظُّلُمَات.
لَعَلَّنِي أَفِيق،
مِنْ أَلَمِ الْحَرِيق،
وَأَفْرُضَ الْعَقْلَ عَلَى الْجَهْلِ اللَّئِيم
وَأَنْشُرَ الْحُبَّ عَلَى الْحَقْلِ الْعَدِيم،
وَأَسْتَطِيعَ السَّيْرَ فِي يُسْرٍ خِلَالَ الْفَلَوَات.
قُلْتُ لَهُ هَيْهَات!
إِنَّا قَدْ عُدِمْنَا الْكَهْرُبَاء.
قَالَ عَقْلِي حَبَّذَا،
أَعِيشُ فِي خَفْقِ الرِّيَاح،
أَطِيرُ فِي أَمَان،
فِي مَوْجَةِ الزَّمَان،

لِأَسْتَطِيعَ أنْ أُصَافِحَ الْحَيَاة،

وَأَنْظُرَ الْجَمال

وَأَعْبُرَ الْخَيَال

وأَمْسَحَ الْجِيفَةَ عَنْ وَجْهِ السِّنِين،

وَأَنْشُرَ السُّرُورَ بَيْنَ الْعَالَمِين،

لِأَحْتَسِي مِنْ مَائِهَا كَأْساً قُرَاح.

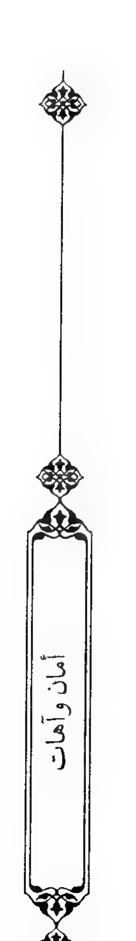
قُلْتُ لَهُ هَيْهَات!

إنَّا قَدْ فَقَدْنَا الْكَهْرُبَاء.

السبت

٢٣/ ١١/ ١٣٨١ = ٢٨/ ٤/ ١٩٦٢

محمّد الصدر



قطعة شعرية

من أنا

أَنَا!

مَنْ أَنَا؟

أَنَا غَيْمَةٌ سَمْرَاءُ فِي جَوِّ الخُلُودْ.

أَنَا رِعْشَةٌ بَيْضَاءُ،

فِي لَمْعٍ مِنَ الْبَرْقِ الجْدِيد.

أَنَا غَابَةٌ خَضْرَاءُ،

تَبْسُمُ بِالثِّمَارِ وِبِالْوُرُود

أَنَا!

مَنْ أَنَا؟

أَنَا لَحْمَةٌ حَمْرَاءُ فِي جِسْمٍ ضَئِيل،

وَفُتَاتُ خُبْزٍ يَابِسٍ،

مِنْ بَعْدِ إطْعَامٍ ثَقِيل.

أَنَا وَمْضَةٌ فِي جَوِّ هَذَا الْكَوْن،

تُؤْذِنُ بِالرَّحِيل،

أَنَا!

مَنْ أَنَا؟

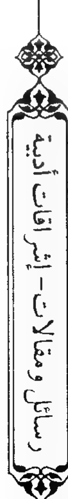
أَنَا قَارِبٌ مَا بَيْنَ مَوْجٍ كَالجِْبَال

أَنَا شَمْعَةٌ صَفْرَاءُ،
تَرْنُو نَحْوَ أُفْقٍ مِنْ مُحَال.
أَنَا قُوَّةٌ مَكْدُودَةٌ،
لَنْ تَرْتَجِي فَكَّ الْعِقَال،
أَنَا!
مَنْ أَنَا؟
أَنَا دَمْعَةٌ فِي مَحْجَرِ الدَّهْرِ الْعَمِيق.
وَعَبِيرُ وَرْدٍ ذَابِلٍ،
فِي أَسْفَلِ الْبِئْرِ السَّحِيق،
قَدْ جَفَّفَتْهُ يَدُ السِّنِين،
مِنْ بَعْدِ رَوْنَقِهِ الْحَقِيقِي.
أنا
مَنْ أَنَا؟
أَنَا بَسْمَةٌ،
حَارَتْ عَلَى وَجْهِ الْحَيَاة
أَنَا زَهْرَةٌ حَمْرَاءُ
قَدْ جَاءَتْ بِهَا الْأَيَّامُ مِنْ دُونِ الْتِفَات،
وَبَرِيقُ نُورٍ خَافِتٍ
قَدْ أَوْمَضَتْهُ يَدَا حَصَاة.

٢٣/ ١٢/ ١٣٨١ = ٢٨/ ٥/ ١٩٦٢

لهيب القوة

عِنْدَمَا تَذْبُلُ الْأَزْهَارُ،
وَيَخْتَنِقُ تَغْرِيدُ الْأَطْيَارِ
عِنْدَمَا يُخَيِّمُ الْوُجُومُ
وَتَتَلَبَّدُ السَّمَاءُ بِالْغُيُوم
عِنْدَئِذٍ تَكُونُ الْقُوَّةُ قَدْ أَذْكَتْ لَهِيبَهَا.
عِنْدَمَا يَشْحَبُ وَجْهُ الصَّبَاحِ،
وَيَنْطَفِي ضَوْءُ الشُّمُوعِ،
وَيَرْتَفِعُ صَوْتُ الزَّمَانِ،
عِنْدَمَا يَنْحَنِي ضَوْءُ الْفَجْرِ،
وَتَتَقَاطَرُ مِنْهُ الدُّمُوعُ
وَيُنَكِّسُ رَأْسَهُ فِي خُشُوعٍ
عِنْدَئِذٍ تَكُونُ الْقُوَّةُ قَدْ عَمِلَتْ عَمَلَهَا.
مَا الدِّمَاءُ حِينَ تَفُورُ مِنْ فَمِ الْجُرُوحِ
وَلَا الصُّرَاخُ عِنْدَمَا يَنْطَلِقُ مِنْ فَمِ الْأَيْتَامِ،
وَلَا النِّيَاحُ إِذْ تُطْلِقُهُ الْأَرَامِلُ،
وَلَا الزَّفَرَاتُ حِينَ تَعْلُو مِنَ الْقُلُوبِ الْمُنْكَسِرَةِ،
وَلَا الْآهَاتُ عِنْدَمَا تَحُومُ حَوْلَ الْجُيُوبِ الْفَارِغَةِ،
إِلَّا مِنْ أَثَرِ مَوْجِ الْقُوَّةِ الْعَاتِي.



مَا السُّيُوفُ ...
عِنْدَمَا تَرْتَفِعُ فِي الْفَضَاءِ لِتَضْرِبَ الْهَامَ،
وَلَا الرِّمَاحُ عِنْدَمَا تَلِجُ الْأَكْبَادَ،
وَلَا السِّهَامُ إِذْ تُصِيبُ الْقُلُوبَ،
إِلَّا بَرْقٌ مِنْ سَحَابِ الْقُوَّةِ الْكَثِيفِ،
مَا السَّجِينُ مُقَيَّداً فِي الْأَغْلَالِ،
قَابِعاً فِي زَاوِيَةٍ مُهْمَلَةٍ مِنْ زَوَايَا الْوُجُودِ،
وَلَا الْفَقِيرُ يَبِيتُ خَاوِيَ الْأَحْشَاءِ،
وَقَلْبُهُ يَهْفُو إِلَى كِسْرَةِ خُبْزٍ،
وَلَا الْكَسِيرُ تَعْلُو قَلْبَه الْآهَاتُ،
وَجِسْمُهُ يَرْتَعِدُ مِنَ الْأَلَمِ،
إِلَّا ضَحَايَا سَيْفِ الْقُوَّةِ الْجَبَّار.
لَنْ يَبِيتَ الْغَنِيُّ عَلَى الْفِرَاشِ الْوَثِيرِ
مُمْتَلِئاً جَوْفُهُ مِنَ الطَّعَامِ،
وَلَنْ يَكُونَ الصَّوْتُ قَوِيّاً،
كَأَنَّهُ الرُّعُودُ،
وَلَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ نَافِذاً
كَأَنَّهُ الْقَضَاءُ الْمَحْتُومُ،
إِلَّا حِينَ تَسِيرُ أَمْوَاجُ الْقُوَّةِ عَبْرَ الْأَثِيرِ
لَا يَكُونُ الْإِبْتِسَام مُتَلَأْلِئاً عَلَى الثُّغُورِ
وَلَا الْعِزَّةُ تَمْلَأُ النُّفُوسَ،
وَلَا تَسِيرُ خُيُوطُ الضَّوءِ بِاسْتِقَامَةٍ وَانْتِظَامٍ

فَيَدِبُّ فِي الرُّفَاتِ مَعْنىً مِنْ مَعَانِي الْحَيَاةِ،
وَلَا يَهْبِطُ النَّدَى عَلَى الثِّمَارِ
وَلَا يَنْتَشِرُ الضَّوْءُ فِي ظُلْمَةِ الصَّحْرَاءِ
إِلَّا حِينَ تَنْخَفِضُ مِنَ الْقُوَّةِ حَرَارَتُهَا.
لَنْ تُصْبِحَ أَكْوَاخُ الْفُقَرَاءِ قُصُوراً،
وَلَا الصَّحَارَى مُرُوجاً
وَلَا الْحَقْلُ الْجَدِيبُ نَاضِراً جَمِيلاً
وَلَنْ يُبَدِّدَ الضَّوْءُ جَحَافِلَ الظَّلَامِ
وَلَنْ يَنْتَشِرَ فِي الْكَوْنِ ...
فَيَمْلَؤُهُ مَحَبَّةً وَسَلَاماً
إِلَّا حِينَ تَحِدُّ الْقُوَّةُ مِنْ غُلَوَائِهَا
إِذَا ارْتَفَعَ لَهِيبُ الْقُوَّةِ
فَأَحْرَقَ النُّجُومَ.
وَإِذَا تَآمَرَتِ الْقُوَّةُ مَعَ الزَّمَانِ
لِتُنَفِّذَ غَرَضَهَا الْـمَنْشُودَ
وَإِذَا انْدَاحَ الْقَدَرُ
عَنْ أَكْوَام نَتِنَةٍ مِنَ الطُّغْيَانِ
فَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ
إِلَّا الْحَوْلَقَةُ وَالْإِسْتِرْجَاعُ.

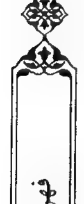
٢٨/ ١٢/ ١٣٨١ هـ = ٢/ ٦/ ١٩٦٢م

أنا

ضِمْنَ خَطٍّ الضَّوْءِ في الْأُفُقِ الْبَعِيد
تَحْتَ سِتْرٍ مِنْ دُجَى اللَّيْلِ الْعَتِيد
فِي قِفَارِ الْوَهْمِ
فِي سِجْنِ الْحَيَاةْ
في لَظَى الْأَنْغَامِ تَنْزُو عَنْ جَلِيد
كَانَ شَخْصٌ قَابِعٌ
يُدْعَى أَنَا،
فِي اصْطِدَامِ الْوَهْمِ بِالْعَقْلِ الْبَلِيد
فِي اخْتِلَاطِ الشَّرِّ بِالْفَجْرِ الْجَدِيد
وَالْتِبَاسِ الْعَيْشِ بِالْقَيْدِ الْحَدِيد
فِي مَيادِينِ الْحَيَاةْ
مَجَالَاتُ الْعَمَلِ،
كَانَ شَخْصٌ حَالُهُ هَذَا الصِّدَامْ
وَأَصَابَتْهُ شَظَايَا الْإِرْتِطَامْ
تَحْتَ ظِلٍّ مِنْ لَظَى الْبُؤْسِ الْعَنِيد
كَانَ هَذَا الشَّخْصُ فِي غُرْبَتِهِ
يُدْعَى أَنَا.

بُعيْدَ التاريخ السابق

مصادر الأجزاء الثلاثة





القرآن الكريم

نهج البلاغة

الصحيفة السجاديّة

١. أجود التقريرات، السيّد الخوئي قدس سره، تقريراً لأبحاث الشيخ النائيني قدس سره، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المقدّسة، الطبعة الأُولى: ١٤١٩ هـ.

٢. الاحتجاج، الشيخ الطبرسي، تعليق وملاحظات: السيّد محمّد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف: ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦م.

٣. الإحكام في أُصول الأحكام، تأليف: سيف الدين أبي الحسن عليّ بن أبي عليّ بن محمّد بن محمّد الآمدي، ضبطه وكتب حواشيه: الشيخ إبراهيم العجوز، الطبعة الخامسة: ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م، الناشر: دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان.

٤. الاختصاص، الشيخ محمّد بن محمّد المفيد، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار المفيد - بيروت، الطبعة الأُولى، ١٤١٣ هـ.

٥. إرشاد القلوب، للحسن بن محمّد الديلمي، الطبعة الثانية: ١٤١٥-١٣٧٤ هـ ش، الناشر: انتشارات الشريف الرضي، إيران - قم.

٦. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان



العكبري المفيد، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الرابعة: ١٤١٣ هـ ق.

٧. إرصاد الأدلّة في معرفة الوقت والقبلة، جعفر محمّد البحرانيّ (أبو المكارم)، تحقيق: عبد الأمير المؤمن، تاريخ الطبع: ١٤١٤هـ، إيران- قم.

٨. إزاحة العلّة في معرفة القبلة، لشاذان بن جبرائيل القمّي، تحقيق: هادي القبيسيّ، الناشر: دار الحقائق، تاريخ الطبع ١٤٢٨هـ، من دون ط.

٩. أُسد الغابة، ابن الأثير، الناشر: دار الكتاب العربيّ، بيروت - لبنان، أُفسيت: انتشارات إسماعيليّان - طهران.

١٠. أسرار البلاغة، لعبد القادر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر أبو فهر، الطبعة الأُولى: ١٩٩١م، الناشر: دار المدني بجدّة، مطبعة المدني بالقاهرة.

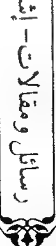
١١. أسرار العربيّة، لعبد الرحمن بن محمّد بن عبيد الله الأنباري، دراسة وتحقيق: محمّد حسين شمس الدين، الطبعة الأُولى: ١٤١٨ هـ= ١٩٩٧م، الناشر: دار الكتاب العلميّة، بيروت- لبنان.

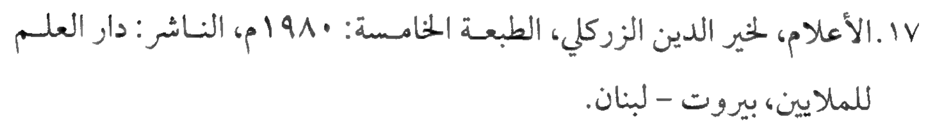
١٢. أُسلوب الدعوة في القرآن الكريم، بقلم: السيّد محمّد حسين فضل الله، من دون بيانات.

١٣. الإشارات والتنبيهات، أبو علي سينا، شرح: نصير الدين محمّد بن محمّد بن الحسن الطوسي، وشرح الشرح: للّعلامة قطب الدين محمّد بن محمّد أبي جعفر الرازي، الطبعة الأُولى: ١٣٨٣ ش، الناشر: نشر البلاغة، إيران- قم.

١٤. أُصول العلاقات السياسيّة، الدكتور أحمد سويلم العمري. بلا بيانات.

١٥. أُصول الفقه، الشيخ محمّد رضا المظفر، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المقدّسة.





١٦. أُصول الفقه، آية الله العظمى الشيخ حسين الحلّي، الناشر: مكتبه الفقه والأُصول المختصّة، الطبعة الأُولى: ١٤٣٢ هـ، قم- إيران.

١٧. الأعلام، لخير الدين الزركلي، الطبعة الخامسة: ١٩٨٠م، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت - لبنان.

١٨. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، الطبعة الأُولى: ١٤١٥ هـ = ١٩٩٤م، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

١٩. الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد، شيخ الطائفة الفقيه الأكبر أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسيّ، سنة الطبع: ١٤٠٠، الناشر: منشورات مكتبة جامع چهلستون، طهران- إيران، دون ط.

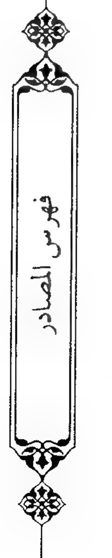
٢٠. اقتصادنا، السيّد الشهيد محمّد باقر الصدرقدّس سرّه، تحقيق: مكتب الإعلام الإسلامي (فرع خراسان)، الطبعة الثانية: ١٤٢٥ هـ = ١٣٨٢ ش، الناشر: مؤسّسة بوستان كتاب، قم - إيران.

٢١. إكمال الدين وتمام النعمة، لأبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (الصدوق)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الناشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، سنة الطبع: ١٤٠٥هـ، بدون ط.

٢٢. الأمالي، الشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ)، نشر وتحقيق مؤسّسة البعثة، قم، الطبعة الأُولى: ١٤١٧ هـ.

٢٣. الأمالي، الشيخ الطوسي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميّة، مؤسّسة البعثة، الطبعة: الأُولى، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، قم: ١٤١٤ هـ. ق.

٢٤. أنا - سيرة قلم، لعباس محمود العقّاد، المجموعة الكاملة، المجلّد الثالث،



السيرة الذاتيّة، الطبعة الأُولى: ١٩٨٢م، الناشر: دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان.

٢٥. الانتصار، للشريف المرتضى علم الهدى عليّ بن الحسين الموسويّ البغداديّ، تحقيق: مؤسّسة النشر الإسلاميّ، سنة الطبع: ١٤١٥، الناشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة.

٢٦. بحار الأنوار، محمّد باقر المجلسي، المتوفى ١١١١هـ ق، تحقيق: السيد هداية الله المسترحمي، الطبعة الثانية المصحّحة: ١٤٠٣هـ ق= ١٩٨٣م، مؤسّسة الوفاء، بيروت، لبنان.

٢٧. بحوث في علم الأُصول، أبحاث آية الله العظمى المحقّق السيّد الشهيد محمّد باقر الصدرﭬ، بقلم الشيخ حسن عبد الساتر، الطبعة الأُولى: ١٤١٧هـ، الناشر: الدار الإسلاميّة، بيروت – لبنان.

٢٨. بحوث في علم الأُصول، السيّد محمود الهاشمي، تقريراً لأبحاث آية الله العظمى السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر، مركز الغدير للدراسات، قم، الطبعة الثانية: ١٤١٧هـ.

٢٩. بصائر الدرجات، محمد بن الحسن الصفار، تصحيح وتعليق وتقديم: الحاج ميرزا حسن كوچه باغي، منشورات الأعلمي، طهران: ١٤٠٤ هـ = ١٣٦٢ ش.

٣٠. بغية الراغبين، الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدينﭬ، حقّقه وزاد عليه: العلّامة السيّد عبد الله شرف الدين، الطبعة الأُولى: ١٤١١هـ=١٩٩١ م، الناشر: الدار الإسلاميّة، بيروت– لبنان.

٣١. البيان في تفسير القرآن، السيّد أبو القاسم الخوئي، الطبعة الرابعة: ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م، الناشر: دار الزهراء، لبنان – بيروت.

٣٢.تاج العروس، للزبيدي، تحقيق: علي شيري، سنة الطبع: ١٤١٤-١٩٩٤م، بلا ط، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت.

٣٣.تاريخ الفلسفة اليونانية، دكتور يوسف كرم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦م.

٣٤.تاريخ عصر النهضة الأوربيّة، الدكتور نور الدين حاطوم، الناشر: دار الفكر، سوريا، سنة الطبع: ١٩٨٥م، بلا ط.

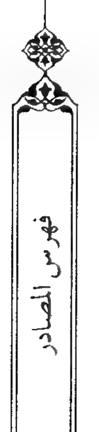
٣٥.تاريخ عصر النهضة الأُوربيّة، للدكتور نور الدين حاطوم، تصور ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م، عن ط ١٩٦٨م، الناشر: دار الفكر، دمشق- سوريا.

٣٦.التبيان في تفسير القران، الشيخ الطوسي، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، الطبعة: الأُولى، مكتب الإعلام الإسلامي، قم: رمضان المبارك ١٤٠٩ هـ.

٣٧.تحف العقول، ألّفه الشيخ الثقة الجليل الأقدم أبو محمّد الحسن بن عليّ بن الحسين بن شعبة الحراني، عنى بتصحيحه والتعليق عليه: علي أكبر الغفاري، الطبعة الثانية: ١٤٠٤هـ = ١٣٦٣هـ ش، الناشر: مؤسّسة النشر الإسلامي (التابعة) لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة.

٣٨.تحفة الحبيب على شرح الخطيب، لسليمان بن محمّد بن عمر البجيرمي، سنة الطبع: ١٤١٥، الناشر: دار الفكر، بيروت- لبنان.

٣٩.التشريف بالمنن في التعريف بالفتن (الملاحم والفتن)، السيّد ابن طاووس، الطبعة الأُولى: ١٥ شعبان/ ١٤١٦هـ، الناشر: مؤسّسة صاحب الأمر عجّل الله فرجه.



٤٠. التصوير الفنيّ في القرآن، لسيّد قطب، الطبعة الشرعية السادسة عشرة: ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢م، الناشر: دار الشروق، القاهرة - مصر.

٤١. تعليقة استدلاليّة على العروة الوثقى، للمحقّق الكبير الشيخ آقا ضياء الدين العراقي، الطبعة الأُولى: ١٤١٠هـ، تحقيق: مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، إيران- قم.

٤٢. تفسير القرآن، للفخر الرازي، الطبعة الثالثة. دون بيانات.

٤٣. تفسير المنار، لمحمّد رشيد بن عليّ رضا، الناشر: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، سنة الطبع: ١٩٩٠م.

٤٤. تفسير جوامع الجامع، للمفسّر الكبير والمحقّق النحرير الشيخ أبي عليّ الفضل بن الحسن الطبرسيّ، تحقيق: مؤسّسة النشر الإسلاميّ، الطبعة الأُولى:١٤١٨، الناشر: مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة.

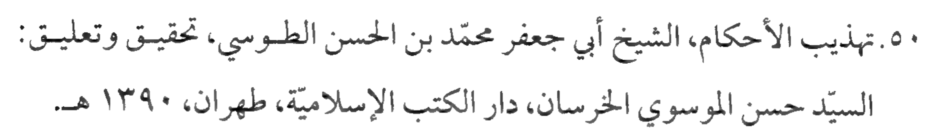
٤٥. تفسير كنز الدقائق و بحر الغرائب، محمّد بن محمّد رضا القمي المشهدي، تحقيق: حسين درگاهی، الطبعة: الأُولى، انتشارات وزارت إرشاد إسلامي طهران: ١٣٦٨ هـ. ش.

٤٦. تقريرات في علم أُصول الفقه، من أبحاث آية الله العظمى السيّد الخوئي قدس سره، بقلم آية الله العظمى السيّد الشهيد محمّد الصدر قدس سره (مخطوط).

٤٧. تكملة أمل الآمل، آية الله العظمى السيّد حسن الصدر قدس سره، تحقيق: السيّد أحمد الحسينيّ، سنة الطبع: ١٤٠٦هـ، الناشر: مكتبة آية الله المرعشيّ، قم- إيران، باهتمام: السيّد محمود المرعشيّ.

٤٨. تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، حقّقه وقدّم له وصنع فهارسه: محمّد عبد الغني حسن، الطبعة الأُولى: ١٣٧٤ = ١٩٥٥، الناشر: دار



إحياء الكتب العربيّة (عيسى البابي الحلبي وشركاه)، القاهرة.
٤٩. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام)، المؤلِّف: ورّام بن أبي فراس المالكي الأشتري، الطبعة الثانية: ١٣٦٨ ش، الناشر: دار الكتب الإسلاميّة، طهران- إيران.

٥٠. تهذيب الأحكام، الشيخ أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي، تحقيق وتعليق: السيّد حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، ١٣٩٠ هـ.
٥١. توفيق الحكيم، تأليف: إسماعيل أدهم، وإبراهيم ناجي، سنة الطبع: ٢٠١٢م، الناشر: الهيئة المصريّة للكتاب، بلا ط.
٥٢. ثواب الأعمال، الشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ) ، منشورات الرضي، قم، الطبعة الثانية.
٥٣. الثورة الفرنسيّة، الدكتور لويس عوض، الناشر: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، سنة الطبع: ١٩٩٢م.
٥٤. جامع المقاصد في شرح القواعد، المحقّق الثاني علي بن حسين الكركي العاملي (ت ٩٤٠ هـ)، مؤسّسة آل البيت، قم، ١٤١٤ هـ.
٥٥. جواهر الأُصول، من أبحاث آية الله العظمى السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر قدس سره، بقلم آية الله الشيخ محمّد باقر البناتي قدس سره، الطبعة الأُولى: ١٩٩٥م، الناشر: دار التعارف للمطبوعات، بيروت - لبنان.
٥٦. جواهر البلاغة، تأليف: أحمد الهاشميّ، من دون بيانات.
٥٧. جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، للفقيه المحقّق محمّد بن الحسن النجفي، الملقّب بصاحب الجواهر، تحقيق: عباس القوجاني وعلي الآخوندي، الناشر: دار الكتب الإسلاميّة- طهران، الطبعة الثانية.



٥٨. الجوهر النضيد، العلامة الحلّي، تحقيق: بيدار، منشورات بيدار، قم، الطبعة الثالثة: ١٤٢٧ هـ.

٥٩. الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، للشيخ المحدّث يوسف بن أحمد بن إبراهيم البحراني، تحقيق: السيد عبد الرزاق المقرّم، ومحمّد تقي الإيرواني، الناشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين، الطبعة الأُولى، قم، إيران، سنة الطبع: ١٤٠٥هـ.

٦٠. حياة محمّد، بقلم: محمّد حسين هيكل، من دون بيانات.

٦١. خزانة الأدب وغاية الأرب، المؤلِّف: عليّ بن محمّد الحموي (ابن حجّة الحموي)، الناشر: دار القاموس الحديث للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، دون ط وتاريخ.

٦٢. الخصال، الشيخ محمّد بن علي بن بابويه القمّي الصدوق، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر التابعة لجماعة المدرّسين - قم، الطبعة الأُولى: ١٣٦٢ ش.

٦٣. خصائص الأئمّة، لمحمّد بن الحسين بن موسى الموسوي البغدادي، المعروف بالشريف الرضي، تحقيق: محمّد هادي الأميني، سنة الطبع: ١٤٠٦هـ، الناشر: مجمع البحوث الإسلامية (العتبة الرضويّة المقدّسة)، إيران- مشهد.

٦٤. دارون ونظرية التطوّر، لشمس الدين آق بلوت، ترجمه عن التركية، أور خان محمّد علي، مركز بحوث بني آسيا، استانبول، ١٩٨٠م.

٦٥. الداروينيّة عرضٌ وتحليل، الأُستاذ يحيى محمّد، تقديم: السيّد محمّد الصدر، الطبعة الأُولى: ١٩٧٩م، الناشر: دار التعارف، بيروت- لبنان.

٦٦. دروس في معرفة الوقت والقبلة، للأُستاذ الكبير الشيخ حسن حسن زاده

آملي، الطبعة الرابعة: ١٤١٦، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة.

٦٧.دعائم الإسلام، القاضي المغربي (ت ٣٦٣ هـ) ، دار المعارف، القاهرة، تحقيق: آصف فيضي، طبع سنة ١٩٦٣م.

٦٨.الدولة والثورة، فلاديمير لينين، ترجمة لطفي فطيم، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، بلا ط، بلا تا.

٦٩.ذخيرة المعاد في شرح الإرشاد، المحقّق محمّد باقر السبزواري (ت ١٠٩٠ هـ)، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام، قم.

٧٠.رسائل الشجرة الإلهيّة في علوم الحقائق الربانيّة، لشمس الدين الشهرزوريّ، تحقيق: الدكتور نجفقلي حبيبي، الطبعة الأُولى: ١٤٢٥هـ الناشر: مؤسّسة الحكمة والفلسفة الإيرانيّة، طهران - إيران.

٧١.رفع الشبهات عن الأنبياء، حوار عقائديّ مع الشهيد السعيد آية الله العظمى السيّد محمّد الصدر طاب ثراه، ويليه أشعة من عقائد الإسلام (لنفس المؤلّف)، مراجعة وتصحيح: الشيخ حسن عطوان وعبد الكريم الزهيري، الطبعة الأُولى: ٢٠٠٥م، الناشر: ناظرين، قم- إيران.

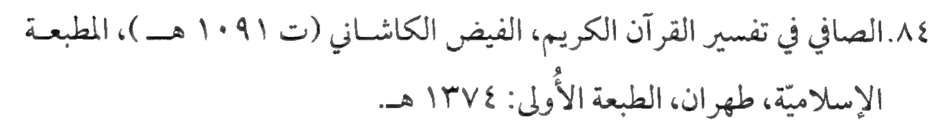
٧٢.الروضة البهيّة في شرح اللمعة الدمشقيّة، الشهيد الثاني (ت ٩٦٦ هـ)، منشورات جامعة النجف، تحقيق وتعليق: السيّد محمّد كلانتر، الطبعة الثانية: ١٤١٠ هـ.

٧٣.روضة الواعظين، الفتال النيسابوري، تقديم: السيّد محمّد مهدي السيّد حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضي، قم.

٧٤.زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، تحقيق:



الدكتور زكي المبارك، الطبعة الرابعة: ١٩٧٢، دار الجيل، بيروت- لبنان.
٧٥. السنّة في الشريعة الإسلاميّة، تأليف: محمّد تقي الحكيم، دون ط وتاريخ.
٧٦. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق وتعليق: سعيد محمّد اللحام، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٧٧. سوائر الأمثال على أفعل، حمزة بن الحسن الأصفهاني، الطبعة الأُولى: ١٤٠٩هـ= ١٩٨٨ م، الناشر: عالم الكتب، بيروت- لبنان.
٧٨. سيّد قطب والأُصوليّة الإسلاميّة، لشريف يونس، الطبعة الأُولى: ١٩٩٥م، الناشر: دار طيبة للدراسات والنشر، (١٠٤)، القاهرة - مصر.
٧٩. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المؤلّف: للمؤرّخ الفقيه الأديب أبي الفلاح عبد الحيّ، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، دون ط وتاريخ.
٨٠. شرح الإشارات والتنبيهات (مع المحاكمات)، الخواجة نصير الدين الطوسيّ، الطبعة الأُولى: ١٤١٧هـ، الناشر: نشر البالغة، قم- إيران.
٨١. شرح الإلهيّات من كتاب الشفاء، ملّا محمّد مهدي النراقي، تحقيق وتصحيح: حامد ناجي أصفهاني، الطبعة الأُولى: ١٣٨٠ش، الناشر: كنگره بزرگداشت محقّقان نراقى.
٨٢. شرح المقاصد، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله، تحقيق وتعليق مع مقدّمة في علم الكلام: الدكتور عبد الرحمن عميرة، تصدير: فضيلة الشيخ صالح موسى شرف، عالم الكتب للنشر والطباعة والتوزيع، الطبعة الأولى: ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩م.



٨٣. شرح المقاصد، مسعود بن عمر التفتازاني، تحقيق وتعليق: د. عبد الرحمن عميرة، منشورات الشريف الرضي، قم، الطبعة الأُولى: ١٤٠٩ هـ.

٨٤. الصافي في تفسير القرآن الكريم، الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ)، المطبعة الإسلاميّة، طهران، الطبعة الأُولى: ١٣٧٤ هـ.

٨٥. طبقات أعلام الشيعة الكرام البررة في القرن الثالث بعد العشرة، للشيخ آغا بزرگ الطهرانيّ قدّس سرّه، الناشر: دار المرتضى للنشر، مشهد المقدّسة، تاريخ النشر: ١٤٠٤هـ.

٨٦. طه حسين العقل والدين، لعبد الرزاق عبد، الطبعة الأُولى: ١٩٩٥م، الناشر: مركز الإنماء الحضاري، حلب.

٨٧. عقد الدرر في أخبار المنتظر، يوسف بن يحيى المقدسيّ، تحقيق: الدكتور عبد الفتاح محمّد الحلو، الطبعة الأُولى: ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م، الناشر: مكتبة عالم الفكر، ميدان سيّدنا الحسين - القاهرة.

٨٨. علل الشرايع، تأليف الشيخ الصدوق أبي جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها في النجف ١٣٨٥هـ = ١٩٦٦م، لم تذكر الطبعة.

٨٩. عوالي اللئالي العزيزيّة في الأحاديث الدينيّة، للشيخ المحقّق المتتبّع محمّد بن علي الأحسائي، المعروف بابن أبي جمهور، قدّم له: السيّد المرعشي النجفي، الطبعة الأُولى: ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م، طبعة سيّد الشهداء، قم - إيران.

٩٠. عيون أخبار الرضا عليه السلام، محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي قدّس سرّه، صحّحه وقدم له وعلّق عليه: الشيخ حسين الأعلمي، الطبعة الأُولى: ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م، لبنان - بيروت.





٩١. الغارات، المؤلِّف: إبراهيم بن محمّد الثقفي الكوفيّ، تحقيق: السيّد جلال الدين الحسينيّ الأرمويّ المحدّث، طبع على طريقة أُوفست في مطابع بهمن، دون ط وتاريخ.

٩٢. الفتوح، أحمد بن أعثم الكوفي، تحقيق: علي شيري، الطبعة الأُولى: ١٤١١هـ، الناشر: دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.

٩٣. فرائد الأُصول، للشيخ الأعظم أُستاذ الفقهاء والمجتهدين الشيخ مرتضى الأنصاري، إعداد وتحقيق: لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم، قم، مجمع الفكر الإسلامي، الطبعة الأُولى: شعبان المعظّم ١٤١٩هـ قم.

٩٤. الفصول الغرويّة في الأُصول الفقهيّة، الشيخ محمّد حسين الحائري، سنة الطبع: ١٤٠٤، الناشر: دار أحياء العلوم الإسلاميّة، قم - إيران.

٩٥. فلسفة الحجّ ومصالحه في الإسلام، السيّد الشهيد محمّد الصدر قدّس سرّه، تقديم: السيّد مقتدى الصدر، الطبعة الأُولى: ١٤٢٩، الناشر: مدين للطباعة والنشر، قم - إيران.

٩٦. فلسفتنا، دراسة موضوعية في معترك الصراع الفكري القائم بين مختلف التيارات الفلسفيّة وخاصّة الفلسفة الإسلاميّة والمادّيّة الديالكتيكيّة، السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر رضوان الله تعالى عليه، الطبعة الثالثة: ١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٤م، الناشر: مؤسّسة دار الكتاب الإسلاميّ.

٩٧. فوائد الأُصول، من إفادات قدوة الفقهاء والمجتهدين وخاتم الأُصوليّين الميرزا محمّد حسين الغروي النائيني قدّس سرّه، تأليف الأُصوليّ المدقّق والفقيه المحقّق العلّامة الرباني الشيخ محمّد علي الكاظمي الخراساني، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، الطبعة الخامسة: ١٤٠٦هـ، مع تعليقات

الشيخ ضياء الدين العراقي، تحقيق: الشيخ رحمت الله رحمتي الآراكي.

٩٨. في ظلال نهج البلاغة، لمحمّد جواد مغنية، الطبعة الأُولى: ١٤٢٧هـ، الناشر: كلمة الحقّ.

٩٩. قاموس الكتاب المقدّس، من إصدار مجمع الكنائس الشرقيّة، الطبعة السادسة: ١٩٨١م، الناشر: مكتبة المشغل، بيروت- لبنان.

١٠٠. القرآن وعلم النفس، الدكتور محمّد عثمان نجاتي، الطبعة الثالثة: ١٩٨٧م، الناشر: دار الشروق، القاهرة- مصر.

١٠١. قرب الإسناد، الشيخ الجليل أبي العباس عبد الله بن جعفر الحميريّ، تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأُولى: ١٤١٣هـ، إيران- قم.

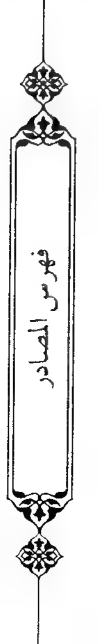
١٠٢. القوانين المحكمة، الميرزا القمي أبو القاسم، الطبعة الأُولى: ١٤٣١هـ، مؤسّسة إحياء الكتب الإسلامية، شرحه وعلّق عليه: رضا حسين صبح.

١٠٣. الكافي، محمّد بن يعقوب الكليني، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الثالثة: ١٣٨٨ هـ.

١٠٤. كامل الزيارات، جعفر بن محمّد بن قولويه، تحقيق: الشيخ جواد القيومي، الطبعة: الأُولى، المطبعة: مؤسّسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسّسة نشر الفقاهة، قم: عيد الغدير ١٤١٧ هـ. ق.

١٠٥. الكامل في التاريخ، لابن الأثير، سنة الطبع: ١٣٨٦-١٩٩٦م، الناشر: دار صادرات للطباعة والنشر - بيروت للطباعة والنشر، بلا ط، بيروت - لبنان.

١٠٦. كتاب البيع، تقريراً لما أفاده الأُستاذ آية الله العظمى السيّد روح الله الموسويّ الخمينيّ قدس سره، بقلم سماحة الحجّة آية الله العظمى السيّد الشهيد محمّد



الصدر(قدس سره)، تحقيق: مؤسّسة المنتظر لإحياء تراث آل الصدر، الناشر: المحبّين للطباعة والنشر، الطبعة الأُولى: ١٤٣٢هـ= ٢٠١١م، قم- إيران.

١٠٧. كتاب الحروف، أبو نصر الفارابي، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م، بلا ط.

١٠٨. كتاب الطهارة، من أبحاث آية الله العظمى السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر(قدس سره)، بقلم: آية الله العظمى السيّد الشهيد محمّد الصدر(قدس سره)، تحقيق: مؤسّسة المنتظر لإحياء تراث آل الصدر، الطبعة الأُولى: ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م، الناشر: مؤسّسة مدين للطباعة والنشر، قم- إيران.

١٠٩. كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغرّاء، الشيخ الكبير جعفر بن خضر كاشف الغطاء، الناشر: انتشارات مكتب التبليغات الإسلاميّ في الحوزة العلميّة في قم المقدّسة، الطبعة الأُولى: ١٤٢٢ هـ، قم - إيران.

١١٠. كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، علي بن عيسى الأربلي، تحقيق: هاشم رسول محلّاتي، منشورات بني هاشم - قم، الطبعة الأُولى، ١٣٨١ هـ.

١١١. كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، العلّامة الحلّي(رحمه الله)، تحقيق: الشيخ حسن زادة الآملي، الطبعة السابعة: ١٤١٧هـ. الناشر: مؤسّسة النشر الإسلاميّ، إيران- قم.

١١٢. الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)، أحمد بن محمّد الثعلبي النيسابوري، تحقيق: أبي محمّد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان: ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م.

١١٣. كفاية الأُصول، تأليف الأستاذ الأعظم المحقّق الكبير الآخوند الشيخ محمّد كاظم الخراساني، تحقيق: مؤسّسة آل البيت(عليهم السلام) لإحياء التراث، الطبعة الأُولى: ١٤٠٩هـ، قم المشرّفة.



١١٤. كنز العمال، المتقي الهندي، مؤسّسة الرسالة، بيروت: ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩م.

١١٥. اللزوميّات، لأبي العلاء المعرّي، تحقيق: أمين عبد العزيز الخانجي، سنة الطبع: ١٣٤٢ هـ، طبع بمطبعة التوفيق الأدبيّة بمصر، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة، بلا ط.

١١٦. لسان العرب، ابن منظور، المتوفى ٧١١هـ، سنة الطبع: ١٤٠٥ هـ، الناشر: أدب الحوزة، قم، بلا ط.

١١٧. ما وراء الفقه، السيّد الشهيد محمّد الصدر (ت١٤٢١ هـ)، دار الأضواء، بيروت، ١٤٢٠ هـ.

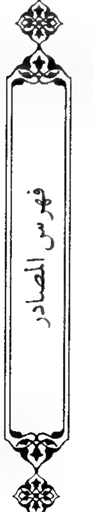
١١٨. مباحث الأُصول، بقلم سماحة آية الله العظمى السيّد كاظم الحائري، تقريراً لأبحاث آية الله العظمى الشهيد السيّد محمّد باقر الصدرقدس سره، الطبعة الأُولى: ١٤٢٨هـ، إصدار مكتب السيّد الحائري، قم.

١١٩. متشابه القرآن ومختلفه، للشيخ الجليل محمد بن عليّ بن شهرآشوب المازندرانيقدس سره، سنة الطبع: ١٣٢٨، دون ط.

١٢٠. مجمع البحرين، فخر الدين الطريحي، المكتبة المرتضويّة، طهران، إيران، ١٣٦٥هـ ش.

١٢١. مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٦٠ هـ)، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، تحقيق لجنة من العلماء، الطبعة الأُولى: ١٤١٥ هـ.

١٢٢. مجموعة أشعار الحياة، للسيّد الشهيد محمّد الصدرقدس سره، تقديم: السيّد مقتدى الصدر، تحقيق: مؤسّسة المنتظر لإحياء تراث آل الصدر، الطبعة الأُولى: ١٤٢٩هـ، الناشر: منشورات المحبّين، قم- إيران.



١٢٣. المجموعة الكاملة لمؤلّفات الأُستاذ عبّاس العقّاد، المجلّد الخامس عشر، (تراجم وسير) يحتوي على: ابن الرومي، أبو العلاء، الطبعة الثانيّة: ١٤١١ هـ = ١٩٩١م، الناشر: دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، دار الكتاب المصري القاهرة.

١٢٤. محاضرات في أُصول الفقه، تقريراً لأبحاث السيّد الخوئي، بقلم الشيخ محمّد إسحاق الفيّاض، الطبعة الثانية: ١٤٣١هـ، الناشر: مؤسّسة النشر الإسلامي، إيران- قم.

١٢٥. محصّل أفكار المتقدّمين والمتأخّرين من الحكماء والمتكلّمين، فخر الدين محمّد بن عمر الرازي، منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأُولى: ١٤٢٠هـ ق= ١٣٧٨هـ ش= ١٩٩٩م.

١٢٦. المحصول، فخر الدين الرازي، تحقيق: دكتور طه جابر فياض العلواني، الطبعة الثانية: ١٤١٢، المطبعة مؤسّسة الرسالة: بيروت- لبنان.

١٢٧. مختار الصحاح، للإمام محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ضبط وتصحيح: أحمد شمس الدين، الطبعة الأُولى: ١٤١٥هـ= ١٩٩٤م، الناشر: دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان.

١٢٨. مدخل إلى علم النفس الإسلاميّ، الدكتور محمّد عثمان نجاتي، الطبعة الأُولى: ١٤٢٢هـ= ٢٠٠١م، الناشر: دار الشروق، القاهرة - مصر.

١٢٩. المدرسة الإسلاميّة، سماحة آية الله العظمى الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر قدس سره، الطبعة الأُولى: ١٤٢١، الناشر: مركز الأبحاث والدراسات التخصّصيّة للشهيد الصدر قدس سره، قم- إيران.

١٣٠. المدرسة القرآنية (موسوعة الإمام الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر)،

تأليف: سماحة آية الله العظمى الإمام الشهيد السيّد محمّد باقر الصدرقدس سره، إعداد وتحقيق: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدرقدس سره، الطبعة الأُولى المحقّقة لهذه الموسوعة: ١٤٢٩هـ، الناشر: دار الصدر، إيران - قم.

١٣١. مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، العلّامة شيخ الإسلام المولى محمّد باقر المجلسيّقدس سره، قدّم له: العلم الحجّة السيّد مرتضى العسكريّ، إخراج ومقابلة وتصحيح: السيّد هاشم الرّسولي، الطبعة الثانية: ١٤٠٤هـ = ١٣٦٣ ش، الناشر: دار الكتب الإسلاميّة، طهران- إيران.

١٣٢. مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي، ط٢، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، الناشر: منشورات دار الهجرة، إيران - قم.

١٣٣. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، شرحه وضبطه وصحّحه وعنون موضوعاته وعلّق حواشيه: محمّد أحمد جاد المولى بك، محمّد أبو الفضل إبراهيم، علي محمّد البجاوي، مكتبة دار التراث، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ.

١٣٤. مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، تأليف الميرزا النوري، نشر وتحقيق: مؤسّسة آل البيتعليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأُولى: ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م، بيروت لبنان.

١٣٥. المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للذهبي، طبعة مزيدة بفهرس الأحاديث الشريفة، الناشر: دار المعرفة، بيروت - لبنان، دون تاريخ.

١٣٦. مستند العروة الوثقى (موسوعة السيّد الخوئي)، محاضرات زعيم






الحوزة العلميّة آية الله العظمى السيّد أبو القاسم الموسويّ الخوئي، تأليف: الشيخ مرتضى البروجرديّ، الطبعة الثانية: ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م، الناشر: مؤسّسة إحياء آثار الإمام الخوئي، إيران- قم.

١٣٧. مسرح المجتمع، لتوفيق الحكيم، الناشر: مكتبة الآداب، الطبعة السادسة: ١٩٥٠م.

١٣٨. مسند أحمد، للإمام أحمد بن حنبل، الناشر: دار صادر، بيروت- لبنان، بدون ط.

١٣٩. المسيحيّة، الدكتور أحمد شلبي، الطبعة العاشرة: ٢٠٠٠م، الناشر: مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة.

١٤٠. مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين عليه السلام، تأليف: الحافظ رجب البرسي، تحقيق: علي عاشور، الطبعة الأُولى: ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م، الناشر: منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.

١٤١. مصباح المتهجّد، الشيخ الطوسي محمّد بن الحسن (ت٤٦٠ هـ)، مؤسّسة فقه الشيعة، بيروت، ١٤١١ هـ.

١٤٢. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للرافعي، أحمد بن محمّد الفيوميّ، الناشر: منشورات دار الرضي، بلا تا، بلا ط.

١٤٣. مطارح الأنظار، الشيخ مرتضى الأنصاري، الطبعة الأُولى: حجري.

١٤٤. مع أبي العلاء في سجنه، لطه حسين، تاريخ الطبع: ١٩٨١م، دون ط، الناشر: دار المعارف.

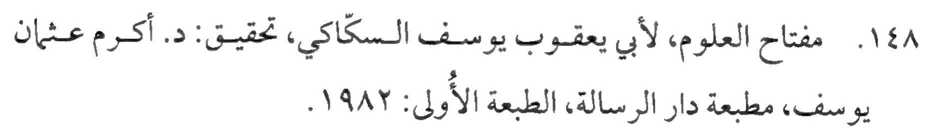
١٤٥. المعجزة الخالدة، للسيّد هبة الدين الشهرستاني، من دون بيانات.

١٤٦. معجم أعلام المورد، لمنير البعلبكي، الطبعة الأُولى: ١٩٩٢م، الناشر:



دار العلم للملايّين، بيروت – لبنان.

١٤٧. معجم المؤلّفين، لعمر كحالة، الناشر: مكتبة المثنى، بيروت – لبنـان، ودار إحياء التراث العربي، بلا تا، بلا ط.



١٤٨. مفتاح العلوم، لأبي يعقـوب يوسـف الـسكّاكي، تحقيـق: د. أكـرم عـثمان يوسف، مطبعة دار الرسالة، الطبعة الأُولى: ١٩٨٢.

١٤٩. مفـردات ألفـاظ القـرآن، الراغـب الأصـفهاني، تحقيـق: صـفوان عـدنان داوودي، الطبعة الثانية: ١٤٢٧هـ، الناشر: طليعة النـور، إيـران– قـم، مركـز التوزيع: مكتبة ذوي القربى، إيران – قم.

١٥٠. المقاصد العليّة في شرح الرسالة الألفيّة، الشهيد الثاني زين الـدين العـاملي (ت٩٦٦ هـ)، دفتر تبليغات اسلامي، قم، ١٤٢٠ هـ.

١٥١. مَن لا يحضره الفقيه، الشيخ محمّد الـصدوق، الطبعـة الثانيـة: ١٤٠٤هــ، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة في قم المقدّسة.

١٥٢. مناقب آل أبي طالب، الإمام الحافظ ابن شـهر آشـوب، تـصحيح وشرح: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، سنة الطبع: ١٣٧٦هــ = ١٩٥٦م، النـاشر: المكتبة الحيدريّة، النجف الأشرف.

١٥٣. مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، محمّد بن سليمان الكوفيّ، تحقيـق: الـشيخ محمّد باقر المحمـودي، الطبعـة الأُولى: ١٤١٢، النـاشر: مجمـع إحيـاء الثقافـة الإسلاميّة، قم المقدّسة.

١٥٤. منّة المنّان في الـدفاع عـن القـرآن، آيـة الله العظمـى الـسيّد الـشهيد محمّـد الصدر قدس سره، تحقيق وتقرير: مؤسّسة المنتظر لإحياء تـراث آل الـصدر، الطبعـة الأُولى: ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م، الناشر: المحبّين للطباعة والنشر، قم– إيران.

١٥٥. المنتخب من تفسير القرآن والنكت المستخرجة من كتاب التبيان، للفقيه الجليل الشيخ أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن إدريس الحلّي، تحقيق: السيّد مهدي الرجائي، إشراف: السيّد محمود المرعشي، الطبعة الأُولى: ١٤٠٩، الناشر: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي العامّة - قم المقدّسة.

١٥٦. منهاج الملّة في بيان الوقت والقبلة، للمولى عليّ علياري الغروي، تحقيق وتصحيح: السيّد هداية الله المسترحمي الأصفهاني، الطبعة الأُولى: ١٤٢١هـ، الناشر: بنياد فرهنك إسلاميّ.

١٥٧. منية الطالب في شرح المكاسب، للشيخ موسى بن محمّد النجفي الخوانساري(قدس سره)، تقريرات المحقّق محمّد حسين النائيني(قدس سره)، تحقيق ونشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، الطبعة الأُولى: ١٤١٨هـ.

١٥٨. المواعظ واللّقاءات، لآية الله العظمى السيّد الشهيد محمّد الصدر(قدس سره)، إعداد: هيئة تراث السيّد الشهيد الصدر(قدس سره)، الناشر: دار ومكتبة البصائر، بيروت- لبنان، تاريخ النشر: ١٤٣٤هـ = ٢٠١٣م، بلا ط.

١٥٩. المواقف في علم الكلام، عبد الرحمن عضد الدين الإيجي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأُولى: ١٤١٧هـ = ١٩٩٩م.

١٦٠. المواقيت الإسلاميّة، لمحمّد الياس، تقديم: السيّد محمّد الصدر، من دون ط وتاريخ.

١٦١. موسوعة أعلام العلماء والأُدباء العرب والمسلمين، إصدار: دار الجيل، الطبعة الأُولى: ٢٠٠٤م.

١٦٢. موسوعة الأديان الميسّرة، إصدار: دار النفائس، الطبعة الأُولى:

١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.

١٦٣. موسوعة الإمام المهدي، تأليف الشهيد السعيد آية الله العظمى السيّد محمّد محمّد صادق الصدرقدس سره، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ= ٢٠٠٧ م، دار القارئ، بيروت – لبنان.

١٦٤. الموسوعة العربيّة الميسّرة، تأليف: مجموعة من الأساتذة، الناشر: المكتبة العصرية، الطبعة الثالثة المحدّثة، والأُولى للدار: ٢٠١٠م، صيدا – لبنان.

١٦٥. الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، للدكتور مانع بن حماد الجهني، الطبعة الرابعة: ١٤٢٠، دار الندوة العالميّة للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض.

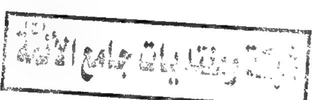
١٦٦. موسوعة عباقرة الإسلام، للدكتور محمّد أمين فرشوخ، الطبعة الأُولى: ١٩٩٥م، الناشر: دار الفكر العربي، بيروت– لبنان.

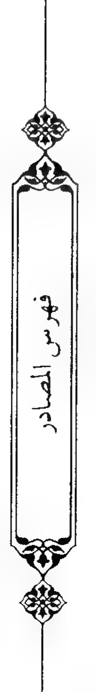
١٦٧. موسوعة علماء العرب والمسلمين، للدكتور محمّد فارس، الطبعة الأُولى: ١٩٩٣م، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر.

١٦٨. الميزان في تفسير القرآن، تأليف: العلاّمة السيّد محمّد حسين الطباطبائي، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلميّة في قم المقدّسة، لم تذكر الطبعة ولا تاريخها.

١٦٩. نتائج الفكر في النحو، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوّض، الطبعة الأُولى: ١٤١٢= ١٩٩٢، الناشر: دار الفكر، بيروت – لبنان.

١٧٠. النقد الأدبيّ أُصوله ومناهجه، للسيّد قطب، الطبعة السادسة: ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م، الناشر: دار الشروق، القاهرة.







١٧١. نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري، الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسّسة المصريّة العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب، بلا ط، بلا تا.

١٧٢. نهاية الأفكار، أبحاث المحقّق الكبير آية الله العظمى الشيخ ضياء الدين العراقي، بقلم: الشيخ محمّد تقي البروجردي النجفي، الطبعة الثالثة: ١٤١٧هـ، الناشر: مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة.

١٧٣. نهاية الإقدام، عبد الكريم الشهرستاني، المكتبة الثقافيّة الدينيّة، مصر، لم تذكر الطبعة ولا سنة الطبع.

١٧٤. نهاية الدراية في شرح الكفاية، المحقّق الشيخ محمّد حسين الأصفهاني، الطبعة الثانية: ١٤٢٩هـ، الناشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت - لبنان.

١٧٥. نهاية المرام في علم الكلام، تأليف: نابغة عصره وفريد دهره العلّامة الحلّي، إشراف: الشيخ جعفر السبحاني، تحقيق: فاضل العرفان، الطبعة الأُولى: ١٤١٩، الناشر: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، قم- إيران.

١٧٦. الوافي، للمحدّث الفاضل والحكيم العارف الكامل محمّد محسن، المشتهر بـ(الفيض الكاشاني قدس سره)، تحقيق: ضياء الدين الحسيني الأصفهاني، الطبعة الأُولى: ١٤٠٦هـ، الناشر: مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام العامّة، أصفهان- إيران.

١٧٧. وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تأليف: الفقيه المحدّث الشيخ محمّد بن الحسن الحر العاملي، تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام، الطبعة الثانية:

١٤١٤هـ قم.

١٧٨. ينابيع المودة لذوي القربى، القندوزي، تحقيق: السيّد علي جمال أشرف الحسيني، الطبعة الأُولى، الناشر: دار الأُسوة للطباعة والنشر، قم: ١٤١٦ هـ. ق.

١٧٩. يوميّات نائب في الأرياف، لتوفيق الحكيم، الناشر: مكتبة مصر، دون ط وتاريخ.

فهرس المحتويات

نظرات سريعة

في كتب خمسة



مقاطع شعر ممّا لم تنشر


فهرس المحتويات


شبكة ومنتديات جامع الأئمة